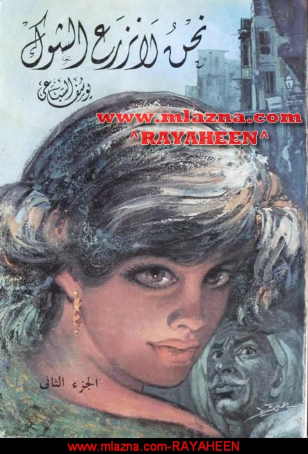


نحن لا نزرع الشوك
يوسف السباعي
الجزء الثاني

(٢٣)

خطوات فى الطريق الخاص

أحضرت سيدة العشاء للشلة .

وكان طلعت قد قفز من الشرفة لشراء بطيخة بعد أن جمع ثمنها من كل واحد قرشا ..

وجلس الرفاق يأكلون الملوخية والأرز فى استمتاع شديد .. وكـأنهم يأكلون كما تقول أم عباس لسيدة : « فى آخر زادهم » .

وبعد العشاء لم ينتظروا حتى تحضر سيدة سكينة لكسر البطيخة .

بل أمسكها طلعت بكلتا يديه ثم ضربها على حافة سور الشرفة ففلقها نصفين ثم أطبق بكفه على قلبها وأخذ فى التهامه .

وأمسك الشيخ حلمى بنصف البطيخة بعد أن انتزع منها القلب قائـلا لطلعت :

— متوحش .. تحتاج إلى وقت طويل لكى تتعلم طريقـة الآدمـيين فى الطعام ..

ورد عليه طلعت ببساطة وهو يلتهم قلب البطيخة قائلا :

— اتلهى ..

وانتهت الشلة من الطعام وأكل طلعت قلب البطيخة ثم فرد ذراعيه وضرب على صدره متسائلا :

— يا ناس مازلت جعانا ..

وقال له الشيخ حلمى :

— كلنى بقى !

ـــ لا أحب لحم الحمير ..

وهز الشيخ حلمى رأسه متأففا ، وقال فى لهجة ازدراء :

ـــ يخاطبنى السفيه بكل قبح ..

ـــ هذا هو ما نأخذه منك يا شيخ هباب .. نحن نريد طعاما وليس شعرا ..

نابليون قال الجيوش تمشى على بطونها يا شيخ جلمى .. ولا تمشى على الشعر ..

والتفت طلعت إلى حمدى متسائلا :

ـــ ماذا عندكم فى المطبخ يا حمدى ؟

ـــ لاشىء غير الملوخية والأرز ..

ـــ متأكد ؟

ـــ اذهب وابحث بنفسك .

و لم يتردد طلعت رغم ملاحقة الشيخ حلمى له باللوم والتقريع ومحاولة ردعه بقوله :

ـــ يا جدع اختشى .. ألا يحتمل أن تصادف أحدا فى المطبخ ؟

ورد طلعت :

ـــ الحريم كلهم خرجوا .. ولا يوجد غير البت سيدة ..

ورد صلاح :

ـــ ألا تعتبر سيدة حريم ؟

ـــ سيدة منا وعلينا ..

ثم خرج من الحجرة ضاحكا :

ـــ بت يا سيدة .. عندكم إيه فى المطبخ ؟

وقبل أن تجيب سيدة اقتحم المطبخ ، وأخذ فى البحث فى الحلل والأطباق حتى عثر على بيضة فى النملية فأخذها وأسرع إلى الشرفة قائلا :

ـــ وجدتها !

ثم أمسك بالبيضة سائلا حمدى :

ـــ مسلوقة ولا نية ؟

وهز حمدى رأسه قائلا :

ـــ أظنها مسلوقة .

وهزها طلعت بجوار أذنيه قائلا :

ـــ يبدو فعلا أنها مسلوقة .. ما رأيكم فيمن يبتلعها مرة واحدة ؟

ورد صلاح : وإيه يعنى .. أنا أستطيع ..

ـــ وإيه يعنى .. أنا أستطيع ..

وعاد طلعت يهز البيضة قائلا :

ـــ إذن ما رأيكم فيمن يكسرها بضربة واحدة فى رأسه !

وأمسك صلاح بالبيضة ونقر بها رأسه ثم سلمها إلى طلعت قائلا :

ـــ لا ياعم .. لست مستغنيا عن رأسى من أجل بيضة ؟

وتناول طلعت البيضة وهو يقول :

ـــ أنا مستعد .. مين يراهن ؟ قرش صاغ بقرش صاغ ..

وقال صلاح ..

ـــ أنا أراهن ..

ورفع طلعت البيضة وقربها من جبينه وعاد يسأل حمدى :

ـــ تراهن ؟..

ورد حمدى :

ـــ أنا لم أجرب كسر البيضة فى رأسى حتى أراهنك ..

وتدخل الشيخ حلمى قائلا :

ـــ يا جدع دع البيضة وإلا كسرت رأسك !

ولكن طلعت نقر البيضة فى رأسه فطقشت ؟

و لم تكن البيضة مسلوقة وانحدر البياض والصفار على حاجبى طلعت وأنفه !

وصرخ طلعت :

ـــ يا ولاد الصرم .. دى نية .. كده تعملوها فيه ؟..

وهتف الشيخ حلمي :

— انت الذى عملتها فى نفسك يا غبى .. من قال لك اكسرها ؟

ومد طلعت لسانه ليتلقى البيض السائل ، ومد يده فى نفس الوقت لصلاح قائلا :

— هات الصاغ يا بأف !..

و لم ينتظر صلاح بل قفز من الشرفة .. وقفز طلعت وراءه ..

ثم قفز حمدى والشيخ حلمى وراءهما .. وانطلق الأربعة ليتمشوا إلى ساحل روض الفرج .

واستمر تجمع الشلة .. كل يوم عند أحد الرفاق .. يقضون السهرة فى مناقشات سياسية وجدل ومزاح وأكل وخروج للتمشى على ساحل روض الفرج .. ومشاهدة فرقة الكسار وفوزى منيب من خارج السور ، واستئجار مركب للتجديف .. حتى بدأت الدروس على حد قولهم « تكبس » وحل موسم الامتحانات ، وأخذت الشلة تنهمك فى الاستذكار .. وكانت سيدة خلال تلك الشهور تحاول أن تجد الطريق إلى حياتها الخاصة .. إلى منطقة نفوذها بجوار صندوق الكازوزة .

وذات عصر كانت العمة تزورهم هى وابنتها الصغيرة كوثر ..

وسألت سيدة الأم فى تردد واستحياء :

— هل أستطيع أن ألبس الغوايش ؟

وربتت الأم على كتفها فى رفق ، وأخرجت الغوايش من الدولاب وسلمتها إليها قائلة :

— خدى بالك منهم .. ما تروحيش هنا والا هنا ..

وردت سيدة :

— سأتمشى مع ست كوثر لآخر الشارع .. سأشترى لها مصاصة !

— لا تتأخرى ..

وخرجت سيدة وقد ارتدت الغوايش وهى تمسك بكوثر فى يدها واتجهت إلى عبد الحميد البقال واشترت المصاصة لكوثر وفى طريق عودتها لم تعد من أقصر الطرق بل دارت دورة ساقتها إلى صندوق الكازوزة . وبدا كأن مرورها بعلام مجرد مرور عابر فى الطريق و لم يكد يراها علام حتى وثب من مكانه واندفع إليها قائلا :

— ازيك يا سيدة .. لماذا لا تأتين ؟

وردت سيدة فى غير اكتراث :

— ولماذا آتى ؟

— هل حرمتم الكازوزة ؟

— لا تلزمنا !

— والضيوف ؟

— يشربون القهوة ..

— ألا تحتاجون إلى ثلج ؟

— والقلل القناوى ما لها ؟

— يعنى استغنيتم عن علام ؟

— الله الغنى ..

واستمرت سيدة فى سيرها ، ولكن علام أمسك كمها محاولا أن يستوقفها ..

— طب صبرك .. نتكلم ..

وتوقفت سيدة قائلة فى تحد :

— ماذا تريد ؟

— قلت لك نتكلم .. ناخد ونعطى ..

— وقفت .. قل ماذا تريد ؟

— أولا مبروك الغوايش .. حايكلوا من إيدك حته !..

ــ الله يبارك فيك ..
ــ متى اشتروهم لك ؟
ــ منذ مدة ..
ــ حلوين !!.. دهب ؟!!
ــ ٢٤ قيراط ..
ــ صرت ست .. يا سيدة !
ــ ماذا كنت تظننى ؟
ــ تعالى اقعدى ..
ــ لماذا ؟
ــ لكى نتكلم ..
ــ فيم ؟
ــ فى الموضوع الذى كلمتك عنه .. تعالى .
ــ ليس وقته !
ــ لماذا ؟
ــ البنت معى ..
ــ اذهبى إلى البيت ثم عودى ..
ــ ليس اليوم ..
ــ متى إذن ؟
ــ غدا ..
ــ الساعة كم ؟
ــ فى مثل هذا الوقت .. أكون قد شطبت البيت ..

وفى اليوم التالى استطاعت سيدة أن تدبر سببا لخروجها .. فرغ الصابون وخرجت لشراء قطعتين من البقال . وعند عودتها مرت بعلام .

وكانت الزيارة .. عن عمد .. وبموعد سابق .

وبدا علام يعد للقائها .

كان جلبابه المخطط نظيفا واللبدة قد لفت حولها اللاسة بعناية ..

وتوقفت سيدة أمام الصندوق ..

وأتى صبى يسأل علام :

ــ أعطنى بنكلة ثلج ..

وصرفه علام فى ملل قائلا :

ــ يالله يا ولد .. لا يوجد ثلج !

وجذب سيدة من ذراعها قائلا :

ــ تعالى يا سيدة اجلسى .
ــ لا أستطيع .
ــ لماذا ؟
ــ أى أحد يمكن أن يرانا ..
ــ وماذا فى ذلك ؟
ــ ماذا يقولون عنى ؟
ــ من هم ؟
ــ أى حد يمر ..
ــ ليقل ما يقول ..
ــ وعندما نفتضح فى الحى ؟..
ــ ملعون أبوهم !
ــ ولكنهم سيلعنون أبونا نحن ..
ــ ولا يهمك !
ــ كيف .. وماذا تقول سيدتى وسيدى حمدى ؟
ــ وهل يهمونك ؟
ــ طبعا .. إنى أخاف أن أمسهم ..

— ولماذا تمسينهم ؟
— لأنى .. لأنى ..
وترددت سيدة برهة ثم قالت :
— لأنهم يعتبروننى أحد أفراد العائلة ..
وضحك علام ساخرا :
— على نياتك يا سيدة .. أنت عندهم .. مجرد خادمة !
— ليس بالنسبة لهؤلاء الناس .. إنهم أناس طيبون ..
— كلهم أسياد .. وكلهم ولاد كلب !
— اخرس !
— خرست يا سيدة .. لا داعى للانفعال .. المهم تعالى نتكلم فيما هو أهم .
— قلت لك لا أستطيع أن أجلس ..
— إذن تعالى نتمشى ..
— أين ؟
وفكر علام برهة .. ثم قال :
— على الساحل :
— وعندما يرانا أحد ؟
— يرانا أحد ؟.. من هذا الذى يمكن أن يرانا فى الساحل ؟
— أى إنسان !
— لينفلق !
— نحن الذين سننفلق .. بعد أن تحدث فضيحة بجلاجل !
— فضيحة لماذا ؟
— لأنهم سيقولون سيدة مرافقة علام .. هل يرضيك هذا ؟
— ولكننا .. سنتزوج !
— إذن ننتظر حتى نتزوج .. إذا كنا سنتزوج ..

— ولكن المسألة تحتاج إلى أخذ وعطا يا سيدة .. لا بد أن نجلس سويا .. المسألة لا تتم هكذا خبط لزق .. هيا بنا !
— إلى أين ؟
— إلى الساحل ..
— الآن ؟!
— ولم لا ؟
— لأن المفروض أنى خرجت لمشوار عند البقال .. ولا أستطيع أن أتأخر ..
وبدا الضيق على وجه علام ثم أشار إليها بيده فى يأس :
— طيب انتهينا ..
— هل غضبت ؟
— ولماذا أغضب .. ليس فيك فائدة :
وقبل أن تواصل سيدة سيرها التفتت إليه قائلة :
— اسمع يا علام .. المسألة تحتاج إلى تدبير .. غدا سأخبر سيدتى أنى أريد الذهاب إلى السيدة .. وعندما تسمح لى سأخبرك .. ثم أمر عليك لنذهب إلى حيث نشاء .
وبدا الارتياح على وجه علام وقال متسائلا :
— ومتى ستأخذين الإذن ؟
— اصبر علىَّ حتى أدبرها .. لا بد أن أختار يوما تكون فيه السيدة خارجة فى مشوار .. ولا يكون عندنا غسيل أو تنظيف !
ومرة أخرى بدا الضيق على وجه علام وقال فى يأس :
— موت يا حمار لغاية ما يجيلك العليق !
وضحكت سيدة وهى تنصرف قائلة :
— قل للحمار يصبر .. كل شىء بأوانه !
— صبرنا كتير يا سيدة .

ــ الذى يصبر ينول يا علام .. خليتك بعافية .

ــ الله يعافيكى .. لا تغيبى على .

وعادت سيدة إلى البيت . وبنفسها إحساس بالنشوة ..

مغامرة توشكين أن تخوضى غمارها يا سيدة ..

حقيقة أن علام ليس هو المخلوق المثالى للمغامرة .. ولكن من أمامها سواه ..

إذا لم يكن علام .. مرضيا .. فإن المغامرة فى حد ذاتها ممتعة .

وبقى عليك أن تدبرى وسيلة الخروج ..

ولم يطل الانتظار .. بعد بضعة أيام .. كانت السيدة تتأهب للذهاب إلى الروضة لزيارة أقارب المرحوم مع سميحة والعمة .. وكانت سيدة قد انتهت من الغسيل والتنفيض .

وأقبلت على الأم تسألها فى رجاء :

ــ هل أستطيع أن أذهب اليوم إلى السيدة ؟

ــ لماذا ؟

ــ أزور أم عطوة فى الماوردى .. لقد مضت مدة طويلة لم أذهب إليها .. وواجب على الإنسان أن يود معارفه القدامى .

وهزت السيدة رأسها :

ــ برضه واجب يا سيدة .. هل معك أجرة الترام ؟

ــ معى قرشان .

ومدت السيدة يدها إلى كيس النقود وأخرجت قطعة من ذات القرشين قائلة :

ــ خذى هذين القرشين فقد تحتاجين إلى شىء بالإضافة إلى ما معك .

ــ كتر خيرك يا ستى .

ما أسهل الكذب يا سيدة ..

لقد خرجت الكذبة .. من شفتيك .. فى منتهى البساطة . وبغير أى تأنيب

ضمير ..

ولماذا تأنيب الضمير .. هل هناك سبيل سواه إلى ما تريدينه ؟.

ولو أنك قلت لها .. سأذهب للقاء علام والتمشى معه عند الساحل فماذا يمكن أن يكون ردها ؟

هل تقول لك « برضه واجب يا سيدة » ؟

إن الخروج للقاء علام .. فى نظر سيدة .. أمر واجب .. وإلا فكيف يمكن أن تأخذ معه وتعطى .. من أجل الزواج ..

ولكنه واجب فى نظرها .. وغير واجب فى نظر الغير .

إذن لتلتمس من أجل الذهاب سببا يمكن أن يجعل ذهابا واجبا فى نظر الغير كما هو واجب فى نظرها .

ولكن القرشين اللذين أخذتهما .. هل أخذهما واجب أيضا ؟..

إنها تستطيع أن ترفض أخذهما .. ولكن من الأفضل أن تبقيهما معها .. وإذا كان القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .. فالقرشان الأبيضان بلا جدال أكثر نفعا .

وأخذت سيدة القرشين .. وارتدت ثيابها .. وانطلقت إلى علام .

وأنهى علام ما بيده من عمليات بيع .. ثم سألها :

ــ هه .. ما هى أخبارك ؟

ــ أخذت إجازة ؟

ــ متى ؟

ــ الآن .

وبسرعة أغلق علام صندوق الكازوزة قائلا :

ــ هيا بنا .

وكان الوقت قبيل العصر .. والشتاء قد أدبر وبشائر الصيف قد أقبلت بسماء صافية تذوب نتف السحاب البيضاء فى صفحتها الزرقاء ونسمات بحرية لطيفة

تحمل نسمة باردة لا تلبث أن يبددها دفء الشمس. وسارت سيدة وقد بدا عليها الارتباك بجوار علام ، فى شارع بكتمر بحذاء سور طوسون حتى شارع أبو الفرج .

وكان الطريق خاليا إلا من فتيات يلعبن الحجلة وبعض نسوة افترشن عتبات الدور فى البيوت الواطئة قرب شارع أبو الفرج .

ووصل الاثنان إلى دوران روض الفرج عند المدرسة الإيطالية واتجهت سيدة إلى شارع كوبانية المياه قائلة فى حذر :

— الشارع هنا أقل زحاما .

وعبر علام عربة البطاطا الواقفة على ناصية الشارع وسألها :

— على مهلك .. حتى أشترى بطاطا .

وتوقف أمام العربة .. وسارت سيدة متمهلة فى الطريق الذى بدا خاليا إلا من بائع قصب يرفع عقيرته بالصياح :

— سليم يا قصب .

ولحق علام بسيدة وهو يحمل البطاطا بين كفيه وناولها قطعة قائلا :

— ألذ بطاطا .. نأكلها من الواد عوض ..

وعبرا الأرض الفسيحة المتربة .. إلى الجانب الآخر من الطريق .. واستمرا فى سيرهما حتى بلغا النيل .. وبدت شون الغلال والدكاكين الملأى ببلاليص العسل الأسود .. وأشجار الباتسبانس الجرداء تتشابك على شاطىء النيل ..

وقال علام :

— ما رأيك يا سيدة .. نأخذ فلوكة ؟

وترددت سيدة برهة وهى تنظر إلى مياه النيل فى خوف وقالت هامسة :

— أخاف .

— تخافين مم ؟

— من الغرق .

— لا تكونى عبيطة .. لقد تعودنا دائما أن نأخذ فلوكة للنزهة .. حتى جزيرة الوراق .

وهزت سيدة رأسها فى قلق قائلة :

— أنا لم أنزل إلى البحر من قبل .

— لا تخافى .. ستكون نزهة ممتعة .

وبدت القوارب الصغيرة مشدودة بالحبال إلى الشاطىء .. تتأرجح على صفحة المياه .. وعلى حافة الشاطىء جلس مراكبى عجوز يلوح بيده متسائلا :

— عايزين مركب ؟

وعاد علام يستحث سيدة :

— ماذا قلت يا سيدة ؟

— قلت لك أخاف .

ورد علام فى ضيق :

— إذن نجلس هنا على الشاطىء .

و لم يكن الشاطىء خاليا ..

كان عمال الشون يروحون ويجيئون .. وعربة ترمس قد كدس الترمس فى وسطها ووضع الفول المقلى على صينية فى مقدمتها .. ورصت القلل على حافتها واتكأ بائعها على يدها .. وأخذ ينظر إليهما نظرات فاحصة وهو ينادى مغنيا :

— طلعت أجيبه ترمس لقيته لوز .

ثم يردف بلهجة غزل وهو يتفحص جسد سيدة :

— يا لوز بلدنا يا حلو يا لوز .

وعلى مقربة منه جلس بائع سميط بجوار قفصه المستدير الذى علق الكحك على الأصابع الخشبية البارزة من حافته ..

وأحس علام بحرج من العيون المتطلعة إليه .. وخشى من ألفاظ السخرية التى يمكن أن تناله فى وقفته هذه والتى تعود هو أن يطلقها كلما رأى رجلا يسير مع

امرأة بطريقة مريبة مثل « سيب النعجة يا خروف » .

وجذب سيدة من ذراعها قائلا :

— هيا بنا نسير ..

واصل الاثنان سيرهما على الشاطىء حتى بلغا المقاهى المواجهة لمسارح روض الفرج .. كازينو ليلاس .. وكازينو مونت كارلو .. وكانت أعمال الإعداد والبياض على قدم وساق ..

وكانت مشاعر الحيرة والقلق والخوف تغلب على نفس سيدة .. لم تكن تعرف ماذا تريد .. ولا ماذا تقول ..

بل ولا كانت تعرف لماذا أتت إلى هنا مع علام ..

إذا كان يريد أن يتزوجها فلماذا لا يفعل ..

لماذا كل هذه المقدمات ..

قد يكون هذا هو ما يفعله العشاق .. ولكنهما ليسا بعاشقين ..

.. وهى من أجل هذا لا تجد له طعما ولا تحس منه بمتعة ..

إنها لا تريد شيئا..

ولا تشعر برغبة فى أى شىء .

أكلت قطعة من البطاطا وسدت نفسها ..

فيما مضى كان الطعام .. يشكل لديها رغبة .. تحس بمتعة فى التفكير فيها والحصول عليها .

ولكنه الآن لا يشكل عندها أى إحساس أو متعة .. حتى السميط والجبنة .. والبيض التى كانت إحدى أمنياتها .. قد عبرتها دون أن تشعر برغبة فيها ..

والنيل والنسمة الحلوة .. وكل ما حولها من مناظر جميلة .. لا تصل إلى نفسها صافية .. بل يشوبها القلق والحيرة ..

وأحست برغبة فى أن تسحب ذراعها من يده ثم تنطلق عائدة إلى البيت .

ومع ذلك .. لم تملك إلا أن تسير ..

هذا هو طريقك الخاص يا سيدة ولا يجب أن تنكصى عنه .. وما دام علام يرى أن هذا هو السبيل إليه فلتخوضيه معه .

وتلفت علام حوله فلم يجد أحدا فمد يده حول خصرها وضمها إليه ..

وأفلتت سيدة نفسها من ذراعه قائلة فى جزع :

— ما هذا الذى تفعله ؟

ومن جديد مد علام ذراعه وجذبها إليه قائلا :

— اعقلى يا سيدة .. ودعى لعب العيال هذا .

— ماذا تريد ؟

— أريد أن أضمك .. وأقبلك .

— هكذا فى الطريق ..

— وماذا فى ذلك ..

— والناس ..؟

— ليس هناك من يرانا .

والتفتت سيدة حولها فى حذر .. فأبصرت أحد عمال الكازينو وهو يشير إلى زميل له .

وجزعت سيدة ونهرت علام قائلة :

— ابعد يدك .. الرجل هناك قد رآنا .

والتفت علام حوله فأبصر الرجل يصيح به ساخرا :

— حيلك يا أخينا .. هل ترى لنا قرونا ؟

وضغط علام على ضروسه فى غيظ ثم جذب سيدة من يدها عائدا وهو يقول :

— قلت لك نأخذ فلوكة .. فلم يعجبك ..

واتجه بها فى حزم إلى المراكبى .. وهو يردف قائلا :

— سنأخذ فلوكة .. لا تخشى شيئا .. ليست هذه أول مرة أستأجر فيها

مركبا .

وسارت سيدة معه مستسلمة .

وتوقف علام أمام المراكبي قائلا :

ــ بكم الساعة يا ريس ..

ونهض الرجل العجوز من مكانه هابطا من المنحدر إلى أسفل :

ــ لا يوجد فرق بيننا .. تفضلا .

وعاد علام يسأل ملحا :

ــ يعني بكام ؟..

ــ بثلاثة قروش .

ــ كل مرة نأخذها .. بقرشين .

ــ هذه مراكب جديدة .. و ..

ــ قلت لك بقرشين .

وأخذ الرجل في وضع المعبر الخشبي على حافة أحد القوارب ومد علام يده في جيبه وأخرج المحفظة وأعطى الرجل قرشين قائلا :

ــ المجاديف مربوطة جيدا .

ــ لا تخف .. تفضل .

وتقدم علام يخطو فوق المعبر متأرجحا حتى هبط في القارب .

ومد يده يتناول يد سيدة ليساعدها على العبور .

ووقفت سيدة مترددة وصاح علام يستحثها قائلا :

ــ يالله يا سيدة .

وقالت سيدة :

ــ أخاف أقع ..

ــ هاتي إيدك ولا تخشى شيئا .

ووضعت سيدة قدمها على المعبر الخشبي وخطت أولى خطواتها فاهتز المعبر

تحت قدمها وأطبقت بكفها على كتف المراكبي العجوز وأمسك علام بيدها يجذبها نحو القارب .

وعبرت سيدة بضع الخطوات الموصلة إلى القارب ثم هبطت على أرضه وهو يتأرجح ويهتز وقلبها يدق في عنف .

وصاح علام ضاحكا :

ــ خلاص .. انتهينا ..

ثم جلس على مقعده وأمسك بيدي المجدافين قائلا لها :

ــ اجلسي أنت عندك .. وامسكي بالدفة .

وردت سيدة خائفة :

ــ لا أعرف .

ــ أمسكي باليد الخشبية .. وعندما أقول لك يمين ادفعيها إلى اليمين وعندما أقول لك شمال ادفعيها إلى الشمال .. هي حسبة برما ؟..

وجلست سيدة في مؤخرة المركب وقد أمسكت في يدها بالدفة .

وبدأ علام يضرب صفحة الماء بالمجدافين ..

وشق القارب طريقه على النيل في هدوء .

ورويداً رويدا تبدأ الجزع من نفس سيدة .. وبدأت تحس بالارتياح والطمأنينة .

لماذا كل هذا الخوف يا سيدة .. إنها رحلة جميلة .. ستكتشفين بها طريقك الخاص ..

(٢٤)

نزهة فى قارب

انزلق القارب على صفحة النيل وعلام يضرب الماء بمجدافيه .. وسيدة ممسكة بخشبة الدفة فى اهتمام وحذر .

وأخذ القارب يتباعد براكبيه على الشاطىء وعن عيون الرقباء المتطلعة وهبت نسمة رقيقة تعادلت برودتها مع دفء أشعة الشمس المنحدرة نحو الغروب .

ووسط السكون السائد إلا من ضربات المجداف يتناثر منه الرذاذ بين ضربة وأخرى .. لم تجد سيدة هناك ما يبعث على الخوف الذى شد أعصابها .

م تخافين يا سيدة ..

هذه نزهة فى النيل ما كنت تحلمين بها فى حياتك من قبل .

وهى فوق هذا .. خطوات فى الطريق الخاص .. إلى منطقة نفوذك تنعمين فيها بحريتك وتمارسين فيها سيادتك .

والرجل الذى أمامك .. والذى لم تشغله حركة القارب عن فحص جسدك ونتوءاته وتحسسها بنظراته كما يتحسس البطيخة قبل الشراء .. يمسك بيديه مفتاح المستقبل .. يفتح لك بابه .. ويدفع به إليك ..

هذا الرجل .. يسير بك إلى بيتك الخاص .. يهدى إليك فيه السلطان والرعايا ..

ولكن ما الذى يمنعه .؟

لماذا لم يفعل حتى الآن ..

وما سبب كل هذا التسكع ..

لماذا لا يتزوجها وينتهى ..

لماذا قارب .. ونيل ..

لأنه يحبك يا سيدة .. ألم يقل لك هذا ؟.

وهو يفعل كما يفعل العشاق .. يصحبك فى نزهة .. ويغازلك ويناجيك هكذا يفعل العشاق ..

ولمن إذن جعلت النزهات الخلوية .. والقوارب فى النيل .

لا بأس عليك يا سيدة .. تجربة يجب أن تخوضيها .. وأن تستمتعى بها قدر ما استطعت ..

واسترخت يدها فوق الدفة فانحرف القارب يمنة فهتف بها علام :

— شمال يا سيدة ..

واضطربت سيدة .. ودفعت الدفة إلى اليمين أكثر فعاد يصيح بها :

— لا يا سيدة .. الناحية الأخرى .

وجذبت سيدة الدفة إلى اليسار فاعتدل القارب وصاح بها علام :

— أجل .. هكذا .. الآن أصبحت مراكبية .

وعاد علام يضرب الماء بمجدافيه .

وما الآخرة يا سيدة .. إلى متى سيظل سائرا ؟.

وبدا الشاطىء الآخر يقترب بأشجاره ومداخنه المتناثرة على جزيرة الوراق .

وقالت سيدة متسائلة :

— إلى أين سنذهب ؟

— إلى الوراق .

— وماذا نفعل هناك ؟

— نشترى قتة من الغيط .

— هل أتينا إلى هنا لنشترى قتة .. وهى ملء عربات اليد عند الدوران ؟..

— قتة الغيط لها طعم آخر .

وقبل أن يبلغ القارب الشاطىء .. ترك علام المجدافين ونهض متجها إلى

سيدة .. وأخذ القارب يتأرجح تحت وقع أقدام علام .. وتملك الخوف سيدة فهتفت :

— اقعد يا علام حتى لا ينقلب القارب .

— لا تخافى ..

ووصل إليها علام وجلس بجوارها .. وأحاط خصرها بذراعه ببساطة وضمها إليه . وانفلتت سيدة من ذراعه بحركة مقاومة لا إرادية فاهتز القارب وصاحت جزعة :

— يا مصيبتى .

وعاد علام يقترب منها قائلا :

— اعقلى يا سيدة .. وإلا انقلب بنا المركب ..

— اعقل انت .

— اهدئى إذن وأنصتى إلىّ .

وهدأت سيدة بجواره وأنصتت إليه قائلة :

— ماذا تريد ؟

— نريد أن نجلس سويا كأحباء .

وردت مستسلمة وهى تركن إلى صدره :

— ها نحن جلسنا كأحباء .

ومن جديد عاد يلف ذراعه حولها . ولكن كفه ارتفعت هذه المرة حتى أطبقت على صدرها ..

وبعنف جذبت نفسها من قبضته واهتز القارب هزة شديدة .. فصاح علام :

— إيه يا بت ده .. اتجننتى ؟

وبتحد ردت عليه سيدة :

— جن لما يلخبطك .. اوعى تقرب إيدك مرة ثانية .

وبدا علام كأنما يبذل مزيدا من الجهد للتمسك بأهداب الصبر وقال كأنه يحدث طفلة صغيرة :

— لماذا تدفعيننى عنك يا سيدة .. أنا أحبك ؟

— لا يهم ..

— وسأتزوجك .

— متى ؟

— لما يأذن ربنا .. وتتدبر الحال .

— إذن فانتظر حتى يأذن ربنا .. ويتدبر الحال .. ونتزوج ..

ونظر إليها علام فى غيظ وصبره يكاد ينفد :

— ألن تتركينى أحضنك ؟

وبإصرار أجابت سيدة :

— لا .

— لماذا أتينا إلى هنا إذن ؟

— اسأل نفسك .

وزفر علام زفرة ضيق ثم عاد إلى مكانه من المجدافين وواصل السير إلى شاطىء الوراق الذى لم تكن المسافة إليه بعيدة .

وأحست سيدة بأنها أغضبت علام ..

ماذا تفعلين يا سيدة .. إذا غضب وانصرف .. وأغلق فى وجهك باب الطريق إلى الحرية والسعادة .. ومنطقة النفوذ ؟.

إن عليها ألا تغضبه ..

وفى الوقت نفسه عليها ألا تمنحه .. ما يكفيه .. وما لا يحوجه إلى اجتياز باب الزواج ..

لقد سبق أن منحت عباس .. ما أراد .. بقرش ..

كان وقتذاك ثروة .. ولم تكن تعرف أن ما تمنحه مقابلا له شيء ذو قيمة .

وقفة بجوار الجدار فى غرفة الفراخ . وثوب يرفع .. وجسد عباس على صدرها بضع دقائق .. وينتهى الأمر .

ولكن الحال .. يختلف الآن جد الاختلاف .

لن تقبل ثمنا .. أقل من الزواج ..

ولكنه عرض الزواج ..

ومن يضمن لها السداد ؟

من يضمن لها ألا يكون العرض مجرد تغرير وجر رجل ؟

يجب أن تكون حذرة ..

إن ما لديها لم يكن له قيمة فى حد ذاته .. لقد سبق أن منحته لعباس .. وكان يمكن أن تمنحه للمكوجى .. عندما احتاجت إلى بضعة قروش منه .

ولكنه الآن .. بما يمكن أن يقدمه .. يبدو شيئا هاما ..

ولن يغرر بها علام .. ولا عشرة كعلام ..

وعاد علام ينظر إليها .. وهو يضرب الماء بمجدافيه بعصبية وقسوة .. وبدت نظراته .. ليست مجرد تحسيس .. وإنما اعتصار لنتوءات جسدها ..

وبادلته سيدة نظرات تحد ..

لن تأخذ ما تريد يا علام .. إلا إذا دفعت الثمن مقدما .

ليس قبل الزواج يا علام .. هذا الشىء الذى تتشوق إليه .

بينى وبينك يا علام .. ورقة المأذون .

ادفعها .. وخذ ما تريد .. أما قبل هذا فلا ..

ورسا القارب على الشاطىء وألقى علام بالمجدافين جانبا ..

ثم نهض من مكانه واقترب تجاه سيدة ووقف أمامها ونظراته تلتهم جسدها وقال متسائلا :

— ننزل ؟

— إلى أين ؟

— نأكل قته وخيار من الغيط ..

— وماذا يقول صاحبه ؟

— نعطى له قرشا .. ونأخذ ما نريد .

ونهضت سيدة .. تتلمس موقع أقدامها فى القارب قائلة :

— كيف سأخرج ؟

— انتظرى حتى أخرج أنا وأجذب القارب إلى الشاطىء جيدا ثم أتناول يدك .

وقفز علام إلى الأرض ثم جذب القارب حتى استقر جيدا على الشاطىء الطينى المنبسط ثم هتف قائلا :

— هيا .

ونظرت سيدة إلى عينى علام .. وكانت نظرات الرغبة تشتعل فيهما .

وترددت سيدة برهة .

هل يستطيع أن ينال ما يريد .. برغمها ؟

وأين أسنانها وكفاها ؟

إنها ستمزقه .. لو حاول أن يأخذ شيئا برغمها ..

وملأها إحساس بالتحدى والخصومة .. ولكنها ما لبثت أن هدأت منهما .

لماذا الخصومة يا سيدة ..

إنك تستطيعين أن تروضيه ..

إذا كان قد عرض عليك الزواج .. فليس من مصلحتك أن تصديه ..

لا تعطيه .. ما يريد .. ولكن أعطيه بعضه .

فليس ما يريد .. هو كل شىء .

ثم إنك لا تعرفين ما يريد ..

وماذا يمكن أن يريد .. سوى ما يريد الرجال ؟..

على أية حال .. اصبرى عليه .. وروضيه .. وإذا كان لا بد لك من أن

تحتفظى بما يحتم عليه أن يطرق باب الزواج .. فإن عليك أيضا .. أن تمنحيه .. ما يشوقه لأن يطرق الباب ..

أجل يا سيدة .. كونى امرأة .. لا تصديه .. فينفر .. ولا تمنحيه فيستكفى .

واعتلت سيدة حافة القارب ثم مدت إليه يدها ووثبت على الأرض و لم يضيع علام الفرصة .. فتلقاها بين ذراعية .. وضمها إليه بشدة ..

وأحست سيدة بأنفاسه تلسع وجهها .. واستسلمت برهة لشفتيه تتحسسان وجهها ورقبتها وأحست بإحدى يديه تفلت حصار ظهرها وتمتد لتتحسس ساقيها . فتخلصت منه بدفعة عنيفة فى صدره كادت تلقيه على ظهره واندفعت تعدو على الشاطىء .

وأفاق علام من مفاجأة الدفعة . بعد أن أحس أنها استرخت على صدره واستسلمت ليديه .

وصاح بها فى غيظ :

— يا بنت الكلاب .. والله ما أنا عاتقك .

ثم اندفع يجرى وراءها وسط الحقل .

وفجأة برز من وراء الأحراش الخضراء رجل يرتدى السروال الطويل والصديرى ويمسك بفأس فى يده مهددا صائحا :

— عندك منك له .

وتمهل علام وهو يلتقط أنفاسه وصاح وهو يحاول أن يتمالك زمام نفسه :

— السلام عليكم يا حاج .

— وعليكم السلام .

— وحياة أبوك .. كنا عايزين شوية خيار .

وأجاب الرجل فى صرامة كأنما يعرف أنها مجرد حجة من علام للعبث فى الحقل :

— الخيار لم يطرح .

— عندك قثاء :

— بعناها .

وهمهم علام ببعض كلمات غير مفهومة .. وكانت سيدة قد توقفت فلحق بها قائلا والفلاح يرقبهما فى تحد :

— أتعجبك هذه الفضائح ؟

— قل لنفسك .

— أهكذا تدفعيننى فى صدرى ؟

— تستحق ما جرى لك .

— لماذا ؟

— لأنك لم تتأدب .

— وماذا فعلت ؟

— أنت تعرف ماذا فعلت ..

وأمسك بيدها وضغط عليها منذرا .

وقالت سيدة فى تحد صارم :

— اتلم يا علام .

— وماذا ستفعلين إن لم أتلم ؟

— سأفرج عليك الخلق .

— لا يوجد هنا خلق .

— وهذا الذى يقف أمامك ؟

— لا يهمنى .

— لا يهمك ؟

— أجل لا يهمنى .

— هل تريد أن أريك يهمك أو لا يهمك .. أنت تعرف الفلاحين ونخوتهم .. لن يتردد إن استنجدت به من أن يضربك بفأسه .

— إذن فأنت تهددينني ؟

— أنا أنصحك بأن تعقل .

— وإن لم أعقل ؟

— ستجد من يعقلك .

— إذن اصبري عليّ حتى نعود .. سنرى ماذا تستطيعين أن تفعلي فى المركب .

— سأغرقه بك .

— لماذا تفعلين كل هذا .. ماذا تظنين نفسك ؟

— لا شيء .. ولكن ليس كل الطير الذى يؤكل لحمه .

— ولماذا لا تفعلين هذا بكل الذين يغازلونك فى الطريق .. ملك وغيره .

— كله كلام .. ولكن لا يجسر أحد أن يمد إلىّ يده .. وإلا قطعتها .

وضغط علام على ضروسه فى غيظ وقال ساخرا :

— لماذا تظنين إذن أننا حضرنا إلى هنا ؟

وردت سيدة ببساطة :

— لكى نشم الهوا .

وهز علام رأسه وهمهم فى سخط قائلا :

— هيا بنا قبل أن تنتهى الساعة .

— هيا .

واتجه الاثنان إلى الزورق .. وما لبث أن قفز علام إلى داخله وتناول يدها ثم جرها إليه ..

ولم يحاول علام أن يقدم على محاولة أخرى بل أمسك بالمجدافين وأخذ يضرب الماء بعصبية وقد تجهم وجهه ..

وبعد لحظات قالت سيدة :

— أغضبت ؟

— ولماذا أغضب ؟

— لأنى لم أطاوعك فيما تريد .

— أنت حرة تفعلين ما تشائين .

وصمتت سيدة لحظة .. وتملكها إحساس بأن الطير يوشك أن يفلت .. وأن جرعة الصد قد تجاوزت المطلوب منها فقالت فى صوت رقيق :

— قل يا علام .. ماذا أغضبك ؟

ولم يجب علام .

فعادت تتساءل :

— هل أغضبك أن أحافظ على نفسى ؟

ورد علام عليها بعد أن زال تقطيب وجهه تأثير لهجتها الرقيقة :

— ولكنى لست غريبا .

— من تكون لى ؟

وتردد علام برهة قبل أن يجيب :

— أنا .. أنا .. نحن أصحاب .

— ومن أجل هذا تبيح لنفسك أن تفعل ما تريد .. هل لك أخت ؟

— أجل .

— هل تقبل أن يفعل بها أى رجل ما تريد أن تفعل بى ؟

وأحس علام أنها قادته إلى فخ بدائى وحاول أن يتملص منه قائلا :

— ولكنى لست مجرد أى رجل .

— إذن من تكون؟

— أنا .. أنا قلت لك إنى أريد أن أتزوجك .

— ولماذا لا تفعل ؟

— قلت لما يأذن ربنا .

— وحتى يأذن ربنا .. ماذا تريدنى أن أكون ؟

ـــ نكون أصحاب .

ـــ وتقبل لزوجتك أن تفعل هذا الذى تريده منها .. هل يمكن أن ترضاه زوجة بعد أن تفعل ما تفعل ؟

وأحس علام أن منطق الكلام وسيلة غير مجدية لما يريد .. وهز رأسه فى يأس قائلا :

ـــ انتهينا .. أنت وما تريدين .

وتركت سيدة مكانها وانتقلت إليه وجلست بجواره .. وقالت فى لهجة رقيقة :

ـــ عندما نتزوج يا علام .. ويصبح لنا بيت .. ستفعل كل ما تريد .

ونظر إليهاعلام نظرته الملتهبة وازدرد ريقه .

وعاودت سيدة الحديث الرقيق قائلة :

ـــ ألم تقل إنك تريدأن تتزوجنى ؟

وأجاب علام :

ـــ أجل قلت .

ـــ وماذا يمنع ؟

ـــ الظروف .

ـــ أية ظروف ؟

ـــ الزواج ليس سهلا .. المسألة لا تؤخذ هكذا خطفا .

ـــ لماذا ؟

ـــ أنا أعيش مع أمى و أختى و أخى منصور الفراش فى المالية وزوجته .. ونحن نعيش كالسردين فى شقة فى المبيضة ولا أعرف كيف يتسع البيت لزوجة .. أدخلها عليهم .. بعد كل هذا .

و لم ترتح سيدة إلى الصورة التى رسمها علام بسرعة لبيت مستقبلهاوقالت ببساطة :

ـــ ولماذا لا نعيش فى بيت وحدنا ؟

ـــ هل تظنين أن فتح بيت سهل؟. ثم إنى مسئول عن البيت مع أخى منصور ولا أستطيع بسهولة التخلى عنه، وأنت تعرفين إيراد صندوق الكازوزة فى الشتاء.

و لم تكن الصورة مشرقة .

ولكنها مع ذلك .. دفعت بالفكرة الموهومة .. إلى إمكان التنفيذ : وكل شىء يبدو فى بدايته ناقصا غير واضح المعالم .. ولكن المهم أن يوجد .. وهذا الحديث دفع بالوهم إلى حيز الواقع .

قد يكون الطريق ملتويا .. ومليئا بالعراقيل .. ولكن يجب أن تسلكه .

وقالت سيدة وهى تزداد اقترابا من علام ووضعت كفها على ذراعه :

ـــ كله يهون يا علام .. أنت من ناحية وأنا من ناحية .. والحياة تتدبر .

و لم تقل سيدة ماذا يمكن أن تبذله .. ولكنها دون وعى .. كانت تستند إلى المصوغات التى جمعتها لها الست فاطمة .

إن لم تنفع فى هذه الظروف فمتى تنفع ؟

ومع ذلك لا يجب أن تدفع بها صراحة إلى أول حاجة .. بل يجب أن تبقيها كاحتياطى لمعركة الحياة .. حتى لا يطمع فيها أحد .

وعاد علام ينظر إليها .. وانتقل ذهنه من مشاكل الحياة التى دفعت به إليها سيدة .. إلى هذا الجسد المثير أمامه ..

ومن جديد راودته الرغبة .

ومد يده فتحسس ركبتها .

و لم تدفع سيدة يده ..

دعيه يا سيدة .. يعبث قليلا .. فلعل العبث يزيل المرارة التى خلفتها قسوة الصد فى نفسه .

إنك على أية حال لا تريدين أن يفر منك .

وامتدت يد علام من الركبة تحت الجلباب حتى أسفل الفخذ .

وانتظرت سيدة مستسلمة تختبر إلى أى مدى ينوى الاستمرار ؟

وأحست سيدة أن يده تستمر فى الحركة .

فدفعت ذراعه بعيدا عن ساقها .

وسحب علام يده ثم ضم سيدة إلى صدره بكلتا يديه .. وأخذ فى تقبيلها .

وظلت سيدة مستسلمة حتى بدأ يميل بجسده عليها محاولا طرحها على أرضية القارب فدفعته فى إصرار .

وقال علام محتجا :

— وبعدين يا سيدة ؟

— وبعدين أنت ؟

— اعقل بقى .

— اعقل انت .

— إلى متى ؟

وضحكت سيدة وردت فى شيء من السخرية وهى تكرر قوله :

— حتى يأذن الله .

وهز علام رأسه فى يأس وقال وهو يضغط ضروسه :

— يا بنت الصرم .. انا وانت والزمان طويل .

وعاد علام يضرب الماء بمجدافيه حتى وصل إلى الشاطىء .

وكان العجوز يقف على المنحدر فى انتظارهما فجذب القارب إلى الشاطىء وربطه بحبل مشدود إلى أحد الأوتاد ووضع المعبر الخشبى .

وغادر الاثنان القارب متخذين طريقهما على الساحل عائدين إلى دوران روض الفرج .

وفى الطريق اشترى علام قرطاسين من الترمس وأعطى سيدة أحدهما .. وهو يقول :

— كيف سأراك فى المرة القادمة ؟

— لا أدرى .

— كيف ؟

— لأنى لا بد أن أدبر مشوارا آخر للسيدة .. وغير معقول أن أدبره قبل شهر .

— سأنتظر شهرا آخر حتى أراك ؟

— هذا إذا استطعت أن أحصل على إذن بالذهاب إلى السيدة وحدى .

— غير معقول .

— سأمر عليك كلما احتجنا إلى كازوزة .

— هل هذه طريقة للمقابلة ؟

— ماذا تريد منى أن أفعل ؟.. أنا أعمل عند ناس .. هل أترك العمل ؟

وتنهد علام وهو يجد نفسه يجر إلى أشياء يجب أن يتحمل هو مسئوليتها . ولم يجب .. فقد أحس .. أنه يريد سيدة .. ولكنه لا يستطيع أن يتحمل مسئولية الزواج ..

وهى تملك مصوغات ..

ولا شك أن المصوغات يمكن أن تفعل شيئا .

ولكن هل تستحق سيدة ومصوغاتها مسئولية الزواج ؟.. ثم ماذا تقول أمه وأخته .. وأخوه منصور .. وزوجته ؟

سيسألونه عنها .. فيقول خادمة .. وهم لا يزيدون كلهم .. عن الخدم .. ولكن مع ذلك سيترفعون عنها .. لأنها خادمة ..

وهز علام رأسه فى حيرة ..

ماذا لو سهلت الأمور يا سيدة ؟.. ماذا لو فى القارب ؟.. والمكان خال .. ولا من فضولى ولا من رقيب .

وعاد يتصور ما تحت الثياب ..

لا بد أن يكون شيئا عجيبا .. فالثياب لا تستطيع إخفاء تفاصيله المتحفزة .. المتوثبة .

كان يمكن أن يكون كل هذا ملء يديه ..

ولكن الغبية تأبى إلا أن تعقد الأمور .

لقد علقت .. بكلمة الزواج .. وأبت أن تتركها ..

كانت غلطة منه أن يعرضه عليها ..

ولكن بغيره .. ما كانت تمنحه هذا المركز الخاص ..

ما كانت تخرج معه .. وتقضى الساعات بجواره فى قارب النيل .

فما من رجل هناك فى الطريق إلا ويغازلها بالكلام والنظرات .. وما من رجل إلا ويتمنى رقدة معها .

ولكنها لم تأبه لهم .. ردت نظراتهم بنظرة .. وكلماتهم بكلام .. وعبثهم بعبث .. ولا شيء أكثر من ذلك .

الوحيد الذى اقتربت منه وأنست إليه هو ..

لماذا ؟

ألسواد عيونك يا علام ؟..

أم لأنك عرضت الزواج ؟..

والفتاة ليست سهلة .. إنها أمهر منك .. لقد اصطادتك بوعدك .. إذا كنت تريد منها شيئا ؟.. فادفع الثمن .

والثمن الذى لوحت به هو الزواج .

ووصل الاثنان إلى الدوران .. وكانت الظلمة قد سقطت وودع كل منهما صاحبه . بكلمة بسيطة « مع السلامة » وفى نفس كل منهما مشاعر الذى أنهى جولة .. زجت بهما إلى المعركة .. ولكن لم تنه المعركة .. وافترقا .. وفى نفس كل منهما لهفة على جولة أخرى .

عادت سيدة إلى البيت لتجد سيدتها قد عادت هى وسميحة .. ولمحت العمة مع كوثر الصغيرة .. وحمدى مع أصدقائه فى الشرفة يستذكرون .

وخلعت ثياب الخروج . وأخذت تواصل عملها المعتاد .. تسخن الطعام

وتعده .. وتنقع الغسيل للغد .

وتوالت أيام الصيف .. تجر زحمة الامتحانات .

وانهمك حمدى فى المذاكرة مع أصحابه طلعت والشيخ حلمى وصلاح ورءوف الذى كان يزوره من السيدة بين آونة وأخرى .

وتعددت لقاءات سيدة بعلام .

مرات تتسلل إليه فى الظهيرة .. ومرات تخطف الزيارة إليه خلال مشاوير البقال والخضرى والجزار .

ومرات تخرج للتنزه مع كوثر .. فتمر على الصندوق .

وأدى تكرار الزيارات واللقاءات .. إلى أن تتخذ العلاقات شكلا ملحوظا للناس ..

وبدأ اللغط بين سكان الحى . ممن يعنيهم الخوض فى مثل هذه العلاقة .. من الخدم والباعة .. وأصحاب الدكاكين .. ثم ارتفع اللغط إلى أصحاب البيوت المحيطة ..

بدأ أبو الزيك صبى المكوجى الأهبل يعلن رأيه فى الواد علام :

— هو يعنى .. ما فيش غير علام .. طول النهار رايحة جاية عليه ..

ويضرب المكوة فى قاعدتها الحديدية بعنف قائلا :

— ما تعبرونا يا خلايق ؟

وعوض البقال يضرب كفا بكف وهو يقول :

— الواد علام حايقرننا على آخر الزمن ؟.. والنبى ان ما تلم لاسيح دمه .

والشيخ عبد القادر المقرىء يقول لعلام :

— يا ولد اختشى .. سيرتك مع البت سيدة فاحت .

فى ذات يوم وحمدى يتجه إلى المدرسة ويلقى تحية الصباح على ملك بائع الفول وهو يتكىء على يد عربته هتف به ملك :

— والنبى يا سى حمدى كلمة .

وأقبل عليه حمدى قائلا :

— خير يا ملك ؟

— خير يا سى حمدى .. البت سيدة زودتها حبتين .. طول النهار عند الولد علام بتاع الكازوزة .. اقرصوا عليها شوية لاحسن الناس بدأت تتكلم .

وأحس حمدى بالضيق وقال لملك فى اختصار :

— حاضر يا ملك .. أنا حاشوف الموضوع .

وقال ملك معتذرا :

— أنا متأسف يا سى حمدى .. لأنى تدخلت فى الموضوع .. ولكنكم ناس طيبون وسيرتكم فى الحى زى المسك .. وما أحبش حد أبدا يمسكم .

— كتر خيرك يا ملك .

وقبل العصر أقبل عطا الله بائع الجاز يحمل الفنطاس على كتفه ويهرول بجلبابه المخطط وطاقيته المكبوسة على أذنيه . وأفرغ ما بالفنطاس فى الصفيحة ثم وقف أمام السيدة مترددا .

وقالت الست فاطمة :

— الحساب بعدين يا عطا الله .

— فى بيته يا ست .. أنا لا أقف من أجل الحساب . ولكنى فقط كنت أريد أن أقول لك شيئا ..

— ماذا يا عطا الله ؟

— البت سيدة .. زودتها مع علام .

— إزاى ؟

— الناس بدأت تتكلم عنهما .. أنا نفسى رأيتهما كم مرة عند الساحل .

— عند الساحل ؟!!

— أنطس فى نظرى .. شفتهم ..

وصمت عطا الله برهة ثم قال معتذرا :

— لا تؤاخذينى يا ست .. ولكنى وجدت من واجبى أن أعطيك فكرة .. أنا أعتبر نفسى واحدا من الأسرة .

— طبعا يا عطا الله .. كتر خيرك .

— ربنا يخليكى لنا يا ست .

وانصرف عطا الله ..

وأحست الست فاطمة بالضيق والغضب ..

كانت تكره السير المعوج .. والحال الملخبط .

ولم يصعب عليها أن تصدق ما قاله عطا الله .. فقد أصبحت سيدة كثيرة الخروج .. كثيرة التأخير عندما تذهب إلى أى مشوار .

ولم تكد سيدة تعود من الخارج حتى نادتها السيدة وقالت لها فى حزم :

— اسمعى يا سيدة .

وتوجست سيدة خيفة من لهجة الست فاطمة الصارمة وردت فى صوت مضطرب :

— نعم يا ست ؟

وبغير لف أو دوران وجهت إليها السؤال المباشر :

— انت بينك وبين علام بائع الكازوزة شىء ؟

— أنا ؟

وبمزيد من الصرامة سألت السيدة فى حدة :

— ردى .. نعم .. أم لا ..

وصمتت سيدة برهة قبل أن تجيب قائلة فى صوت متردد :

— أصله .. أصله .. أصله .. قال لى انه عايز يتجوزنى ..

— ولماذا لم تخبرينى ؟

— لم أعرف إذا كان جادا أم لا ؟..

— إذن سأعرف أنا .. كان يجب عليك أن تخبرينى . بدلا من أن تستمرى

على لقائه وتجعلى نفسك وتجعلينا معك مضغة فى الأفواه .

وأطلت من الشرفة فوجدت عزوز صبى الخضرى يقف بالباب فقالت له :

— اسمع يا عزوز .. اوصل انده لى علام .. بتاع الكازوزة .

وانطلق الصبى ينادى علام ..

ووصل حمدى ليجد أمه وقد بدا عليها الغضب فسألها قائلا :

— ماذا بك ؟

— لا شيء ..

ووجد سيدة تقف وقد بدا عليها القلق والخوف وقال فى هدوء :

— هل أخبروك عن سيدة ؟

— من قال لك ؟

— ملك بائع الفول .

ونظرت الست فاطمة إلى سيدة لائمة وهى تقول :

— اخص عليكى .. جعلتنا مضغة فى أفواه الناس .

وبعد لحظة أقبل علام من الشارع ووقف بباب البيت .

(٢٥)

فاتحة سيدة

وقف علام أمام الست فاطمة وقد بدا عليه القلق .

وألقت عليه فاطمة نظرة فاحصة .. وضعته بها فى كفة أمام سيدة ..

كانت تدرك أن سيدة لا بد أن تفارقهم إن عاجلا أو آجلا ..

سنوات طوالا قضتها بينهم سيدة .. وهى بكل ما بها من حسنات ومساوىء قد ارتبطت بهم .. لا تعرف أحدا سواهم .. لا تسأل عن أحد ولا يسأل عنها أحد .. مقطوعة كما يقولون من شجرة .. استكانت إليهم .. واطمأنوا إليها .. حتى أصبحت جزءا من الأسرة ..

و لم يكن التسليم بفرقتها والاستغناء عنها بالأمر السهل ..

ولكن فاطمة كانت تعرف جيدا أصول الأشياء .. وطريقَ سيرها .. وحتمية تطورها .. وكانت تعرف أن من العبث مقاومة حركتها الطبيعية .. حتى ولو كانت ضد مصلحتها ..

كانت فاطمة .. على أميتها .. حكيمة عاقلة .. حازمة صارمة .

وكان زوجها .. على كل قراءاته واطلاعه .. يخضع لأحكامها .. ويسلم بصدق نظرتها .. وسلامة حكمها ..

وكان حمدى رغم ضيقه .. بتقتيرها .. وحزمها .. يحترم تفكيرها .. وآراءها .. ويخضع لإرادتها وتدبيرها .. ويحس بمدى ما يحمله قلبها من حنو وقدرة على التضحية .

ورغم إحساسها بفرط حاجتها إلى سيدة .. فقد كانت تنتظر اليوم .. الذى تفارقهم فيه .. كأمر مسلم به .. وكانت ترجو لها .. بإحساس الأم من يهيىء لها

الراحة والستر .. كما كانت تأمل أن يدبر الله لها من يعوضها عنها .

و لم تكن تتوقع أن يجئ ذلك اليوم المنتظر بهذه السرعة . ولا كانت تعرف من أين سيدبر لها العدل ..

لقد كان ما يشغل بالها هو زواج سميحة ابنتها .. أقارب من بعيد يتقدمون .. ومعارف يتحدثون .. وهى تشاور سميحة فى أمرهم .. وسميحة ترفض لأن الوقت لم يحن بعد .، ولأنها تحس بمدى ارتباطها بأمها وأخيها .. ومدى حاجتهم إلى الترابط والتكاتف لمواجهة الحياة بعد موت الأب .

وكانت دائما تأخذ سيدة بالحزم .. إذا ما تأخرت فى السوق .. وكانت تنهرها .. عندما تجدها قد أطالت الكلام مع أحد الباعة .. أو حاولت أن تستجيب لمزاحه .

و لم تكن تساورها الريبة فى تأخرها .. أو مشاويرها لزيارة معارفها فى السيدة .. ومع ذلك فقد كانت دائما .. توعيها .. وتحذرها من أولاد الحرام ..

وعندما سمعت حديث عطا الله بائع الجاز .. عن أقاويل الناس عن سيدة وعلام .. كان يمكن أن تنهرها .. وتحذرها .

ولكن عندما قالت سيدة بأن علام قد سألها الزواج . أحست بمنطقها الهادئ .. أن المسألة لا يحسمها الغضب .. أو النهر والزجر .. والتهديد والتحذير .. وأن أفضل طريق هو أن تستكشفها من أصولها .. وتواجهها ببساطة وعقل .

إن سيدة لم تنكر ما يروى من شائعات عما بينها وبين علام .. بل ردت باختصار أن الرجل قد سألها الزواج ..

وهى بلا شك .. لم تنفر من سؤاله .. وإلا لما فعلت معه ما أثار عنها الشائعات ولما رددت عليها طلبه ببساطة كاعتذار عما يقال .

إن الشائعات التى رددها أهل الحى .. والتى نقلها عطا الله ، والتى أكدها حمدى نقلا عن ملك بائع الفول ..

قد ردت عليها بأن علام قد سألها الزواج ..

فهل هو حقا يريد الزواج منها .. أم هو يعبث بها ؟.

المسألة يحسمها ببساطة . علام نفسه وهو يقف أمامها مترقبا فى قلق ..

ماذا حدث ؟!! ماذا تريد منه السيدة ؟ إنه يعرف صرامتها وحزمها .. وهو يخشاها ويحترمها . كما يخشاها الجميع ويحترمونها ..

ترى ماذا عرفت عنه ؟.. وماذا قالت سيدة ؟..

وبدون لف .. أو دوران .. وجهت إليه الست فاطمة السؤال البسيط :

ــ اسمع يا علام .. هل تريد أن تتزوج من سيدة ؟

وكان علام قد أعد نفسه للرد على أشياء كثيرة .. يمكن أن يتوقعها .. اتهامات .. تحذيرات .. وكان يحاول أن يجد عذرا لكل ما يمكن أن يتهم به .. من لقائه بسيدة .. وخروجه معها .. ولكنه لم يتوقع أن يطلق السؤال بمثل هذا الأسلوب المختصر المباشر .

وازدرد علام ريقه .

الحديث مع سيدة شىء يا علام .. ومع هذه المرأة الخطيرة التى تبدو كوكيل النيابة .. شىء آخر.

مضت عليك شهور مع سيدة وأنت تراوغ .. وتحاول أن تقتنص منها ما تريد أو بعضه .. و لم تفشل فى الفوز .. بتصبيرة على ما قسم .. تحسيسة مرة .. وقبلة أخرى ..

والسيدة الخطيرة تواجهك بنفس السؤال الذى سألتك إياه سيدة عشرات المرات واستطعت أن تلف بها وتدور .. فماذا أنت فاعل الآن ؟..

رد يا علام .

ــ أنا .. أنا .. أصل .. سيدة بنت حلال ..

وعادت الست فاطمة تنظر إليه فى هدوء وصبر .. تنتظر أن يقول شيئا مفيدا وهو يتلجلج فى كلمات .. لا تعنى شيئا بالنسبة للرد المطلوب .

وسألت الست فاطمة السؤال مرة ثانية بلهجة أشد هدوءا :

ـــ عايز تتجوز سيدة يا علام ؟.

ومرة أخرى عاد علام يتلجلج قائلا :

ـــ أنا أصلى كنت باقول .. الواحد .. يعنى .. أصل سيدة .. فى الحقيقة ..

ونظرت إليه سيدة فى غيظ وهى تجده يبتلع الكلمات الهامة فى جوفه ويثرثر بكلمات لا معنى لها ولا طعم ولا رائحة .

صاحت سيدة فى غيظ :

ـــ ألم تطلب منى الزواج يا علام ؟

ورد علام وهو يرفع رأسه فى أنفة :

ـــ أجل طلبت .. لكن ..

وسألته الست فاطمة فى هدوء :

ـــ لكن ماذا ؟

ـــ الظروف .. والوقت ..

وبمزيد من الهدوء قالت له السيدة وهى تسحب له كرسيا :

ـــ اجلس يا علام .. اجلس .

وجلست السيدة وجلس علام بعد تردد .

وقالت السيدة فى نبرات واضحة :

ـــ اسمع يا علام .. نحن أناس لا نحب العبث . ولقد جعلت سيرة البنت مضغة فى الأفواه .. وإذا كانت البنت قد جاوبتك فلأنك سألتها الزواج . وأنت مخطىء .. وهى مخطئة .. لأن الزواج له طريق واضح مستقيم .. يسلكه الناس الطيبون .. وكان يجب أن تأتى إلينا .. كأهل لها مسئولين عنها .. إذا كنت تريد الزواج منها .. وكان يجب عليها أن تبلغنا بطلبك .. إذا كنت أنت لم تعرف الطريق الصواب للتقدم به . أما وهذا لم يحدث فالمسألة ما زالت ملحوقة .. المهم هل أنت تريد الزواج حقيقة ؟ إذا كنت تريد الزواج .. وإذا كانت هى

تريدك .. فليوفقكما الله .. وكل شىء يمكن تدبيره .. البنت لا تريد شيئا .. سوى الستر والمعاملة الطيبة ..

وصمتت الست فاطمة لحظة ثم أطلقت تنهيدة قصيرة وأردفت قائلة :

ـــ أما إذا كنت تريد مجرد العبث ..

وأحس علام أن عليه أن يقول شيئا حاسما يرد اعتباره .. ويعيد كرامته ..

فأجاب بلهجة حملها مسحة غضب :

ـــ نحن لا نعبث يا ست .. نحن نعرف ربنا .. وعندنا ولايا ..

وألقى علام على سيدة نظرة مسح بها بطريقة خاطفة مناطق الإغراء ..

هذا كله يمكن أن يكون تحت أمرك .. بغير حاجة إلى مركب فى النيل .. وبغير تسكع فى الحوارى والشوارع ولا خوف من نظرات المتطفلين .. وتهديدات من أصحاب الدماء الحامية .. المتلهفين على الدفاع عن الشرف فى الطرقات ..

سيكون .. ملكك .. تلتهم منه ما تشاء .. دون أن تصدك صاحبته .. أو تتأبى عنك أو تتمنع .

لماذا تتردد يا غبى ؟..

ليس مطلوبا منك شىء ..

فكل شىء كما قالت السيدة الطيبة .. يمكن تدبيره ..

والبنت لا تريد .. سوى الستر والمعاملة الطيبة ..

أما المعاملة الطيبة .. فأمرها سهل .

أما الستر فيمكن تدبيره فى بيتهم .

يمكن أن تعيش مع أمه وأخواته .. هو لن يدفع شيئا .. وهى لن تخسر شيئا ..

وكذلك لن تخسر أمه وأخواته أى شىء ..

وهو على أية حال .. لا بد أن يتزوج فى يوم ما ..

ولن يجد أسهل .. وأرخص .. من هذه الزيجة ..

ولكنهم قد يعترضون .. لأنها خادمة .

ملعون أبوهم ..

ومن يكونون هم ؟.. سلالة الأمراء ؟!

البت .. تعجبه ؟!!

صدرها .. وظهرها .. وجسمها على بعضه .. ولا أجدع راقصة فى السينما .. ووجهها .. لا بأس به أبدا .. سمح .. وبشوش .. ثم عندها .. مصوغات .. لا تملكها .. أسرته بأكملها ..

ماذا يريد أكثر من هذا ..

توكل على الله يا علام .. وأقدم ولا تتردد ..

وقال علام وهو يهز رأسه فى ثقة مكملا حديثه للست فاطمة :

— أنا رجل جد يا ست فاطمة .. وأنا أريد سيدة على سنة الله ورسوله .. وإذا كنت لم أتقدم .. فلأنى كنت أنتظر إذن الله .. وفرجه . وإذا كانت سيدة لا تريد سوى الستر والمعاملة الطيبة .. فأنا لا أريد سوى بنت الحلال التى تستر وتعمر .

ونظرات إليه الست فاطمة نظراتها الفاحصة وبدا الرجل أمامها وكأن نظراتها تعلقه بكفة ميزان . وتحاول أن تضيف إليه شيئا يرجحه .

هذا الرجل ليس به ما يعيبه .

وإذا كان قد أثار كلام الناس حول سيدة .. فيجب أن ينتهى هذا الكلام .. إما بأن يكف عن مشاغلتها .. أو أن يتزوجها .

وهى لا تضمن أبدا .. أن يقطع صلته بها .. ويكف عنها ..

إذن لم يبق من حل قاطع لوضع حد لكلام الناس .. وإنهاء العلاقة التى أثارتها .. إلا بالزواج .

والرجل يتقدم إليها جادا .

وهو ليس عواطليا .. ولا مجرما .. ولا نصابا ..

والذين يمكن أن يتقدموا إلى سيدة لن يكون خيرا منه .

والزواج قسمة ونصيب .

وقالت فاطمة متسائلة .. محاولة المزيد من استكشاف الرجل وتقويمه :

— وكيف ستعيشها ؟.

— من فيض الرزاق .. ربنا كريم .. وأنا لست عواطليا .

— أعرف ذلك .. ولكن أين ستسكنها ؟

وتردد الرجل برهة ثم قال :

— تسكن مع أهلى .. حيث أسكن .. حتى يدبرها الحلال .

— أنت تعرف أن الحياة ليست سهلة .. بكرة تنجب أولاد .. والعيشة تتعقد .

— يفرجها ربنا .. يا ست .

ولم تدر الست فاطمة ماذا تقول بعد ذلك ..

إنها لا تستطيع أن تجزم .. ماذا يمكن أن يكون أمرها معه ..

الرجل ليس به .. ما يصد أو ينفر .. أو يخيف ..

وإذا كان سيئا .. فهى لا تعرف كيف .. ولا تعرف من الذى ليس بسيىء ممن سيتقدمون إلى سيدة — إذا تقدم إليها أحد — حتى تستطيع أن تختاره .

إن مصير الفتاة فى عنقك يا فاطمة .. ولن يغفر الله لك أى تقصير فى حقها .. وسيرده لك فى ابنتك .

ولكنك لم تقصرى فى حقها .. وعليك أن تبتى فى أمر مستقبلها برأى حاسم ولا تستسلمى إلى الرغبة المريحة فى الاحتفاظ بها من أجل خدمتكم لأطول مدة ممكنة ..

والمستقبل بيد الله .. وبيدها هى .. صاحبة الأمر .. فهى ليست صغيرة .. وهى تعرف أين صالحها ..

وليس أمامها بعد ذلك إلا أن تسألها .

ونظرت إلى سيدة وسألتها ببساطة :

— ومارأيك يا سيدة ؟

وأطرقت سيدة برأسها .. وأجابت بالرد التقليدى :

— أمرك .. يا ست .

وفتح الطريق الخاص أمامك يا سيدة .

مدى قدمك إلى أرضه .. واطرقيها بثقة واعتداد ..

أنت تخطبين يا سيدة .. كبقية بنات الناس .. وغدا تقرأ فاتحتك .. ويكتب كتابك .. وتزفين فى ليلة الدخلة .. بزيطة وزمبليطة .. كما دخلت عواطف بنت الشيخ زكى فى حارة الماوردى ..

تعلق الأعلام والبطيخ الزجاجى ويفرش الرمل الأصفر .. وتدق لك الطبول وتصدح الموسيقى .. وترقص العوالم ..

أمعقول هذا يا سيدة؟..

أنت ؟!.. تدق لك الطبول .. وتعزف الموسيقى ؟

هل يقدر علام على هذا ؟

هل يملك نقود الفرح ؟

ليس مهما :

أى شيء يقضى ..

المهم هو التحول الخطير فى وجودها ..

الخروج من هذا القالب الذى جمدت فيه حياتها ..

اليقظة المبكرة .. وتلقى الأوامر .. والخروج لشراء الفول .. ثم الكنس والمسح والغسيل .. والحركة المستمرة لتأخذ هذا .. أو لتحضر ذاك ..

ستنتهى الحركة بأمر الغير ..

ستقطع اللجام المزمن .. الذى لازم فاها .. منذ أن وعت فى هذه الحياة .. والذى مهما سلس ورق فى أيدى هؤلاء السادة الطيبين .. فهو لجام .. لايمنحها فرصة الانطلاق .. والبرطعة .. والتمرغ .. ولو فى التراب كما تشاء .

ضعى أقدامك فى ثقة على أرض طريقك الخاص .. واسلتى .. اللجام من فمك .. وبرطعى كما شئت يا سيدة ..

ونظرت الست فاطمة إلى ابنها حمدى وكان قد عاد من حجرته .. ليرى ما استقر عليه الأمر ..

وسألته باختصار :

— ما رأيك يا حمدى ؟ وبشيء من الدهشة رد حمدى :

— رأيى أنا ؟ وبشيء من الاستنكار لدهشته ردت فاطمة :

— أجل .. ما رأيك ؟.

— فى ماذا؟

وفى ضيق ونفاد صبر لخصت الموضوع فى كلمتين :

— علام يريد الزواج من سيدة !

وباختصار أجاب حمدى وهو يبسط كفيه :

— ولماذا لا تسألينها هى ؟

وتدخلت سميحة قائلة وهى تحاول أن تساعد أمها :

— سيدة قالت أمركم .

— أمرنا نحن .. هل نحن الذين سنتزوج ؟

ثم التفت إلى سيدة وسألها فى شيء من الحدة :

— ما رأيك يا سيدة ؟

ومن جديد أطرقت سيدة ورددت تكرر قولها :

— أمركم يا سى حمدى .

— ما رأيك أنت صاحبة الشأن .

وأمام حصار حمدى أحست سيدة أن عليها أن تقول قولا حاسما .. قبل أن يفر الصيد الذى بدأ يتململ فى موقفه أمام هذه المناقشة التى وضعته موضع سلعة تحت الاختبار .

قالت سيدة وهى مازالت مطرقة الرأس :

— أنا .. أنا.. موافقة .. ما دام ...

ولم يتركها حمدى تكمل حديثها بل قال فى حزم :

— انتهينا .. ما دمت موافقة .. فلننه الموضوع بغير تلكؤ .. لنضع حدا لكلام الناس ..

ونظرت الأم إلى علام قائلة :

— خلاص يا علام .. مبروك إن شاء الله .. وربنا يتمم بخير ..

ورد علام فى حماس :

— الله يبارك فيكى يا ست .. عقبال حمدى بك والست الصغيرة ... غداً أحضر أمى لنقرأ الفتحة .

وانتهى اللقاء الخاطف بتلك الحماسة .

وغدا نقرأ الفاتحة ..

وباالفعل قرئت الفاتحة فى الغد .

حضر علام وأمه .. وأخوه ..

وتبادلت الأم .. وسيدة نظرات فاحصة .. هذه هى حماتك يا سيدة .. يلف جسدها الضامر ملاءة سوداء .. ويبدو وجهها ..أسمر مجعد .. بأنف نقره الجدرى .. وذقن موشوم بثلاثة خطوط خضراء متوازية تبدأ من الشفة السفلى وتمتد حتى أسفل الذقن. وشفتين سوداوين وعينين غائرتين ..

شكلها غير مريح .. وغير مخيف .

ليست كأم عباس قاسية صارمة .. وليست كدلال قوية متحدية .. وليست كالست فاطمة .. يشرق وجهها بالطيبة والمودة .

لاتعطى إحساسا بالطمأنينة .. رغم لفظها الناعم ولهجتها المستكينة .

وأقبلت العجوز تربت ظهرها وتتحسسها كأنها تعاين بضاعة.. تنوى شراءها.

وهمت العجوز بأن تفترش الأرض ولكن سميحة قادتها إلى المقعد قائلة :

— اتفضلى هنا يا حاجة .

وجلست العجوز على المقعد وهى تسترق النظر حولها .

ناس مبسوطين .. والبنت تبدو كواحدة منهم .

ولكنها مع ذلك .. خادمة ..

دائما ربنا واكسك يا علام يا بن جاب الله .. طالع لأبيك الله يرحمه ..ومع ذلك فالمقدور وقع .. ولامنجاة منه .

والصلة مع أمثال هؤلاء الناس .. بأية طريقة :لابد أن تكون مفيدة .

وكانت سيدة ترتدى أحد فساتين سميحة .. وقد مشطتها سميحة وزينتها فبدت نظيفة جميلة .

وجلس علام على أحد المقاعد . وقد ارتدى جلبابا صوفيا غامقا وعوج اللبدة على رأسه .. وبجواره جلس أخوه منصور سمينا قصيرا أكرش .. قد ارتدى بدلة الشغل الكاكى ذات الأزرار الصفراء وكبس الطربوش حتى أذنيه .

وتقدمت سيدة بصينية الشربات .. ودارت عليهم .. بها .. واختلطت أصوات الرشفات .. والمصمصات .. بأصوات الأحاديث .. والتحيات .

وقرئت الفاتحة .. وشاع فى الحى خبر زواج سيدة بعلام .. وروج الخبر شائعات ونسج أقاصيص وحكايات ..

سيدة قد أحضرت علاما فى البيت .. وضبطته .. السيدة ..فاضطر إلى أن يتزوجها .. سيدة حملت من علام .. ولم يكن هناك بد من زواجها ..حتى لاتبلغ الست فاطمة الأمر للبوليس .

علام يطمع فى مصوغات سيدة .. وهو من أجل ذلك اعتدى عليها حتى يورطها فى زواجه ..

ويصيح من بينهم صائح : يا ناس اختشوا .. اتقوا الله فى بناتكم .

وبدأ الإعداد لزواج سيدة ..

أوصت الست فاطمة الجد بأن يحضر لها بضع فضلات من عنده ..

وانهمكت فى تفصيلها وحياكتها .

وجمعت سميحة كل ما استطاعت أن تستغنى عنه من ملابسها .. ومن أدوات الزينة لديها .

وأضحت سيدة موضع اهتمام أهل البيت .. وبدأت تتخفف يوما بعد يوم من أعباء الخدمة .. ولا سيما بعد أن أحضرت لهم العمة خادمة جديدة .. اتخذت منها سيدة موضع المرشدة الموجهة ..

وأقبل يوليو ..

علت الزهور الحمراء .. أشجار البانسيانس التى تبدو مرصوصة حول مدرسة شبرا متكاثفة فى مدخله . وبدت زهور المانجو تعقد فى حبات صغيرة أشبه بعناقيد العنب .. وبدت أرض القصب خالية ..

ونبت فى أجزاء منها الذرة وافترشت أرضها الملوخية والرجلة وأعراش الكوسة .

وأنهى حمدى امتحان التوجيهية .. وفك الشادر الذى ملأ أرض الكرة فى مدرسة شبرا .

وبدأت فترة انتظار النتيجة .. رحل بعض الرفاق إلى بلادهم فى الريف وبقى البعض يتجمعون فى الشرفة كل عصر .. يتناقشون فى السياسة أو يخرجون للسير على ساحل روض الفرج .. أو لاستئجار قارب يتبادلون التجديف به .

وضمتهم الشرفة ذات مساء .. وجلسوا يتبادلون الحديث .. وقد سادهم جو من القلق والتوتر .. فقد كانت النتيجة توشك أن تظهر .

وكان حمدى يجلس جلسته المعتادة مسندا ظهر الكرسى بميل على الحائط مادا ساقيه على سور الشرفه وبجواره رءوف وطلعت وصلاح .. وكان صوت ماكينة الخياطة يأتى من الداخل .. وقد انكبت عليها الأم تشطب ثوبا لسيدة ..

وساد الصمت برهة فقطعه صلاح بنداء ممدود :

ـــ وحدوه .

وصاح به حمدى :

ـــ مالك تصرخ هكذا ؟

ـــ وما لكم تصمتون هكذا ؟

وتمتم رءوف وسط الجدل بين الاثنين بقوله « لا إله إلا الله » .

ـــ بطلوا صراخ يا جماعة .. ودعونا ننصت .. يبدو أن هناك صوتا ينادى نمر التلامذة .

وأنصت الجميع فلم يسمعوا شيئا .

وقال طلعت :

ـــ قلت لكم إنى أستطيع أن أذهب لأحضرها من الوزارة .. من أحد أقربائى .

ورد رءوف :

ـــ ولماذا لم تذهب ؟

ـــ رفض حمدى أن يأتى معى .

وأجاب حمدى :

ـــ أنا لا أذهب أبدا للاستفسار عن نتيجتى .. لأن المرات التى ذهبت للسؤال عنها وجدت نفسى راسبا . الطريقة الوحيدة للنجاح .. هى أن أنتظر حتى تأتى إلى ..

وساد الصمت من جديد .

وقال صلاح :

ـــ عايزين نشرب يا حمدى .. ريقنا نشف .

وقال حمدى :

ـــ القلة عندك فى الصينية على سور البلكون .

ورد صلاح :

— نشرب شيئا غير الماء يا غبى .. شيئا يبل ريقنا .
وقال طلعت :
— بأى مناسبة ؟
ورد رءوف :
— خطوبة سيدة .
وقال حمدى :
— انتهت من زمان .
وأجاب صلاح :
— طيب نجاحنا .
— لما ننجح .
وقفز صلاح من مقعده صائحا :
— لأ .. يبقى لن نشرب .
— لماذا .. إن النتيجة توشك أن تظهر .
— ولكننا لن ننجح كلنا .
— الذى ينجح يسقى الذى لم ينجح .
وفجأة ساد الصمت .. عندما ملأ صوت من بعيد :
— نمر التلامذة .. البلاغ .
وساد الوجوم ..
وقفز صلاح من الشرفة وهو ينادى :
— بلاغ .. نمر التلامذة .
وأقبل بائع الصحف وقذف إليهم بنسخة من الجريدة وتلقى القرش وانطلق يعدو .
وساد السكون البيت .. حتى ماكينة الخياطة كفت عن الدوران .
وأخذت فاطمة تقرأ الفاتحة .. وسميحة تتمتم « يارب نجح حمدى » .

ودنت سيدة بثوبها الجديد إلى الشرفة .. ترقب الشبان الأربعة وهم ينكبون على الصحيفة ويتلون الأرقام .
ووثب صلاح من مكانه فرحا :
— نمرتى أهه .
وتوالت قراءة النمر .
— وادى نمرة طلعت .. وادى نمرة رءوف .. وحمدى .
نجح الرفاق الأربعة .. وأخذ كل منهم يضم صاحبه مهنئا ..
وتساءلت سيدة تستوثق من النتيجة :
— سى حمدى نجح ؟
ونظر إليها صلاح وهو يتأمل جسدها فى الثوب الجديد :
— وشك حلو علينا يا بت يا سيدة ...
ورد رءوف :
— بت ازاى .. دى بقت عروسة .. دى سيدة هانم .
وأجابت سيدة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة :
— خادمتكم دائما يا سى رءوف .
واندفع الرفاق يهنئون أم حمدى وسألتهم أن ينتظروا شرب الشربات ولكن كلا منهم اندفع يعدو إلى بيته .
وأحست سيدة بالفرحة تملأ قلبها .. وهى ترى الأم تضم ابنها والدموع تلمع فى مآقيها .. وتهتف به :
— مبروك يا حبيبى .. عقبال ما أهنيك بالليسانس .
وأقبلت سميحة تضم أخاها وتسأله فرحة :
— ماذا ستعطينى حلاوة النجاح ؟
— كل ما تريدينه .
— تأخذنى فيلم الوردة البيضاء لعبد الوهاب .

ـــ فقط ؟.

وضمها إليه وهو يقول :

ـــ سأذهب بك كل أسبوع إلى السينما .

وكانت سيدة تتطلع إلى حمدى وقد شرد ذهنها . ونظر إليها حمدى قائلا :

ـــ وماذا تريدين يا سيدة .. سلينى أى شىء .

أى شىء يا حمدى ؟.

لو قلت ما أريد .. لصحت من الدهشة .. ولضحكت ملء فيك واتهمتنى بالخبل .. ولكن .. لا تخش ..

فلم أعد أريده ..

بعد عنى .. مجرد الحلم به .. والتفكير فيه .

أسقطته حتى من حساب الأمانى ..

بعد أيام سأتزوج .. سأذهب لأعيش مع علام .. والحاجة أم منصور .. فى بيتهم بالمبيضة .

ماذا أريد منك يا حمدى ؟..

لقد أردت كل شىء ..

وقنعت منك بلا شىء ..

وتسألنى ببراءة .. سلينى أى شىء .

وهزت سيدة رأسها .. وطردت دموعا بلهاء تحاول أن تقتحم مآقيها ..

وقالت فى صوت خفيض تسرد مطلبها :

ـــ تحضر فرحى بكره .

وقال حمدى مؤكدا :

ـــ طبعا سأحضره .

(٢٦)

كانت ليلة ...

قبل دوران روض الفرج .. ينحدر زقاق ضيق يفضى إلى شارع أكثر اتساعا . والأولاد يلعبون الكرة والبنات يتواثبن بالحبل . والدور كغيرها من الدور يميزها أو لا يميزها ماء الغسيل الذى يجرى أمام عتبات الدور ليتجمع فى برك صغيرة آسنة سوداء . وأكوام الزبالة تتجمع فيها عروق الملوخية وبقايا تصفية الطماطم من قشور وبذور .. وأوراق ممزقة وعظام وعلب فارغة وقشر بطيخ ..

وأحد بيوت الزقاق تخرج من سقفه نخلة مائلة .. لا يكاد الصيف يحل .. وسباطات البلح تتدلى منها حاملة طرح البلح النينى الأخضر . حتى تبدأ المعارك بين صبية الشارع وأم منصور السمّاوية كما يسميها الصبية .

وبدت أم منصور مشغولة عن الصبية بما هو أهم .

كانت الليلة دخلة ابنها علام على البنت سيدة « الخدامة » كما كانت تصر على تسميتها أمامه حتى تعرفهة قيمتها دائما .. وحتى لايتركها « تشوف كيفها عليها » .

وكانت واجهة البيت قد علق عليها حبل تدلت منه اللمبات الكهربائية .

ولم تقبل أم منصور أن يعلق الحبل المضىء إلا بعد أن وثقت أن الأسطى عياد الكهربائى قد قبل إهداءة لعلام بغير مقابل .

لم يعلق فى الزقاق بطيخ زجاجي ولا رفرفت أعلام . فقد رفضت أم منصور أن يكلف الفرح شيئاً . إذ كانت فى نفسها غير راضية عن الزيجة .. لأنها كانت تكره شريكاً جديداً فى أبنائها .. إنها تكاد تحتمل زوجة منصور رغم طيبتها

وسلبيتها فما بالها بسيدة التى تبدو عينها « تندب فيها رصاصة » . ولقد كانت تأمل لعلام فى زوجة أفضل ، زوجة مليئة .. عندها طين .. يمكن أن ينعش حالهم .. ويفك ضيقهم . فعلام رجل ملو ثيابه .. تتمناه أى امرأة .

ولم يكن يداخلها إحساس بأن سيدة ستعمر .. كانت تشعر بأنها زيجة نزوة .. أو هكذا كانت تتمنى .. ومن أجل هذا كرهت أن تكلف الفرح .

ومع ذلك .. فقد اتخذ الفرح .. كل مظاهر الفرح .. بالتطوع .. تطوع الأسطى إمام المزين بإحضار سيد منجة المنولوجست الذى يحلق عنده منذ عشر سنوات وهو لم يزل بعد صبى قهوجى . وتطوع عبد القوى الممثل بفرقة على الكسار بأن يحضر عليّة ملبن صبية زكية العالمة ، ودبر إحياء الفرح .. بالتطوع .. بواسطة المعارف والأصدقاء .. الذين كرهوا أن يضيع عليهم فرح فى المبيضة .. بغير تفاريح .. ومهيصة ..

وجذبت الأنوار صبية الشارع فأقبلوا يحيطون بالبيت ويمنحونه مظهر الفرح بضوضائهم .. وصخبهم .

وتطوع على برم سائق التاكسى بإحضار العروس من بيتها بعد أن علق على العربة بعض فروع محملة بالزهر الأخضر اقتطفها من إحدى أشجار البانسياس فى الطريق .

المهم أن الفرح .. أصبح فرحا .. كغيره من أفراح العرائس .. المكلفة .. وأقبلت عليه سيدة .. عروسا .. كأى عروس ..

وكان أول تعليق أطلقه على برم سائق التاكسى وهو يرقبها تهبط من العربة .. عندما أسر إلى كيرة القهوجى وهو يهز رأسه فى سخرية :

— انزلى يا بنت الرفضى .. ماتعمليش ست ..

وأجابه كيرة وهو يرقبها باشتهاء وإعجاب :

— حد يقول إن دى خدامة .

ثم صفق بكفيه صائحا :

— حلال عليك يا علم .. حاتلهط سمن بلدى الليلة دى .. حار ونار فى جتتك .

وانهالت التهنئات على علام .. أو على « علم » كما يناديه أصدقاؤه المقربون وهم ينظرون إلى سيدة تدلف إلى الداخل .. وكأنها خروف .. سيتمتع به علام وحده ..

وجلست سيدة فى وسط مجموعة لم تستطع أن تميز منهن سوى حماتها وتفيدة زوجة منصور ونعيمة أخته .. أما البقية فقد كانت خليطا من عجائز ونسوة فى منتصف العمر .. يرمقنها بنظرات فاحصة ويلقين إليها بالتحيات والتهنئات .

— مبروك يا شابة .

— ربنا يتمم بخير يا حبيبتى .

— عقبال البكارى يا عروسة.

وأقبلت فتيات صغيرات رسمن شفاهن بالأحمر ولطخن وجوههن بالبودرة وأشرن إلى سيدة متسائلات فى فرحة :

— هى دى العروسة ؟

وضربت كبراهن إحدى الصغيرات على ظهرها ناهرة :

— لاتشاورى هكذا .. عيب .

ونظرت إليها الصغيرة وردت عليها فى غيظ :

— وانتى مالك ..

وتطلعت سيدة إلى الفسحة الخارجية التى يخرج من جانبها جذع النخلة ليخترق سقفها . وقد رصت المقاعد الخيزران بجوار جدرانها .. واصطف عليها أقارب العريس وأصدقاؤه .. وبدا منصور ببدلته الصفراء الرسمية التى يشد كرشه أزرارها .. فتكاد تنخلع عند أبسط انحناءة فى جلوس أو قيام .

وبدا علام بجلبابه الغامق واللبدة مائلة على حاجبه وهو يسير بين المدعوين يحييهم ويتلقى تهانيهم . ثم اندفع نحو الباب فجأة يصيح مناديا :

ــ واد يا سنقر .. أين نصف لوح الثلج ؟..

ــ منتظر الراجل يحضره .

ــ الله يخرب بيتك .. اذهب إلى الدكان قبل أن يغلق .. وقل لعبد الرحيم ..عم علام يريد نصف اللوح الباقى من أمس ..اذهب جرى .

وهتفت أم منصور فى ضيق :

ــ ألم يأت الثلج بعد يا علام ؟

ــ سيأتى حالا .

وصاح على برم :

ــ باب النجار مخلع .. لازم حانشرب الشربات مغلى .

ورد عليه كيرة :

ــ يحموك .. قول اشمعنى ؟

وانتظر لحظة ثم صاح :

ــ فى كنكة .

واندفع مقهقها .

ورد عليه على برم فى نبرات متزنة هادئة :

ــ قديمة ..

وأجاب كيرة قائلا :

ــ بس الكنكة جديدة ..

وعاد على برم يقول بنفس الهدوء :

ــ قديمة .. يابن القديمة .

ورد كيرة :

ــ طب يحموك .. قول اشمعنى ؟.. فى قزازة كزوزة .

وعاد يصفق بيديه فرحا .

ــ أظن دى جديدة ..

ونظر على برم إلى من حوله وتساءل فى هدوء :

ــ تيجى ازاى بقى .. يحموه ازاى فى قزازة كزوزة ؟

ــ طب ويحموه ازاى فى كنكة ؟

وبدأت مناقشة حول أيهما أكثر «معقولية «الاستحمام فى زجاجة كازوزة أوالاستحمام فى كنكة ؟..

وأخيرا صاح على برم :

فضوها سيرة .. مضى علىّ ثلاث شهور .. لا أستحم ..لا فى كنكة ولا فى زجاجة كازوزة .. انتهينا ..

ودخل سنقر بنصف لوح الثلج وصاح علام بأمه :

ــ الثلج حضر يام ..

وصاحت أم نعيمة .

ــ قومى يا نعيمة ..بلى الشربات فى الطشت وحطى فيه لوح الثلج .

وذهبت نعيمة إلى الحمام لعمل الشربات .

وعادت سيدة تتلفت حولها . وتملكها إحساس بالغربة .. وبعدم الانتماء إلى شىء فى هذا المكان .. ولا إلى علام نفسه .

وسط هذا الصخب والضجيج ..تبدين وحيدة يا سيدة .. وكأن هذا الفرح لايعنيك ..وكأنه لم يعمل خصيصا من أجلك .

من أجلك ؟..

أحقا .. قد تجمع كل هذا الحشد من أجلك ؟ولكنك لاتعرفينهم .. ولا هم يعرفونك ..

لاأحد منهم يشعر لك بإحساس خاص ..

إنهم يضحكون ليفرجوا عن أنفسهم .. وعن كروبهم ..كروب خاصة لاعلاقة لك بها ..

أنت ذاتك .. لا تمثلين شيئا خاصا فى نفوسهم .. ولكنك مجرد سبب يتجمعون من أجله .. ليضحكوا ويضحكوا .. وكان يمكن أن تحل محلك أى مخلوقة أخرى .

وسينصرفون عن فرحك الآن .. وينسونك تماما ..

سينصرف كل منهم إلى همه .. دون أن يحمل لك هما ..

أنت دائما وحيدة يا سيدة ..

حتى فى فرحك .. وحيدة .

حتى هؤلاء الناس الطيبون الذين أنبت الزمن بينك وبينهم صلة أشبه بصلة القربى .. قد أبيت إلا أن تقطعيها .. بحثا عن حريتك .. وسيادتك ..

ولكن لماذا لم يأت حمدى ؟

لقد وعد أنه سيأتى .. وكذلك وعدت سميحة .

إن وجودهما يمكن أن يمنحها إحساسا بالألفة .. ويشعر هؤلاء الغرباء .. أن لها أحدا .. وأنها ليست مقطوعة من شجرة .

لقد تطاير إليها من هؤلاء العجائز همسات .. تحمل تساؤلات :

ـ أين أهل العروسة ؟

ـ أليس لها أم ؟..

ـ أليس لها خالة أو عمة ؟..

ـ خدامة ؟ والخدم ؟ أليس لهم أهل ؟

ـ لقيطة ؟!.

هؤلاء الغجر .. لو ترك لها الأمر لخلعت الحذاء ونسلته على رءوسهم .. إنها كفيلة بتأديبهم .. ولكن ليس هذا وقته . لا داعى لأن تعمل فضيحة فى ليلة الدخلة .. غدا .. عندما تتمكن .. ستعرف كيف ترد عليهم .

كان المفروض أن تردعهم أم منصور .. ولكن يبدو أنها سعيدة بالهمسات .. جذب انتباهها .. حركة بالباب .. ورأت علام يتحرك نحوه مهللا :

ـ أهلا .. سى حمدى بك .. شرفتنا .

وأقبل حمدى من الباب يرتدى البذلة والطربوش وبجواره سميحة .. وأشار علام إلى باب الحجرة التى تجمعت فيها السيدات .

ـ تفضلى يا ست سميحة .. نورتى البيت .

وسلم حمدى على الرجال الذين نهضوا لتحيته .. وجلس بينهم على أحد المقاعد الخيزران . وبدأ الهمس والتعليقات والتساؤلات .

ودخلت سميحة حجرة السيدات فنهضت سيدة تستقبلها فى فرحة وأقبلت عليها أم منصور مرحبة :

ـ أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة يا بنتى ..أمال فين بسلامتها إلست أم حمدى .. كنا عايزين تشرفنا .

وتمتمت سميحة معتذرة :

ـ أصلها تعبانة ..

ـ سلامتها .

واتخذت سميحة مكانها بجوار سيدة ولأول مرة تحس سيدة بالطمأنينة ..

ترى هل أخطأت بتركها هؤلاء الناس ؟.

إنها تشعر أنهم أهلها .. تشعر بالحماية فى ظلهم .. والأمن فى كنفهم .

ولكن إلى متى ستظل تلتمس الحماية والأمن من الغير ؟

لقد خرجت تبحث عن حريتها ـ ويجب أن تتحمل مواجهة الحياة وحدها .. يجب أن تحقق بنفسها كل ما تحتاج إليه .

وربتت سميحة يد سيدة فى رفق ورددت الكلمة التقليدية المعتادة :

ـ مبروك يا سيدة .. إن شاء الله ربنا يوفقك .

ـ عقبالك يا ست سميحة .. ولكن لا تنسى أن تدعينى فى فرحك .

ـ أدعوك ؟. هل تظنين نفسك غريبة ؟.. أنت التى ستوضبين الفرح .

ـ طبعا .. فرحك .. وفرح سى حمدى .

ونظرت من الباب عبر الأجساد المرصوصة أمامها .. وبدا لها وجه حمدى فى آخر الفسحة هادئا صامتا .

وأحست به كأنما يجلس وحده .. بعيدا .. بعيدا .

قطعت أسباب الصلة بيننا يا حمدى ..

الصلة المادية .. التى كانت كل ما تبقى .. قد بلغت نهايتها .

صلتى بحذاء أمسحه لك .. وفراش أرتبه .. وملابس أغسلها .. ومائدة أعدها ..

انتهت ..

وكفانى الله بانتهائها .. شطحات التمنى .. وسرحات الأحلام .

غبنتنى .. فى كل لحظة من لحظات وجودى فى محيطك .. منحتك كل ما يمكن أن يمنحه إنسان .. وأبيت على حتى مجرد قبوله .. أبيت على إلا حنان السيد .. وعطف الأمير ..

عفا الله عنك .. فى كل ما فعلت بى ... وسامحك عن كل ما لم تفعله .

عفا الله عنك .. بكل ما أملك من قدرة على الدعاء .

لأنك على ظلمك لى .. عزيز .. عزيز ..

كنت دائما بعيدا .. وستزداد بعدا .

ولكنك ستبقى موجودا .. دائما موجودا ..

وأخرجها من شرودها .. دخول نعيمة .. تحمل صينية أكواب شربات الورد الأحمر .

وضجة بالباب علمت منها أن سيد منجة المنولوجست قد حضر .

ومرت الساعات حافلة بالضجيج والصراخ ورقص يشبه الضجيج وغناء يشبه الصراخ .

وحضر المأذون وقال كلاما وكتب فى دفتر ثم انصرف .. وأكل الناس وشربوا .. وضحكوا .. وتشاتموا .. وتضاربوا .. ثم انصرفوا واحدا بعد الآخر .وفى نهاية الليلة .. أصبحت سيدة زوجة علام .

كان عليها أن تدخل مع علام فى حجرة وحدهما .

وكان عليها أن تنام وإياه فى فراش واحد .. وأن تمنحه كل ما يريد .. بلا تمنع ولا مقاومة ..

عجيب ما فعلته بنفسك يا سيدة .

كنت تتأبى فى الطريق .. عن كلمة غزل .. وكنت تردينها .. بياسم .. ويا ضربة ويا كبة .. إلى آخر ما فى جعبتك من ألفاظ رد الغزل ..

وكانت مسة يد على صدرك .. أو تحسيسة على ردفك تعتبر جريمة تودى بمرتكبها إلى البوليس .

والآن .. تدخلين مع هذا الرجل حجرة مغلقة تمنحيه .. راضية مستسلمة ما يشتهى منك .. بغير مقابل .

حتى القرش الذى دفعه عباس .. نظير ما أخذ منك .. منذ سنوات مضت .. لم يدفعه علام .

بقرش يا سيدة .. بعت نفسك مرة .

وبلا مليم واحد .. تبيعين نفسك للأبد .

ولكنك ستأخذين الكثير فيما بعد يا سيدة ..

أنت تعرفين هذا ..

ستأخذين .. أولادا .. وبيتا .. وسلطانا ..

أين ؟!! هنا ؟ فى هذا البيت ؟ بيت أم منصور ومنصور وتفيدة ونعيمة .. الذى تشعر فيه بالغربة .

ولكن لماذا تتعجلين الأحداث .. اصبرى حتى تنجلى الأمور .. وتعرفى رأسك من رجليك ..

كل ما عليك الآن .. هو أن تنامى فى حضن علام .. وتفعلى له ما يشاء .

وكانت ليلة ..

لم تشعر خلالها سيدة أنها طرف فى علاقة .. بل أحست أنها وجبة

دسمة شهية .. أمام جائع ينقض على طعام طال حرمانه منه ، ولا يكاد يصدق أنه بات ملكه وملء يديه .

وظل علام يلتهم الوجبة الشهية حتى كل .. واستلقى بجوارها مسترخيا مكدودا .. وغلبه النعاس فنام ..

وحملقت سيدة فى السقف .. وبلغ مسامعها صوت ديك يؤذن .. ولمحت بياض الفجر فى النافذة .

انتهى علام منها .. ونام ..

أغلق عينيه .. وعلا شخيره .. ولم يعد له بها شأن .

علاقة عجيبة .. لا يمكن أن تكون بين آدميين لهما نفس الحقوق وعليهما نفس الواجبات .

علام يريد شيئا ..

وسيدة تمثل الشىء المراد ..

علام إنسان .. وسيدة شىء .

وعلام أخذ الشىء .. وهدأ واستراح .

والمفروض على سيدة أن ترضخ . وتستسلم .. ليس لها أن تتساءل وأنا ؟.. أو ماذا بعد ؟!!

بل عليها أن تغمض وتنام .. ما دام علام قد أخذ ما أراد واسترخى ونام ..

وظلت سيدة فترة تحملق بعينيها فى السقف .. يختلط فى سمعها شخير علام .. بصياح الديكة .. بأذان الفجر .

حتى نامت .

واستيقظت فلم تجد بجوارها علام . ووجدت الضوء يملأ الحجرة .. وسمعت صوت أم منصور تصيح بلهجة حادة :

— هى بسلامتها .. ناوية تنام للظهر .. قومى صحيها يا نعيمة .

ونهضت سيدة من فراشها قبل أن توقظها نعيمه .. ولم تعرف ماذا تفعل ..

ولكنها أحست أن عليها أن ترتب الغرفة وتنظفها .

وأقبلت عليها نعيمة قائلة :

— صباح الخير .

— خير عليكى .

وخطت سيدة نحو الباب وهى تتساءل :

— أين علام ؟..

— خرج ..

وقبل أن تواصل سيدة حديثها مع نعيمة سمعت صوت الأم يصيح فى حدة :

— يالله منك لها .. ليس هذا وقت رغى ..

وخرجت سيدة إلى الفسحة . وكانت أم منصور تجلس وبين ساقيها رحاية تديرها وتضع فيها فولا لتدشه .

ولم تكد ترى سيدة حتى صاحت بها :

— صح النوم يا شابة .

— أسعد صباحك يا خالة أم منصور .

— فوتى يا ختى اغسلى فمين الغسيل المكومين فى الحمام . وبعد أن تنشرى الغسيل . اسقى الفراخ وخرطى قشر البطيخ للوز .

وتذكرت أم عباس .

هذه المرأة .. تذكرها كثيرا بأم عباس .. رغم ضآلة جسدها وسرسعة صوتها .

ولم تعرف أى غسيل هذا الذى تكوم فى الحمام ؟

إنها لم تخلع بعد هدمة واحدة .

ولاتظن أن علام قد فعل .

وهى مسئولة عن غسيلها وغسيل علام .. هذا أقصى ما يمكن أن تفعله .

وتساءلت ببساطة :

ــ غسيل مين المكوم فى الحمام ؟

ــ غسيل البيت .

ــ ومن الذى سيغسله ؟

ــ يغسله من فى البيت .

ــ ولماذا أنا بالذات ؟

ــ أنت أو غيرك .. كله واحد .. أم تظنين على رأسك ريشة .

و لم تجد سيدة من العقل أن تبدأ حياتها بمعركة .. فهدأت لهجتها قائلة :

ــ طبعا . كلنا واحد .. ولكن كنت أقول إن كل واحد يمكن أن يغسل غسيله ..

وهزت العجوز رأسها فى غيظ .

ــ كل واحد يغسل غسيله ؟!! من أين تعلمت هذا يا شابة ؟.. الفم يلم الغسيل كله .. والا الصابون ببلاش . إذا كنت لا تريدين العمل قولى .. نحضر له خادمة .. لعلك لم تتعودى الخدمة .

وأحست سيدة بالدم يتصاعد إلى وجهها . وبذلت كل ما تملك لكيلا تنفجر وهى تحس بما فى كلام العجوز من هزء وسخرية .

وردت بهدوء :

ــ لا يا خالة .. سأغسل الغسيل .. أنا واخدة على الخدمة طول عمرى .

وأجابت العجوز وهى تزوم :

ــ آ .. ظننتك نسيتى .

واتجهت سيدة إلى الحمام .. فإذا بكوم من الملابس القذرة يبدو كأنه قد تجمع من بضعة شهور .. حتى تغسله هى .

ملابس منصور الكاكى وسراويله وفانلاته وملابس زوجته تفيدة وأطفاله الأربعة على ومحمود وبهية وزكية وملابس العجوز وابنتها وملاءتين سوداوين للخروج .

وتعالت أوامر العجوز تأتى من الفسحة :

ــ عندك وابور الجاز . ضعى عليه الصفيحة واغلى الماء ..

وهكذا بدأت سيدة حياتها الجديدة .. على طشت الغسيل .. غسيل عائلة علام بأكملها .. ونشرته . وسقت الفراخ وأطعمتها وخرطت قشر البطيخ للوز .. دون أن تتناول لقمة إفطار ..

وبدا كأن العجوز قد وضعت فى فمها لجاما أشد وأعنف من كل ما تعودته ولوت به عنقها لتعيدها إلى أيام أم عباس .

و لم تعرف سيدة ماذا كانوا يفعلون قبل أن تحضر .. من كان يغسل الغسيل وينشر ويطعم الفراخ والوز ؟

كانت نعيمة فى المطبخ . وأم منصور تدش الفول والأولاد يلعبون فى الشارع .

و لم يكن هناك أثر لتفيدة .

وسألت عن تفيدة من باب العلم بالشىء .

قالت لنعيمة وهى تهبط من السطح :

ــ أين تفيدة لم أرها اليوم ؟

وردت العجوز :

ــ تفيدة ذهبت الى سوق الجمعة تشترى جبنة قريش .

وحل موعد الغداء . أقبل منصور من الديوان يحمل فى يده حزمتين فجل وأقبل علام يحمل شمامة . وأقبلت تفيدة من سوق الجمعة تحمل سلة وضعت بها مشترياتها من السوق . جبنة قريش . ولفت وعيش رجوع .

وحول الطبلية تجمعت الأسرة فى مظاهرة للطعام . وبعد الغداء كان على سيدة أن تقوم بالتشطيب مع نعيمة .

ومرت الأيام بسيدة فى بيت العدل .

و لم تشعر لحظة .. بما كانت تطمح إليه عندما خطت أولى خطواتها فى طريقها

الخاص .

لا يمكن أن يكون هذا طريقا خاصا بك يا سيدة .

إنه شارع .. إنه سوق ..

وأنت فيه ضائعة .. لا تعرفين أين أنت .. ولا إلى أين تذهبين ؟..

دخلت أسرا جديدا يا سيدة ..

لا تبدو فى أفقه بارقة سعادة .. ولا يلوح فيه شعاع حرية .

بت خادمة لهذه القبيلة .. تنظفين وتغسلين وتطبخين .. بالنهار .. و بالليل .. لا تستطيعين أن تخلدى إلى وحدتك .. لأن عليك .. أن تقدمى نفسك وجبة لعلام .. يلتهمها وينام ..

هل أخطأت يا سيدة بالصبر والاستسلام ؟

وماذا كان يمكن أن تفعلى ؟..

تثورين فى وجه العجوز ؟.. وتخوضين معها معركة توقفينها بها عند حدها .. وماذا يمكن أن تكون نتيجة المعركة .. وأنت وسط قبيلة بأكملها ؟. هل سيتركونك تنفردين با لعجوز ؟

وإذا اشتكتك العجوز إلى ابنها ؟.. مع من سيقف ؟.. ومن ينصر ؟ وبقية الأسرة .. مع من ستشهد ؟

تصبر أحسن .

إلى متى ؟..

هل يمكن أن تواصل حياتها هكذا إلى الأبد ؟

غير معقول !!

هل تركت حمدى وأمه وأخته .. لكى تتحول إلى خادمة لأم منصور وأولادها .. وأحفادها .. بالنهار .. وخادمة فراش لابنها علام بالليل ؟

وشكت إلى علام بضع مرات فتململ قائلا :

ـــ وماذا تريدين .. الناس كلهم يعيشون هكذا .. لابد أن تستحملى ..أم

تريدين أن أحضر لك خادمة .. تشتغل عندك ؟

وهزت سيدة رأسها قائلة فى ضيق :

ـــ وهل تريد منى أن أعمل خادمة للجميع ؟.

ـــ أنت على الأقل فى بيتك .. ولست خادمة عند غرباء ..

ـــ لقد ضقت ذرعا .. بكل هذا .

ـــ لا بأس اصبرى .. حتى تتعودى .

ـــ لن أتعود .

ـــ إذن فماذا تريدين ؟

ـــ أريد أن أعيش وحدى .

ـــ أفتح لك بيتا وحدك ؟

ـــ أجل .

ـــ ما شاء الله !. وبم أفتح لك بيتا ؟.

ـــ إذن سنظل هكذا طول عمرنا ؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ غير معقول يا علام .. لا يمكن أن أقضى حياتى هنا فى هذا الجحر .

ـــ اعقلى يا سيدة واحمدى الله ..

ـــ على ماذا ؟

ـــ على البيت الذى آواك .. والناس الذين لموك .

ـــ أنا لم أكن ضائعة فى الطريق ..

ـــ كنت ضائعة فى بيت .

ـــ فشر ..

ـــ كنت ماذا فى البيت الذى تتحدثين عنه ؟.. ست ؟

ـــ كنت أحد أفراد الأسرة .

ـــ كلام فارغ . كنت خادمة

— وماذا أكون الآن .. بكل ما أقوم به من غسيل والكنس والمسح والطبخ .. من طلعة النهار للمغرب ؟

— تخدمين نفسك .

— وأهلك ؟

— لقد أصبحوا أهلك .

— لا يا علام .. أنا أريد أن أخدم نفسى .. أريد أن يكون لى بيت .

— لما يفرجها الحلال .

وبدأت سيدة تضيق بحياتها .. وهى لا تجد بصيص أمل يحقق أحلامها .. فى الحرية والسيادة .. ولم يكن هناك بد من حدوث الصدام بينها وبين العجوز صاحبة السيادة الأصلية فى البيت .

وبدأت أم منصور .. توقع بينها وبين علام .

اليوم أحرقت الطبيخ ..

اليوم شتمتها .. ولم تعبأ بها ..

اليوم ضربت أولاد أخيه .

وضاق علام بالشكوى وأمرها بأن تعقل ..

وأحست سيدة أن العقل ليس فى الاستسلام للعجوز . بل فى وقفها عند حدها .. وفى إظهار العين الحمراء .

وذات صباح استيقظت سيدة فوجدت علام قد خرج . وكانت زمتة النيل تثقل الجو بالرطوبة .. والحر يكتم الأنفاس ، ودون أن توجه إلى العجوز التى جلست تزغط الأوزة كلمة واحدة .. تناولت الملاءة السوداء التى تعودت أن تخرج بها منذ أن تزوجت ولفت بها جسدها .

وسألتها العجوز فى دهشة :

— إلى أين ؟

— خارجة .

— خارجة أين ؟

— أشم نفسى .. سأقوم بزيارة لست أم حمدى .. وأذهب إلى السوق ..

— والغسيل ؟

— اغسلوه انتم .

— تفيدة عيانة .. ونعيمة حاتخبز .. وليس هناك من يغسله سواك .

— إذن ينتظر حتى أعود .

— منصور وعلام ليس لديهما غيارات نظيفة .

— يمكنهما الانتظار بثيابهم الوسخة ..

— لكى تخرجى أنت للمرقعة ؟

والتفتت إليها سيدة فى حنق وصرخت فيها منذرة :

— لمى لسانك يا ولية .

— أنا ولية .. يا ضايعة يا بنت الضايعة .

— والله ماحد ضايع .. غيرك يا قرشانة .. يا مقددة .

— أنا يا بنت الكلب .

ونهضت العجوز فجذبت سيدة من صدر ثوبها فمزقته ودفعتها سيدة بيديها فى صدرها .. فسقطت العجوز على الأرض وهى تصرخ مستغيثة .

وأقبلت نعيمة من المطبخ ونهضت تفيدة تتحامل على نفسها من الفراش .

وانحنت تفيدة على العجوز ترى مابها .

وأمسكت نعيمة بخناق سيدة .. وبدأت المعركة .. وعلا الصراخ .. وأقبل الجيران .. وازدحم الزقاق بالناس .

واستطاع أولاد الحلال أن يطفئوا لهيب المعركة .

وأوت الأم وابنتها وتفيدة إلى حجرتها وهى تقسم أنها لن تستريح حتى يرقع علام سيدة علقة .

وأوت سيدة إلى حجرتها وهى تقسم أنها لن تبقى لحظة مع علام .. إذا لم يجد

لها مسكنا على حدة ..

وحضر علام وكان قد عرف تفاصيل المعركة من الجيران قبل أن يدخل البيت .

وجرته سيدة إلى الحجرة وهى تصيح :

ــ يا أنا .. يا أمك .. لن أمكث لحظة فى هذا البيت .

وقال علام فى هدوء :

ــ اسمعى يا بنت الحلال .. أنا لا أملك مليما .. أؤجر لك به بيتا وأفرشه .. فإذا كنت تريدين سكنا .. فهاتى نقودا .

ــ ومن أين لى النقود ؟

وصمت علام برهة ثم قال :

ــ إذن هاتى المصاغ ..

ــ وماذا ستفعل به ؟

ــ سأرهنه .. وأجهز بالنقود السكن .. ثم أردها عندما أستطيع تدبير النقود .

ــ يعنى سترد المصاغ ؟

ــ طبعا .

ومدت سيدة يدها إلى صدرها فأخرجت مفتاحا .. وفتحت أحد الأدراج فى دولاب الهدوم ثم أخرجت الحلق والغوايش وسلمتها لعلام قائلة :

ــ خد .. لعل ربنا يتوب علينا من السجن الذى نعيش فيه .

وبدت لها بارقة أمل فى التحرر .. والسيادة .

(٢٧)

أحلام السيادة

مرت بضعة أيام بعد المعركة .. وساد البيت هدوء نسبى يخفى فى طياته التحفز والا ستعداد لمواصلة القتال .

وازداد تصيد أم منصور لأخطاء سيدة .. وازدادت الوشايات والوقيعة .

واستمر الصدام العلنى تحت ألفاظ « التلقيح » والكلام الذى يسم البدن .

وانقطع الحديث المباشر بين سيدة وحماتها . وكان التفاهم يتم عن طريق تفيدة زوجة منصور التى ـــ رغم كراهيتها للعجوز وشماتتها فيها .. وتشجيعها لسيدة خلسة فى صدامها مع العجوز ـــ كانت تضطر إلى أن تأخذ موقفا مواليا لها .. خوفا منها ومن ابنها .

لا تكاد تشرق الشمس حتى تصيح العجوز بتفيدة :

ــ قولى لبسلامتها .. تقوم تدعك الحلل .. والا منتظرة خدامين أبوها يدعكوهم لها .

وتسمع سيدة الصياح فترد على تفيدة قبل أن تنقل لها التعليمات :

ــ اصطبحى يا تفيدة وقولى يا صبح .. أنا صابحة العفاريت بتنطط من عينى .

وترد أم منصور فى صوت أكثر خفوتا :

ــ ضربة لما تعفرتك .

ويستمر الحوار فى البيت على هذا المنوال . كأنه الطوب تتقاذفه الزوجة والحماة .. أوالكلمات تتبادلانها ..

ويعود علام إلى البيت لتتلقفه الأم وقد تغيرت لهجتها المتجهمة الحادة .. إلى

لهجة مستضعفة شاكية باكية :

— خلاص يا بنى .. لم يعد لى بقاء فى هذا البيت .. انهنت واتذليت .. فى آخر عمرى ..

— ليه يام ؟

— بهدلتنى .. وشتمتنى .. وفرجت على الناس .. وأنا مش حملها ..

— معلهش يام .. حقك على ..

— حرقت الطبيخ .. يا بنى ..

— معلهش يام .

— وكسرت زجاج الشراعة .. وهى بتنفض .. كان يوشك أن ينزل على نافوخى .. عايزة تموتنى يا بنى .

— بعد الشر يام .

— وكسرت قدرة المش .. وقطعت ..

— كفاية بقى يام .. كسرت دماغى .

وتندفع العجوز فى النهنهة وهى تقول فى أسى ولوعة :

— يا ميلة بختك يا زهرة .. آدى آخر شقاك وتعبك يا زهرة ..

ويتجه علام إلى سيدة ويجدها تقف متوثبة متحفزة وتتساءل فى ضيق :

— عملت إيه يا علام ؟

— فى إيه ؟

— فى السكن .

— لاشىء .

— لماذا ؟

— مازلت أبحث .

— الشقق الفاضية على قفا من يشيل ..

— أين ؟

— فى كل مكان .. ما من بيت إلا علية لافتة للإيجار .

— أين رأيت هذا ؟

— فى شوارع روض الفرج .

— وبسلامتك ستسكنين فى روض الفرج ؟

— ولم لا ..

— ومن أين لنا النقود ؟

— لم أكن أظنك عواطليا ..

— اعقلى يا سيدة ..

— إذن اختر أى مكان تسكن فيه .. المهم أن نترك هذا البيت .

— ما له هذا البيت ؟

— احنا حانعيده تانى يا علام .

— احمدى ربنا يا سيدة .

— حامداه .. وشاكراه .. ولكن أخرجنى من هنا .

— اصبرى حتى أجد البيت المناسب .

— صبرت كفاية يا علام .

— اصبرى كمان .

— إلى متى ؟

— إلى أن يحلها ربنا .

— أخشى أن أصور (قتيل) قبل أن يحلها .. أملك لم تعد تطاق .

— استحمليها يا سيدة .

ويستمر الحوار التقليدى يوما بعد يوم ..

وقلّت مع الأيام لهفة علام .. على سيدة ..

شبع علام .. من الوجبة الدسمة ..

لم تعد تثير شهيته .

الجسد الشهى .. الذى كان يتوق إلى اكتشاف نتوءاته التى تنفجر تحت الثياب .. لم تعد له سحره الغامض .

كشف ذلك الطِّلّسم .. واستكشف السر الخفى الغامض . وبات الشىء الخبىء الذى كان يدفع الدماء حارة فى عروقه .. بمجرد تصور رفع الغطاء الذى يحجبه ..

بات هذا الشىء .. مجرد كوم لحم طرى .. يضع كفه عليه .. فكأنه يضعها على جسده .

اعتاده بطول الجوار ..

عرفه جيدا ..

لم يعد به جديد يثير ..

وهو موجود دائما .. لايجد أيه مشقة للوصول إليه .

كأنه قطعة منه .. أو من الفراش .

فقد العناصر الثلاثة .. التى كانت تمنحه وهجه الجذاب ..

فقد .. خبيئته وسره الخفى .. بعد أن رفع عنه الغطاء .. فإذا به جسد .. مجرد جسد .. كغيره من الأجساد .

وفقد جدته .. كالثوب يستعمل يوما بعد يوم .. فيذهب رونقه بالاعتياد عليه .

وفقد مشقة الحصول عليه .. أو الخوف من فقده . فأضاعت اللهفة عليه .. الطمأنينة إلى وجوده .. وماذا يشوقنا إلى ما يرقد بجوارنا .. إن لم نأخذه اليوم أخذناه غداً ..

التهم علام الوجبة .. وامتلأ ..

وفقدت سيدة .. أهم ما شد علام إليها ..

قل مجيئه إلى البيت .. لم يعد يحضر إلى الغداء .. وبات يتأخر ليلا ..

وفى أول الأمر كان يتنحل المعاذير .

ومع الوقت أصبح التأخير عادة .. لا يحتاج إلى اعتذار .

وفى كل ليلة تستمر المناقشة التقليدية عن السكن والخروج من البيت ، وبدأت سيدة تسأل عن المصاغ .

وفى أول مرة أجاب فى كبرياء :

ــ المصاغ موجود .

ــ أين ؟

ــ عند الصايغ الذى سأرهنه لديه .

ــ وهل رهنته ؟

ــ ليس بعد .

ــ لماذا ؟

ــ لأنه يبخس قيمته .. وسأذهب به إلى آخر .

ــ ولماذا تركته عنده ؟

ــ لأنه .. لأنه .. يعيد تقديره .. وسيريه لغيره من الصياغ .

وفى المرة الثانية أبدى علام استياءه عندما سألته سيدة :

ــ عملت إيه فى الصيغة ؟

ــ الله .. قلنا بنرهنها .

ــ هل الصايغ .. مضمون ؟

ــ هل تظنينه يطمع فى صيغتك .. إنه يبيعنا ويشترينا ..

وتمر الأيام ويزداد الصدام بين سيدة وأم منصور ويزداد غياب علام عن البيت ..

وفى يوم لم يعد علام سوى قرب الفجر .

وبعد معركة حامية الوطيس سألته ثائرة :

ــ أين المصاغ ؟ أريد مصاغى .
ــ قلت عند الصايغ .
ــ أريده من عند الصايغ .
ــ ألا تريدين أن ترهنيه لأجل أن نعد المسكن ؟
ــ لا .. أنا أريد المصاغ .
ــ أتخونيني يا سيدة ؟
ــ أنا أريد مصاغى .

وفى الصباح خرج علام إلى عمله .

وخرجت سيدة لزيارة أم حمدى .

وكانت سيدة تزورهم بين آونة وأخرى .. وكانت الأسرة تلقاها بالبشاشة والترحاب . ولكنها كانت تحس أن غربتها وسط الأسرة تزداد مرة بعد مرة .

وأنها لم تعد واحدة من أهل البيت بل أضحت كالزائرة غريبة . تجلس أمام الست فاطمة وتسألها عن أحوالها .. وتطلب من الخادمة الجديدة أن تحضر لها شيئا .. كوب شربات أو فنجان قهوة .

وكانت تحس أن كلا منهم مشغول بأمره .. وأنها لا تستطيع أن تشغلهم بالتفرغ للجلوس إليها والاستماع لها .. وأن عليها إما أن تخلع ملاءتها .. وتنهمك فى مساعدتهم .. أو تجلس برهة للتحية ثم تنصرف ..

ووصلت سيدة إلى البيت وسلمت عليها الست فاطمة وسميحة فى حرارة وترحاب .

وقالت الست فاطمة فى أسف :

ــ ما لك دبلانة يا سيدة ؟
ــ أبدا يا ست .
ــ هل هناك ما يضايقك ؟

وتنهدت سيدة قائلة :

ــ ليس هناك فى الدنيا ما يريح .

وأمنت الست فاطمة على قولها بتنهيدة مماثلة :

ــ أجل يا سيدة .. كلها تعب .

وصمتت الست فاطمة برهة ثم تساءلت :

ــ ماذا يضايقك يا سيدة ؟
ــ لا أعرف كيف ألقاها ..من أم منصور .. والا من علام ..
ــ السكنى مع أهل الزوج خطأ كبير يا سيدة ..لا يمكن .. أن تشعر الزوجة بكيانها وحريتها إلا إذا سكنت وحدها .. مهما كانت الحماة طيبة .

وهزت سيدة رأسها قائلة :

ــ فما بالك يا سيدتى .. إذا كانت الحماة .. عقربة ..
ــ ولماذا لا تسكنين وحدك ؟
ــ مضى لى شهر وأنا ألح على علام .. وتعلل بالنقود .. فأعطيته المصاغ .

والتفتت إليها الست فاطمة وتساءلت فى جزع :

ــ أعطيته المصاغ ؟
ــ أجل .. قال إنه سيرهنه .. ويجهز البيت ثم .. يسترده عندما تتوفر لديه النقود .
ــ غلطانة .. المصاغ هو أمانك من عادية الأيام يا سيدة .. ما كان يجب أن تعطيه له .
ــ لم أطق العيش فى البيت .
ــ وماذا فعل ؟
ــ مضى شهر .. دون أن يفعل شيئا .
ــ والمصاغ ؟
ــ قال إنه أعطاه للصايغ ؟
ــ والنقود ؟

— لم يتم الرهن بعد .

— لماذا ؟

— لأنه ما زال يثمنه .

ونظرت إليها الست فاطمة فى غيظ :

— يثمنه فى شهر ؟

— قال هذا .

— قولى له أن يرجعه لك .. وتحملى حياتك حتى يستطيع أن يدبر لك السكن .

ودار الحديث بعد ذلك عن الأسرة ..

سألت سيدة عن حمدى فقالت الأم :

— دخل الحقوق .. بعد أن فشل فى دخول البوليس والحربية .

— يعنى ماذا سيصبح ؟

— يصبح محاميا .. أو يشتغل فى الجرنان .

— كسيدى المرحوم ؟..

— ربنا يقدم له ما فيه الخير .

— وأين ستى سميحة ؟

— ذهبت إلى بيت عمتها ..

— وكيف حالها ..؟

— تقدم لها بضعة عرسان ..

— ربنا يوفقها لابن الحلال .

— أحدهم مهندس طيب وابن حلال .. كانت أمه صاحبتى من السيدة .

— وما رأى سميحة ؟

— سميحة بنت حلال .. يرضيها أى شىء .. فقد قالت أى إنسان تتفق عليه أنت وحمدى .. أنا موافقة عليه .

— ربنا يسعدها ويهنيها .

وأقبلت فتحيه الخادمة الجديدة من الخارج تحمل سلة الخضار . وجلست سيدة تقمع البامية مع الست فاطمة .

وانتهى تقميع البامية .. وكان على الست فاطمة أن تقوم للطبيخ . وأحست سيدة أن عليها أن تنهى الزيارة وتغادر البيت .

أجل يا سيدة عليك أن تعودى إلى بيتك ..

فأقصى ما يمكن أن يربطك بهذا البيت هو مجرد زيارة .. تجتر فيها الذكريات وتؤخذ النصائح .

وسارت سيدة فى الشارع الذى قطعته مئات المرات ..

ولم تحرم من صيحات الإعجاب والغزل وقد لفت الملاءة السوداء جسدها فأبرزت تفاصيله .

وأحست سيدة أن الوحيد الذى لم يعد يغريه جسدها .. هو الرجل الذى يمتلكها .

ووصلت إلى البيت .

بيتها الذى كانت تحلم بأن يحقق لها أمانى العمر .

منطقة النفوذ .. التى لم تجد لنفسها فيها أى نفوذ .

مجال السيادة .. الذى لم تمارس فيه سوى الخدمة .. ولم تلق فيه سوى المذلة .

موطن الحرية .. الذى لم تجد فيه سوى الاستعباد والكراهية والحقد .

والنجاة فيه تبدو مستعصية .. والخلاص من قضبانه يبدو مستحيلا .

علام يماطل يوما بعد يوم وهو لا يكاد يحضر إلى البيت إلا للنوم . وأحيانا لا يحضر .. ومبيته خارج البيت قد تكرر المرة بعد المرة بحجة ذهابه إلى البلد لإحضار أشياء أو لفض مشاكل .

والمصاغ ما زال معه .. يماطل فى إعادته يوما بعد يوم ..

« غلطانة يا سيدة .. فالمصاغ هو أمانك من عادية الأيام ».

هكذا قالت الست فاطمة .. ومعها الحق .

ولكنها ستعرف كيف تستعيده .. وتعرف كيف تتخلص من هذا البيت .. ومن الحدأة المسماة أم منصور .

أجل ستعرف كيف تأخذ حقها منهم جميعا .. ليس كل الطير الذى يؤكل لحمه يا علام يا ابن زهرة .

وأمضت اليوم فى انتظار علام متحفزة متوترة .

صاحت بأم منصور عندما سألتها أين كانت ولماذا غابت .

ــ أنا حرة .. أخرج وقتما أشاء .. وأعود وقتما أشاء .

ــ لا يا ادلعدى .. هذه ليست وكالة من غير بواب .

وردت سيدة فى تحد :

ــ محدش له عندى حاجة .

ــ وعايزة خدامين أبو كى .. ينظفوا لك مطرحك .. ويحضروا لك السم الهارى ؟

ــ سم لما يهرى جوفك يا ولية يا قرشانة .

ــ أنا قرشانة يا شحاتة يا بنتُ الشحاتة ؟.. ولكن الحق ليس عليك .. الحق على النطع الذى آواك فى هذا البيت .

ــ يطربق على دماغك ودماغه .. من قال لك إنى أريد أن أبقى فيه ثانية ؟

ــ وما الذى يبقيك ؟.. يا مقطوعة .. يا جربانة .. يا مقيحة .. الباب متسع .. أرينا عرض أكتافك ..

واندفعت سيدة إلى العجوز صائحة :

ــ أنا جربانة ؟.. يا ولية يا مقددة ياللى رجلك والقبر ..

وبدأت المعركة وارتفع الصوات ..

واندفع الجيران يتدخلون لفضها .

وجرت زنوبة بائعة الكرات والليمون التى تجلس على باب الزقاق سيدة إلى حجرتها محاولة تخليصها من العجوز وابنتها وزوجة ابنها وأولادها الذين تكأكؤوا عليها .

وقالت المرأة لسيدة وهى تحاول تهدئتها .

ــ اهدى يا سيدة .. اهدى ..

وصاحت سيدة :

ــ والنبى لاصور لهم قتيل ..

ــ اعقلى يا سيدة .. عيب .

وأخذت زنوبة تربت على ظهرها قائلة :

ــ وآخرة كل هذا يا سيدة ؟.. كل يوم عركة ؟

ــ لن أبقى فى هذا البيت يوما واحدا ..

وهمست زنوبة قائلة :

ــ لك حق يا بنتى .. هذه جياة لا تطاق ..

ــ الحق علىّ اللى قبلت أن أعيش معهم فى هذا الحاصل .. والحق علىّ اللى رضيت بعلام من أول الأمر .. كانت وقعة سودة ومهببة .

وردت زنوبة فى صوتها الخافت :

ــ وماذا رماك عليهم .. دول لمامة .

ــ من الليلة لن أبقى فى البيت .. إما أن يطلقنى .. أو يفتح لى بيتا .

وهزت زنوبة رأسها فى أسف وتساءلت هامسة .

ــ يفتح لك بيتا ؟.. هو حاينفق على كم بيت ؟

ــ هو ليس مسؤولا عن هذا البيت ..

ــ والبيت الآخر ؟..

ورفعت سيدة رأسها فى دهشة متسائلة :

ــ البيت الآخر ؟!!

ــ ألا تعرفين ؟

ــ أعرف ماذا ؟

ــ أن له بيتا آخر ..

وضربت سيدة بكفها على صدرها وشهقت قائلة :

ــ علام له بيت آخر ؟

وفى إصرار قالت زنوبة :

ــ أجل له بيت آخر .. بيت ضرتك .

وصرخت سيدة :

ــ علام متزوج ؟!!

ــ ألا تعرفين ؟.. الدنيا كلها تعرف .

ــ تزوج من ؟

ــ سعاد بنت الشيخ تهامى .

ــ وفتح لها بيت ؟

ــ فى امبابة .

وصرخت سيدة وقد جحظت عيناها من فرط الغيظ :

ــ ابن الكلب .. خد المصاغ .. واتجوز بيه ؟.. فتح له بيت وسايبنى هنا انحرق فى جهنم اللى أنا عايشة فيها ؟!

ومضت فترة ذهول لم تعرف سيدة خلالها ما تفعل .

هذا حلمك يا سيدة .

منطقة النفوذ .. والسيادة .. والحرية .. والأبهة ..

جرك الكلب .. إلى حظيرة الكلاب .. وتركك وانطلق ليبحث عن صيد آخر .

وثروتك يا سيدة .. تحويشة العمر .. أمانك من عادية الأيام لطشها علام .. تزوج بها .

فتح بيتا ..

البيت الذى كنت تحلمين به ..

فتحه لغيرك .. وبنقودك .

وضغطت على أسنانها .. حتى سمع لها صرير .

وأحست سيدة أنها تود أن تقتل إنسانا .. تغرس فيه أسنانها وتمزق جلده بأظافرها .

وفجأة اندفعت إلى أم منصور وقبل أن تصل إليها لتطبق على عنقها ، أمسك بها الجيران الذين أحاطوا بها .

وصاحت سيدة بكل ما تشعر به من حقد وغضب :

ــ أتعرفين أن ابنك متزوج ؟

وببرود أجابت العجوز :

ــ وماله .. هو صغير .. والا عاجز ؟..

وصرخت سيدة :

ــ يتزوج علىّ .. أنا يتزوج علام علىّ ؟

وبنفس الهدوء ردت العجوز :

ــ ولم لا ؟.. الرجل له أربع .. على سنة الله ورسوله .. على الأقل يتزوج امرأة تنجب له ولدا .. كبقية الرجال ..

وكانت سيدة تعرف أنها لم تحمل ..

ولم تكن تعرف لماذا ؟..

ولكنها كانت تحس أن العجوز تتهكم عليها شهرا بعد شهر .. كأنها مقصرة .. أو عاجزة .

وكانت تدعو من آن لآخر لابنها علام .. بأن يعوض عليه ربنا بولد .

ولكن هل تزوج علام لينجب ؟

إنه لم يذكر لها شيئا عن رغبته فى الخلفة .

ثم من يدريه أنها هى المسئولة ؟.. وليس هو ؟

وصرخت سيدة فى العجوز فى غيظ :

ــ ومن قال لك إنى لا أنجب ؟

ــ وهل يحتاج هذا إلى قول ؟

ــ ولماذا لا يكون هو السبب ؟

ــ اخرسى قطع لسانك .. ابنى راجل من ظهر راجل .

إذن فعلام تزوج لكى ينجب ..

ولكنه لم يخبرها مرة واحدة أنه يريد أولادا .. على النقيض .. كان يبدى ضيقه وتبرمه من أولاد أخيه منصور .

وهى لم تمنح الفرصة لمعرفة .. هل حقيقة هى التى لا تنجب أم هو ؟..

المهم أنه ذهب وتزوج .. وبنقودها ..

وسحب الجيران سيدة إلى حجرتها ..

وخلت سيدة بنفسها .. ودفنت رأسها بين ركبتيها واندفعت تبكى ..

إلى أين يا سيدة ؟

مرة أخرى تقفين وحدك .. ضائعة فى قفر الحياة ..

البقاء هنا فى هذا البيت أضحى مستحيلا ..

هذه العجوز .. ستذلك .. وتفتك بك .. لو استطاعت .

أنت أمامها .. ذليلة .. محتاجة .. عليك أن تخدمى بلقمتك ..

وعلام .. أخذ النقود .. وتزوج .. وفتح بيتا .. ولم تعودى تهمينه فى شىء ..

لم تعودى تشكلين فى حياته أكثر من قطعة أثاث لم يعد يحتاج إليها .

ابقى .. أو اذهبى .. فهذا شأنك وحدك .

أنت لا تكلفينه شيئا ما دمت تقبعين مع أهله فى حظيرتهم .. تغسلين وتكنسين وتمسحين . وتأكلين لقمتك .. ويزورك بين آونة وأخرى .. ضمن

من يزورهم فى البيت .

هكذا يا سيدة .. يتبدد حلمك .. فى السيادة والحرية .

وجذبت سيدة شهقة طويلة .. ثم أطلقتها فى زفرة تحمل حرارة مواجعها .

ماذا تنتظرين يا سيدة ؟..

هل سترضين بمصيرك ؟.. فتقضى بقية عمرك هنا فى هذا السجن .

افعلى شيئا .. اذهبى إلى علام وحطمى صندوق الكازوزة على رأسه ..

اسألى عن بيته واطبقى فى عنق زوجته الجديدة .

وماذا بعد كل هذا ؟..

تعودين إلى هنا مرة أخرى ؟..

طبعا لا ..

انطلقى .. تحررى من هذا السجن .

إلى أين ؟..

إلى بيت حمدى؟!!

مرة ثانية .. خادمة كما كنت ؟

وهل زدت فى أى لحظة من لحظات حياتك .. عن خادمة ؟..

ولكنك زوجة !..

أجل .. أنت زوجة علام .. وقد أخذ مصاغك .. وتزوج عليك .

يجب أن تنتظرى لتلقيه .. لتسأليه عما فعل .. وتأخذى منه المصاغ وتطلبى منه أن يطلقك ..

وبعد ذلك تنطلقين حرة إلى أى مكان تشائين .

ومرت الساعات .. وسيدة تنصت إلى وقع الأقدام تطرق أرض الزقاق .. منتظرة أوبة علام .

وهدأت الأصوات .. أغلقت الحوانيت والمقهى على باب الزقاق وكاد وقع الأقدام أن ينقطع ..

وأخيرا .. سمعت وقع أقدام علام .. إنها تميزها بسهولة .. وطرق الباب .. وأسرعت تفتحه ..

ووقفت تحدق فى علام وهو يقف بالباب ..

وأحس علام بنظراتها غريبة .. وهى تتفحصه فى الظلمة .

وخطا داخل البيت وهو يدفعها جانبا قائلا :

— ما بالك ؟

وسألت سيدة :

— أين كنت ؟

— كنت فى المقهى ..

— حتى الآن ؟

— أجل .

ووصل إلى الحجرة واستند على طرف الفراش .

ولم تستطع سيدة أن تملك زمام نفسها أكثر من ذلك فأطلقت سؤالها كالرصاص .

— اسمع يا علام . أنت تزوجت ؟

ورفع علام حاجبيه فى دهشة وبدا عليه الذهول .

— من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

وعادت سيدة تسأل فى إصرار :

— قل هل تزوجت ؟

— طبعا لا .

— وأين المصاغ ؟

— قلت لك عند الصايغ .

— مضت الآن أشهر تقول لى ذلك .

— ألم تعطيه لى لأرهنه ؟

— وهل رهنته ؟

— أجل ..

— والنقود ؟.

— وتردد علام برهة قبل أن يقول :

— النقود .. موجودة .

— أين ؟

— محفوظة .

— محفوظة أين ؟

— عند أحد أصدقائى .

— ولماذا ؟

— لأنى أخشى أن يلطشها أحد .

وأطلقت سيدة زفرة يأس ثم عادت تسأل فى إصرار وحزم :

— هل النقود موجودة حقيقة يا علام ؟

— قلت لك أجل .

— ألم تتزوج ؟

— قلت لك لا ..

— وسعاد بنت الشيخ تهامى ؟

وفغر علام فاه وازدرد ريقه . وارتج عليه فلم ينطق بكلمة .

وعادت سيدة تسأل :

— لماذا سكت ؟

— ماذا تريديننى أن أقول ؟

— هل تزوجت سعاد بنت الشيخ تهامى ؟

وفى قلق وضيق وتحد رد علام وهو يحس أنها تعرف كل شىء .

— أجل .

— وفتحت لها بيتا فى امبابة ؟

وبنفس اللهجة المتحدية أجاب علام :

— أجل .

— ونقودى يا علام ؟. بمصاغى ؟.

وأشاح علام بيده فى ضيق .

— مصاغك .. مصاغك .. فلقتينى .

و لم تطق سيدة صبرا وهجمت عليه فأنشبت أظافرها فى وجهه صائحة :

— بشقاى .. وكدى .. وعرق السنين التى عملتها ؟

ودفعها علام عنه بكل قواه فسقطت على الأرض صارخة .

واندفع إلى الحجرة أخته وأخوه وزوجته وأمه .

ونهضت سيدة .. محاولة أن تعاود الهجوم عليه ..

وتكأكأ الجميع حولها . وانهالوا عليها ضربا .. وهى بينهم هائجة كالمجنونة .

وأخيرا أمسك بها منصور ودفعها على الأريكة فى عنف .

وصرخت سيدة متشنجة :

— لن أبقى هنا ثانية .. طلقنى .

وصاحت أمه :

— طلقها .. خلص نفسك منها .. إنها مجرمة .

وهتف بها علام فى حنق .

— روحى وانت طالقة .. طالقة ..

وتنفست أمه الصعداء . وقالت فى هدوء :

— من الفجر .. على برة .

وقفزت سيدة من مكانها كالمجنونة .

— من الآن .. لن أبقى لحظة واحدة .. ربنا تاب علىّ .

واندفعت إلى الخارج كالمجنونة ..

ولفحتها نسمة الطريق الباردة .. واحتواها الفراغ والظلمة وسكون الليل .

(٢٨)

على حافة الضياع ..

اجتازت سيدة الزقاق .. ووقفت على الرصيف فى شارع روض الفرج .. ولفحت وجهها نسمة ليل باردة .. عبت منها شهيقا طويلا. وأحست كمن أصابه إغماء وضربوا وجهه بماء بارد فانتفض وأفاق .

تحررت من السجن يا سيدة .

سجن السيادة الموهومة .. والسلطان السرابى .

كتب عليك الاستعباد يا سيدة ..

استعبدتك دلال فى بيت أبيك .

ومات أبوك وتركك على حافة الضياع .. ليلتقفك برعى بيد الرعاية .. ويلقى بك فى سجن أم عباس .. خوفا عليك من الضياع .

ومن أجل لقمة العيش .. ورقدة سواد الليل .. فقدت كل الأشياء الجميلة فى الحياة .

فقدت الحرية فى أن تفعلى ما تشائين وقتما تريدين ..

الأشياء البسيطة التى يفعلها كل الناس .. دون أن تدخـل فى حساب الخطايا .. أو فى قائمة المحرمات .

حرم عليك فى سجن أم عباس أن تفعلى ما يفعله الناس .. من أجل أن تبقى على قيد الحياة بين الناس .

وبقيت على قيد الحياة فى سجن أم عباس ..

يسرت لك اللقمة والرقدة .. ولا شىء أكثر من هذا ..

هل تستحق الحياة أن نحياها .. دون أن نملك فيها ذاتنا ؟..

فى بداية الأمر نختار الحياة .. مجرد الحياة .

عندما نخير بين الموت والحياة .. نختار الحياة .. أيا كانت الحياة ..

ليس لنا سبيل إلى الاختيار .. عندما نفاضل بين اللقمة .. مجرد اللقمة .. والموت جوعا ..

نأكل اللقمة أولا ..

نضحى من أجلها .. بما يمكن أن نحتاج إليه بعدها ..

ولكن عندما نثبت أقدامنا على أرض الحياة .. لا تعود اللقمة تكفينا .. ولا تغنينا .

مركب الإنسان .. هنا يختلف .

الحيوان .. خيرته فى الحياة واضحة .. بين اللقمة .. وعدمها .. اللقمة لديه أولا وآخرا .

ولكن الإنسان بتركيبه المعقد .. تزداد احتياجاته وعلى رأسها حريته .. بعد اللقمة .. وتصبح من الحيوية .. بحيث تفقد الحياة قيمتها بغيرها .. وتعود اللقمة وهى وسيلة الإبقاء على قيد الحياة .. وسيلة للعذاب .. وتبهت قيمة الحياة وتتضاءل .. حتى يتمنى الإنسان لو فقدها .. ويصبح الضياع خيرا لديه .. من البقاء الذليل .. فى سجن الحياة ..

ومن جديد عادت سيدة تقف على حافة الضياع .. بعد أن انطلقت من سجنها الجديد .. سجن أم منصور وذريتها ..

غررت بك الحياة يا سيدة .

لوحت لك بالأمل السرابى .. بعد أن أمنت إليها مع الأسرة الطيبة التى أنقذتك من سجن أم عباس .. ومن الضياع بعده ..

أمنت عصف الحياة .. فى مأوى مريح مأمون .. وبدأت تمارسين حقك فى الأمل ..

آفة الآدمى يا سيدة .. أنه يأمل ..

دائما يأمل .. كلما حقق أملا .. تجدد له أمل ..

وأنت يا سيدة آدمية .. أمنت حياتك .. ففتح أمامك طريق الأمل .. الطريق الخاص إياه .. المفروش بالورود .. ورود الحرية .. والسيادة .. والتصرف في حياتك بإرادتك .. تعملين عندما تريدين أن تعملى .. وتستريحين عندما تريدين أن تستريحى .. تخدمين بإرادتك وتسودين بإرادتك ..

فتح لك باب الطريق الخاص .. طريق المستقبل .. طريق الحرية والسيادة .. فاندفعت يا بلهاء تخوضين غماره .

وإذا بك تهوين إلى فراغ .

وأفقت .. لتجدى نفسك من جديد . فى قاع السجن .

غير معقول هذا .. أبدا ..

أن تكون الحياة .. طوابق سجون .. يقفز الإنسان فيها من سجــن إلى سجن .

وفى السجن الجديد .. ذئاب وجدت فيك ضحية .

أكل علام منك وجبته الشهية وانتهى .. وترك بقيتك لأمه تمارس فيك كل أنواع الكراهية والحقد .

وانصرف عنك فاتح باب المستقبل .

جردك من كل ما حلا له .

مصمص جسدك .. وأخذ مصاغك .. وانصرف عنك تماما .

لم يرض حتى أن يكون سجانك ..

بل تركك لنائبه فى السجن .. أم منصور .

وانصرف هو ليفتح باب المستقبل لأخرى ..

يا لسخريات الحياة .. يا سيدة ..

بات كل ما تأملينه من طريقك الخاص .. طريق الأمانى .. طريق الأحلام .. هو الخلاص .

انجى بنفسك يا سيدة ..

اتركى كل شىء .. وانجى .

اقفزى من فوق سور السجن .. ولو إلى الضياع ..

أى شيء أهون .. من عفن سجن أم منصور .. ونتانة ابنها .

وأقبل ترام روض الفرج .. بطنين عجلاته تلف على القضبان الحديدية عند الدوران .. يحمل الأفواج الأخيرة من رواد مسارح الكسار وفوزى منيب ويوسف عز الدين . ببقايا آخر الليل من الباعة السريحة والمتسكعين .

وازدردت سيدة ريقها وهزت رأسها كأنها تنفض عن رأسها بقايا كابوس .

— إلى أين يا سيدة ؟.

بعد أن خلصت من السجن .. ووقفت على حافة الضياع ..

إلى أين .. خطاك القادمة ؟.

إلى الأسرة الطيبة ؟

فى هذه الساعة من الليل ؟

تنتظرين إلى الصباح ؟.. أين ؟..

فى أى مكان .. هنا على الرصيف .. بجوار أى جدار .. حتى تشرق الشمس ثم تذهبى إليهم ؟ وتحكى للسيدة الطيبة ما جرى ..

ثم تبقين عندهم ؟..

إلى متى ؟ إلى أن يأخذ بيدك .. ابن الحلال .. ليقذف بك فى سجــن جديد .. ويسلبك ما يكون قد تجمع من أجرك ..

ثم .. من يدريك أن السيدة الطيبة تحتاج إليك بعد أن أحضرت خادمة جديدة ؟

وهزت سيدة رأسها فى ضيق ويأس ..

ليس من السهل عندما لا توفق خطانا إلى الأمام .. أن نستدير لنعــود القهقرى .

لا شيء فى الحياة يعود ثانية .. بمجرد أننا نريد أن نعيده .

خطواتنا إلى الأمام .. لا تتبعها إلا خطوات أخرى إلى الإمام .. مهما كان الطريق الذى سلكناه ..

ليس من سبيل إلى العودة يا سيدة ..

واصلى خطواتك .. فى طريقك الخاص .

ولكن إلى أين ؟.. وكيف ؟..

لقد فقدت كل شيء ..

لم تعودى تملكين سوى .. هذا الجسد الذى يقف على الرصيف ليتلقى نسمة الليل الباردة .

جسدك يا سيدة .. هو كل ما تبقى لك .

وبرغمها انفلتت منها .. ضحكة قصيرة مريرة ساخرة .

ومتى كنت تملكين سواه يا سيدة ؟.

ماذا كان لديك أفضل منه .. جذبا وإثارة ؟..

ومع ذلك فقد فشل فى أن يخط لك طريقك الخاص .. ويضمن لك مستقبلك الذى أملت فيه .

قضم منه الرجل الذى فتح لك باب المستقبل .. قضمة طيبة أشبعته .. ثم لفظه ..

لم تكن لهذا الجسد الشهى القدرة على استبقائه .. والاستحواذ عليه .

كانت قيمته يا سيدة .. فى أول قضمة .

وعندما اعتاد الفم طعمه .. لم تعد له قيمة .

ولفحتها نسمة الليل الباردة .. فارتجفت .

المهم أن تجدى لك مأوى الآن يسترك .. والصباح رباح ..

وتباعد الترام .. بزمارة الكمسارى تقطع سكون الليل .. وبدت عربة صغيرة مكشوفة تحمل بعض رواد الليل . وتندفع أمام الكنيسة الإيطالية تعلو

صرخات عجلاتها وهى تلف بعنف عند الدوران .

ولمح ركاب العربة سيدة تقف تحت ضوء مصباح الطريق .

وهدأت العربة من سرعتها ثم استدارت لتعود مرة أخرى .. وتتوقف أمام سيدة .

ولمحت سيدة شابا يقود العربة وبجواره فتاة تهدل شعرها على كتفيها وغطت الأصباغ وجهها وهى تقهقه ضاحكة وفى المقعد الخلفى جلس شاب آخر يلقى برأسه فى استرخاء على حافة المقعد .

وهتف الشاب الذى يمسك بعجلة القيادة :

ــ ها .. تعجبك ؟

ونظر إليها الآخر نظرة غير مبالية ورد فى استخفاف :

ــ يعنى .

وقالت الفتاة ساخرة :

ــ يبدو عليها « خدامينى » خالص .

ورد الأول متعجلا :

ــ ليس هناك سواها .. ما رأيك ؟

ونظر إليها الثانى نظرته غير المكترثة قائلا :

ــ أهى تقضى !

وفتح الباب لسيدة قائلا فى لهجة الآمر :

ــ ادخلى يا بت .

تدخلين يا سيدة ؟! أم لا تدخلين ؟!

ولماذا لا تدخلين ؟!!

دخلت عشة فراخ ذات مرة بقرش .

ودخلت بيت أم منصور مرة أخرى .. ولطش منك المصاغ ..

ثم .. هل يمكن أن يحدث لك شيء أسوأ مما حدث فى بيت أم منصور ؟

ادخلي يا سيدة ..

ادخلى يا سيدة « وبلاش غلبة » .

ادخلى تجدى على الأقل فراشا تنامين فيه حتى الصباح ..

وسيعطونك شيئا .. أى شىء ..

وإذا لم يعطوك .. فهم لن يأخذوا منك .. لأنك لا تملكين شيئا .. أى شىء .

وفى صمت دخلت سيدة العربة ..

وانطلق سائقها فى عجلة ليدفع بالريح يلطم وجه سيدة وصدرها ..

واستدارت العربة مرة أخرى لتتخذ طريقها إلى دوران شبرا .

وتلفت الشاب بجوار سيدة يفحصها وقد ذهب عنه استرخاؤه وعدم مبالاته .

وازداد اهتماما بها وهو يجدها خيرا مما توقع .

ومد يده يتحسس ساقيها ..

وبغير إرادة دفعت سيدة يده .

فنظر إليها فى دهشة وتساءل فى غيظ :

— مالك يا بت ؟

وأدركت سيدة أنها قد أخطأت التصرف فتمتمت قائلة :

— ولا حاجة .

وعاد الشاب يمد يده إلى ساقها يتحسسها . ولم تقاوم سيدة . بل استسلمت فى هدوء وكأن الأمر لا يعنيها .

وعند الدوران دارت العربة يسارا فى شارع شبرا وتجاوزت جامع الخازندار .. وكنيسة سانتا تريزا ثم دلفت يسارا فى أحد شوارع حدائق شبرا .

وتوقفت العربة أمام فيلا صغيرة أحاطت بها الأشجار .

وقال الشاب الذى يسوق العربة لصاحبه :

— افتح الباب يا ابو تيفة وخذ لواحظ وصاحبتك وادخلوا حتى أضع العربة فى الجراج .

ونزلت سيدة تتبع أبو تيفة الذى اخترق الحديقة مع المرأة الأخرى وأحست سيدة بهزالها إلى جانب المرأة التى سارت تتبختر أمامها بالكعب العالى والفستان الذى يشد جسدها .

وكانت سيدة ترتدى أحد الثياب التى منحتها إياها سميحة . وكان القدم قد أحال لونه وأبلى نسيجه . ومع ذلك فقد بدا جسدها واضح المعالم بطريقة جعلت نظرات اللامبالاة التى لقيها بها توفيق فى العربة تشد إلى نتوءاته لتتحسسها فى لهفة مرة بعد أخرى .

وصعدت سيدة بضع درجات فى مدخل الفيلا وفتح توفيق الباب ودخل الثلاثة إلى صالة صغيرة تشيع الفوضى فى أرجائها تتوسطها منضدة عليها بقايا طعام وزجاجة بيرة فارغة .

وهتف أبو تيفة فى سخرية :

— هذه فوضى الأستاذ عبد الستار .

وبعد لحظة أقبل عبد الستار الذى نظر إلى الأثاث المبعثر والمنضدة عليها بقايا الطعام وقال غاضبا :

— الله يخرب بيتك يا صابر .. قلت له نظف المنضدة واغسل الأطباق قبل أن يذهب فلم يفعل شيئاً .

وتمنت سيدة لو أن مهمتها اقتصرت على تنظيف البيت . وتقدمت بالفعل لكى تحمل الزجاجات الفارغة وتمسح المنضدة .

ولكن توفيق جرها من ذراعها قائلا :

— تعالى .. ماذا تفعلين ؟

— أنظف المائدة .

— أهذا وقته ؟

وجذبها إلى باب غرفة على اليسار .

وهتف عبد الستار ضاحكا :

ـــ لماذا العجلة ؟.. كنت تبدو مستغنيا .

وضحك توفيق وجذب سيدة من ذراعها قائلا :

ـــ حل عنى .. تعالى يا بت .

ـــ ألا تريد أن تأكل شيئا ؟

ـــ أكلت فى الكازينو .

ـــ تشرب لك كأس ؟

ـــ شربت ما فيه الكفاية .. هيا يا بت .

وقالت لواحظ وهى تضحك فى سخرية :

ـــ يبدو أنها دخلت مزاجه .

ورد توفيق وهو يحيط خصر سيدة بذراعه :

ـــ جدا .

وقالت لواحظ وهى تهز رأسها :

ـــ كل فولة ولها كيال .

وهمت سيدة بأن ترد ببساطة « ليه يا ادلعدى .. ما شبهش »

ولكنها كرهت أن تخوض معركة لا مبرر لها . وتركت طرف المناقشة الأصلى يرد عن نفسه .

وأجاب توفيق ضاحكا :

ـــ كان زمان وجبر يا لواحظ .. راحت عليكى بقى يا بت .

وردت لواحظ فى تحد :

ـــ فشر .. لواحظ ستبقى طول عمرها لواحظ .

وقال توفيق ساخرا بغير حياء :

ـــ لواحظ ستبقى طول عمرها لواحظ .. نعم .. لكن صدر السيادة ..

أصبح زى الكتينة تلفيه على صباعك .

وأضحك التشبيه سيدة رغم كل ما هى فيه ، وتصاعد الدم إلى وجه لواحظ ، وصاحت بتوفيق :

ـــ اخرس . جاك قطع لسانك .

ثم التفتت إلى صاحبها عبد الستار قائلة :

ـــ عاجبك الولد المجرم ده ؟

وقال عبد الستار وهو يجرها إلى حجرة مقابلة :

ـــ هيا يا شيخة دعيكى منه .

وجذب توفيق سيدة من ذراعها وهو يقول :

ـــ يا الله يا بت .. ليس لدينا وقت .. عبد الستار راجل ملتزم .. عنده طين يوكله الشهد .. لكن أنا راجل موظف .. ليس عندى غير تراب الميرى أتمرغ فيه .. ولا بد أن أصحى بدرى لكى أذهب إلى الديوان .. يا الله يا شاطرة .

ودخلت سيدة الحجرة مع توفيق أو أبو تيفة كما كان يناديه صاحبه .

ومرة أخرى وجدت سيدة نفسها وجبة تلتهم .

عجبا يا سيدة .. أهذا هو دورك الذى يصر القدر على أن تقومى به .

وجبة تشتهى .. وقضمة تزدرد ..

مع غريب يجرك إلى الفراش ليستطعمك .. ويستمتع بك لحظات .. ثم ينتهى أمره معك .. منذ لحظات كنت تقفين على الرصيف لا تجدين لك مأوى .. وقد يكون غيرك ما زال يقف على رصيف ما .. ينتظر المأوى بلا أمل ..

ولكن جسدك منحك المأوى ..

هذا الجسد يا سيدة .. يجب أن تخضعيه لإرادتك .. لقد كان دائما .. عنصر الجذب فيك ..

وعليك أن تواجهى به فى تحد .. هؤلاء الذين يتطلعون إليه فى نهم .

لم يعد لك من ثروة سواه .. بعد أن لطش منك علام المصاغ .. أكل

الوجبة .. بلا ثمن .. وأخذ ثروتك ليأكل بها وجبة أخرى .. الكلب ابـن الكلب ..

إذا أفلت من قصاصك .. فلن يفلت غيره من الرجال .. الثمن يا أولاد الكلاب .. فلن تفرط سيدة فى جسدها مجانا ..

ومد توفيق يده فى الظلمة يتحسس جسدها .

وتركته يتحسس وهى متيقظة الحس متوترة الأعصاب .. وهمس بها وقد تلاحقت أنفاسه .

— اخلعى ..

وببساطة وحزم أجابته :

— النقود .

ومد يده يجذب ثوبها قائلا فى حدة .

— اخلعى يا بت .

وبإصرار أجابت :

— قلت لك النقود .

وجذبها بعنف نحو الفراش وهو يقول :

— بعدين .

— لا .. أريد النقود أولا .

واتجه توفيق إلى جاكتته التى قذف بها على أحد المقاعد وهو يزوم قائلا :

— يا بنت الرفضى .. ظننتك غشيمة .. أتاريك ساهية .

وقذف إليها بقطعة فضية وانحنت سيدة فالتقطتها من فوق الأرض وفحصتها فإذا بها خمسة قروش ..

خمسة قروش .. أهكذا يدفعون .. يا سيدة ؟

إنك فى حاجة إلى .. حتى قرش .. ولكن لا يجب أن تسلمى بسهولة .. إنهم لا شك يدفعون أكثر من ذلك ..

عباس قال لها الكبشة منك بشلن فى وجه البركة ولكنه كذاب ابن كذاب ..

ونظرت إلى توفيق وقالت باستخفاف :

— شلن ؟

وسألها توفيق فى دهشة وضيق :

— ماله .. قليل ؟

— لا ينفع .

وجرها توفيق إليه يتحسس صدرها وزاد تلاحق أنفاسه وقال لها راجيا :

— يالله .. بلاش مناكفة ..

— قلت لك لا ينفع .

واتجه توفيق إلى جاكتته وأخرج قطعة فضية أخرى وقذف لها بها قائلا :

— خدى .. الله يخرب بيتك .

وأخذت سيدة القطعة الأخرى ..

نصف ريال يا سيدة .. فى المرة .

لو عاملت علام بهذا السعر .. لأصبحت ذات ثروة .. ولكنك كـنت مغفلة .. لقد التهمك .. وأصبح هو صاحب الثروة .

ولكنك تعلمت يا سيدة .. والإنسان لا يتعلم بسهولة .

وأقبل توفيق على الوجبة ..

وبدا كأنه يريد أن يأخذ بكل ما دفع .. بالنصف ريال كله .. وتركته سيدة يفعل ما يشاء ..

لهث وعرق .. ثم استلقى كالقتيل ..

ومع ضوء الفجر المتسلل من شيش النافذة .. تسلل النوم إلى عينيها ..

واستيقظت سيدة قبل الضحى .

لمت ثيابها المتناثرة وخرجت إلى الصالة فلم تجد سوى لواحظ .. وقد جلست على المائدة تحتسى فنجانا من الشاى .

وقالت لها بصوت به بحة النعاس .

ــ صباح الخير يا ست لواحظ .

ــ خير عليكى يا حبيبتى .. تفضلى .

وجرت سيدة مقعدا وجلست قبالة لواحظ وتساءلت وهى تتلفت حولها :

ــ أين الجماعة ؟

ــ خرجوا .

ــ وتركونا وحدنا ؟

ــ وماذا فى ذلك ؟

ــ والشقة ؟

ــ نغلقها وننصرف .

ــ إلى أين ؟

ــ كل إلى مطرحها .

وبدا الشرود على وجه سيدة .

إلى أين ستذهبين يا سيدة ؟

لا بد أن يكون لك مطرح .. كما قالت المرأة ببساطة .

فحتى هؤلاء اللاتى يتجرن فى الأجساد .. لا بد لهن من مطرح يرحن فيه أجسادهن .

وغير معقول أن تذهبى إلى الست فاطمة لتجد لك المطرح الذى تبيعين فيه جسدك .

سخرية .. وأية سخرية .

ترى ماذا تقول السيدة الطيبة عن طريقك الخاص الذى نويت أن تسلكيه ؟

طريقك الخاص الذى تركت من أجله المأوى الآمن .. وثرت من أجله على اللجام الذى كان يوضع فى فمك .. وانطلقت لتحققى حياتك الخاصة .. وتبنى مستقبلك المزهر .

طريقك الخاص يا سيدة قد أضحى طريقا عاما ..

لا يهمك يا سيدة .. فهذا خير ألف مرة من جحر أم منصور .. العفن المليء بالبغضاء والضغينة ..

ماذا يمكن أن تقول عنك أم منصور ؟..

لتقل ما تقول .. فيوما ما ستجمع ثروة .. وستذلها هى وابنها .. إذا كانت لم تستطع أن تمارس السيادة بحدودها الضيقة .. فستمارس السيادة على أوسع نطاق .

ستصبح سيدة هانم ..

لا .. بل ستلغى اسم سيدة من سجل حياتها .. ستنتقى لها اسما .. ككل هؤلاء السيدات .. نبيلة .. سامية .. ليلى ..

وانطلقت سيدة ترسم معالم المستقبل الوردية .. وجذبتها لواحظ من عليائها وهى تقول :

ــ يالله ياختى بينا .. الوقت تأخر .

تأخر عن ماذا ؟.. ليس لدى سيدة ما تفعله .. ليس الزمان مشكلتها .. ولكن المكان ..

إنها تريد مطرح ..

وهى تحتاج إلى دليل ..

وسألت لواحظ فى تردد :

ــ إلى أين ستذهبين ؟

ــ إلى البيت ..

ــ هل عندك بيت ؟

وأجابت لواحظ فى دهشة .

ــ عندى بيت ؟!! طبعا عندى بيت ..

وصمتت لواحظ برهة وهى ترقب سيدة فى شرودها ثم سألتها :

ـــ وأنت .. إلى أين تذهبين ؟

وهزت سيدة رأسها .

ـــ لا أعرف .

ـــ أليس عندك بيت ؟

ـــ لا .. ليس لى أهل .

ـــ لا أقصد بيت الأهل .. بل بيت الشغل .

ـــ بيت الشغل ؟!!

ـــ أليس لك بيت تعملين فيه ؟

ـــ لا ..

ـــ ألا تعملين مع أحد ؟

ـــ لا ..

ـــ إذن كيف تعملين ؟

ـــ لا أعمل .

وبدا الغضب على وجه لواحظ وقالت لها متبرمة :

ـــ اسمعى يا بت .. أنا لا أحب الملاوعة .

ـــ لست ملاوعة .

ـــ تقولين إنك لا تعملين ؟

ـــ أجل .

ـــ توفيق قال إنك مرقعة .. وإنك طلبت النقود قبل أن ترقدى معه .

ـــ أجل فعلت .

ـــ إذن أنت لست هاوية .

ـــ إنها أول مرة أفعلها .

ـــ ولماذا طلبت النقود سلفا ؟

ـــ لأنى خشيت أن يضحك على .

ـــ إذن أنت تعملين بنقود .

ـــ قلت لك أول مرة أعملها .

ـــ وماذا أوقفك على الرصيف بعد نصف الليل ؟..

ـــ تعاركت مع زوجى وأمه .

ـــ وهل يدفعك هذا إلى الخروج إلى الشارع لتصيد الرجال ؟

ـــ لم أخرج لأتصيد الرجال ..

ـــ خرجت لماذا إذن ؟

ـــ هججت من البيت ـــ بعد أن طلقنى .

ـــ ولماذا طلقك ؟

ـــ لأنى رفضت أن أبقى معه .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لأنه أخذ مصاغى وتزوج على .

ـــ وسهل عليك أن تقفى على الرصيف وتركبى مع أول رجل ؟

وهزت سيدة رأسها وقالت فى يأس :

ـــ بعد أن فعل بى علام ما فعل .. كان سهلا على أن أفعل أى شىء .. رقدتى مع علام لم تكن أفضل من رقدتى مع توفيق .. كان توفيق أشرف .. دفع ثمن ما أخذ .. لم يراوغنى ولم يسرقنى .. ولم يرمنى لأمه تستعبدنى .

وتنهدت لواحظ وقالت :

ـــ الدنيا لا ترحم أحدا .. لكل بلواه ..

وترددت برهة ثم تساءلت :

ـــ ما اسمك ؟.. لم أعرفه حتى الآن ؟

ـــ سيدة .

ـــ وأين كنت تعيشين يا سيدة قبل الزواج ؟

ـــ كنت أعمل فى بيت ناس طيبين .

— وأين أهلك ؟
— ليس لى أهل .
— لا أم ولا أب ؟
— ولا أخ ولا أخت .
— وتريدين الذهاب معى ؟
— هل أستطيع ؟
— لم لا ؟.. جربى حظك .
— وهل أنت مبسوطة ؟
— قلت لك لكل بلواه .. ولكن .. ماشية بالطول أو بالعرض .
— سأذهب معك .. هيا بنا .
— اشربى فنجان شاى .. وكلى لقمة .
وغادرت سيدة البيت مع لواحظ .
تقدمى يا سيدة إلى قدرك ..
ما دمت قد خطوت .. فمن العسير أن تعودى القهقرى .
جربى حظك كما قالت لك المرأة ..
خوضى طريقك يا سيدة .. وعيشى حياتك .. فلعلها لا تكون سجنا جديدا .. تلقى بنفسك فى غياهبه .

(٢٩)

صاحبة مهنة

تقدمت سيدة بإصرار فى طريقها الخاص .. أو العام .. بعد أن خلصت من سجن الزوجية فى المبيضة الذى نشدت فيه السيادة والحرية .. فلم تجد به سوى المذلة والاستعباد .. وبعد أن قررت ألا تعود القهقرى إلى لجام الخدمة مهما رق وحنا .

دهبت سيدة مع لواحظ إلى بيت الشغل لتجرب حظها وحملهما ترام نمرة ٨ من حدائق شبرا .. عبر المحطة إلى شارع كلوت بك ذى البواكى والأعمدة الضخمة وتوقف الترام فى إحدى المحطات فجذبت لواحظ سيدة من رسغها قائلة فى عجلة :

— يالله يا سيدة .

وهبطت سيدة من الترام وراء لواحظ لتواجه السلالم العريضة التى تؤدى إلى أحد أزقة الشارع الطويل . وقد تربعت عليها إحداهن تعرض ساقيها البيضاوين المكتنزتين . وتدعو المارة بالتفضل للمعاينة .

وأحست سيدة لفترة بانقباض ..

إلى أين تذهبين يا سيدة ؟.

تبحثين عن الحرية .. والسيادة .. اللتين عجزت عن الحصول عليهما فى كل ما مر من سنوات عمرك .

تبحثين عنهما .. هنا ؟. وبأى ثمن ؟

لا يهم المكان يا سيدة .. ولا يهم الثمن .

المهم أن تجديهما ..

فأى مكان .. تجدين به حريتك فى التصرف .. وتمارسين فيه قدرتك على
السيادة .. سيكون مكانك المفضل ومقرك المختار .

وأى شيء تدفعينه يا سيدة .. لن يكون كثيرا .. من أجل الحصول على الحرية
والسيادة حتى ولو كان الثمن جسدك يا سيدة ؟!

جسدك ؟!! ولم لا ؟. وأى شيء تملكين سواه .. حتى يكون لك الخيار فى
التعامل ؟

ثم إنك تعاملت به من قبل ..

مرة .. بقرش .. دون أن تدركى .. قيمته الحقيقية .

ومرة .. بعد أن عرفت قيمته الحقيقية .. وأبيت إلا أن تقدريه بقدره .. بعقد
الزواج .. فدفعت به إلى علام فلطشه .. ولطش الصيغة .. ولطش معهما ..
كل أمل فى الحرية والسيادة . وألقى بك إلى أمه تسومك الهوان .

ماذا إذن فى أن تتعاملى به .. من أجل .. أمل جديد .. فى الحرية والسيادة .

ولكن هل ستحصلين عليهما .. هذه المرة حقا يا سيدة ؟

هل تضمنين ؟

وأى ضمان هناك فى هذه الدنيا .. لأى شيء ؟

ليس عليك إلا أن تجربى .

جربى حظك كما قالت لواحظ .. ويا طابت — على رأى المثل — يا اتنين
عور .

تقدمى يا سيدة ..

ماذا وراءك حتى تخشى عليه ؟

ومن وراءك حتى تخشى منه ؟..

ليس لديك يا سيدة سوى هذا الجسد .. فخوضى به المعركة . معركة الحرية
والسيادة . فقد فرضه القدر عليك ..

قوّمك بجاذبيته ..

تعرفك الأبصار به فى الطريق .. برجرجة صدره .. واهتزاز ردفيه ..
فرضت عليك .. جاذبيته .. ولم يعد الناس يرون من قدر لك غيره .

فلماذا لا تتعاملين به ؟..

صاحب ماكينة الطحين .. وصاحب عربة التاكسى . يتعاملان بما
يملكان .. ولو كانت لك ماكينة طحين أو عربة تاكسى .. لتعاملت بهما مع
الناس .

ولكنك يا مسكينة لا تملكين غير هذا الجسد .. وسيلة للتعامل .

وتعالى من جوارها صيحة تهليل وتصفيقة إعجاب :

ـ يا بت يا اللى زى الملبن .

وجاوبه صوت آخر :

ـ أموت فى الكوارع .

ودلفت بها لواحظ من زقاق إلى زقاق .. وأسفل البيوت العتيقة قامت
دكاكين .. قد غطت واجهتها ستائر وجلست أمامها نسوة لا يستر أجسادهن
سوى قميص رقيق شفاف يتبادلن الحديث والنوادر .. وانتشرت المقاهى
والحانات . يتشاغل أصحابها برص المقاعد ورش الأرض وبباب بعضها جلس
بعض الرجال يدخنون الشيشة واستقرت بعض النسوة فى استرخاء يتهدل
شعرهن وتملأ الأصباغ وجوههن .

وملأت أنف سيدة رائحة خليط من العفن والأنفاس والعرق والخمر
والدخان .

ومن جديد عاودها الانقباض .

أهنا تجدين الحرية والسيادة يا سيدة ؟

وكرهت أن تعود مرة أخرى إلى الحلقة التى لا تنتهى .

هنا .. أو فى أى مكان ..

أنت التى ستأخذين الحرية .. وستفرضين السيادة .

فاقدمى يا سيدة ..

وتوقفت لواحظ أمام أحد البيوت . حجرى الجدران يشرف على فسحة عريضة .. أعرض من الزقاق .. ويشغل طابقه السفلى مقهى تنتشر المقاعد فيه بعرض الفسحة حتى تكاد تسد الطريق .

وصعدت لواحظ الدرج . وتبعتها سيدة . وقبل أن تصلا إلى باب الشقة فى الطابق الثانى اعترض طريقهما رجل طويل القامة عريض المنكبين والفكين . يغطى جسده الضخم جلباب بلدى ينبعج أمامه كرشه البارز ويلف رأسه بلاسة بيضاء صفراء النقوش ومن فتحة الجلباب يبدو الصديرى المخطط وقد علقت فيه كتينة ذهب تحمل ساعة الجيب .

وسعل الرجل سعلة اصطناع القوة والرجولة ثم ألقى التحية بطريقة متعالية :

— صباح الخير يا ست لواحظ .

— خير عليك يا معلم أبو زيد .

وأخذ الرجل يحاول إطالة الحديث ليلقى مزيد من النظرات الفاحصة على وجه سيدة وجسدها .

— أين كنت ليلة أمس ؟

وردت لواحظ باقتضاب وهى تحاول أن تفسح الطريق الذى سده الرجل بجسده :

— كان عندى شغل .

— بياتى ؟!!

— أجل ..

وعاد الرجل يتحسس جسد سيدة بعينين نهمتين :

— ومن هذه ؟

وأحست بنظرات الرجل إلى سيدة فردت محاولة أن تنهى الحديث :

— صاحبتى .

— تشرفنا .

ومد يده يحاول أن يصافح سيدة ..

ومدت سيدة إليه يدها . فأبقاها فى يده .. وقال متلطفا :

— أهلا وسهلا .. اسم الكريم ؟..

— سيدة ..

— عاشت الأسامى يا ست سيدة . نورتى المحل .

وسمعت لواحظ صوتا يعلو من داخل الشقة متسائلا :

— من تكلم يا أبو زيد ؟

وصاحت لواحظ فى قلق وهى تدفع أبو زيد من أمامها :

— افسح الطريق يا معلم .. ودع البنت فى حالها .. المعلمة توحيدة ..

وقاطعها أبو زيد فى غير اكتراث :

— مالها المعلمة توحيدة ؟.

— إذا خرجت سترانا .. و ..

— وماذا إذا رأتنا .. نحن لم نكفر .. هل تحية الضيوف ممنوعة ؟

ومرة أخرى تعالى صوت توحيدة من الداخل :

— أبو زيد ..

وصاح أبو زيد فى غيظ :

— ماذا تريدين من أبو زيد يا ولية .. كأن عليك عفريت اسمه أبو زيد ؟

وسمع وقع خطوات زاحفة متثاقلة وما لبث أن بدت المعلمة توحيدة .. كتلة شحم بيضاء . يحد أسفلها خلخال دخل فى طيات لحمها السمين ويحد أعلاها كوم من الشعر المصبوغ بالحنة الحمراء .

لم يكد يقع بصرها على لواحظ حتى انطلق من شفتيها سيل من الأسئلة لا ينتظر جوابا :

— أهى أنت ؟ أين كنت حتى الآن ؟.. ومن التى معك ؟.. وماذا أوقفكما

مع بسلامته ؟.. مالك بيهما يا أبو زيد ؟..

وهبط أبو زيد الدرج وهو يبرطم قائلا :

ــ يا باى .. هو الكلام حرم ؟.. لقد أصبح الإنسان يعيش فى سجن ؟

وصاحت توحيدة ناهرة :

ــ ألا يعجبك السجن يا أبو زيد ؟

وأجاب أبو زيد وهو يندفع هابطا الدرج ليتخذ مكانه المعتاد فى ركن المقهى :

ــ انتهينا ..

واستدارت توحيدة إلى الداخل تتبعها لواحظ وسيدة . وألقت سيدة نظرة خاطفة على المكان .. فوجدت صالة فسيحة تتوسطها كنبة وبضعة مقاعد أسيوطى وفى المواجهة نافذة تطل على منور وضعت على حافتها صينية قلل تناثرت فى قاعها بضع ليمونات وبجوار الصينية وضعت بعض أصص ريحان وعتر ونبتت فى إحداها لبلابة تسلقت حافة النافذة .

وتربعت المعلمة توحيدة على الكنبة وطقطق خشب الكنبة تحت ثقلها ونظرت إلى سيدة نظرة فاحصة وعادت تسأل :

ــ تبقى مين بسلامتها ؟

وردت سيدة ببساطة :

ــ اسمى سيدة .

و لم يعجب الرد المعلمة توحيدة ونظرت إلى لواحظ كأنما هى المعنية بالسؤال :

ــ حكايتها إيه ؟

ــ عايزة تشتغل .

وعادت توحيدة تتفحص جسد سيدة ثم قالت وهى تهز رأسها :

ــ وماله .

ثم وجهت السؤال إلى سيدة :

ــ سبق لك الشغل يا شابة ؟

ــ لا ..

ــ يعنى غشيمة ؟

وأجابت لواحظ :

ــ لا يا معلمة .. دى تعجبك .

ونظرت توحيدة إلى سيدة وأفسحت لها مكانا بجوارها قائلة :

ــ قربى يا شابة .. اقعدى ..

واتخذت سيدة مكانها بجوار توحيدة . ومدت توحيدة كفها تتحسسها .. كأنها بضاعة تتفحصها .. وقالت متباسطة :

ــ احكى لى يا ... قلت لى اسمك إيه ؟

ــ محسوبتك سيدة .

ــ خليكى نرجس أحسن .. والا إيه ..

ــ أمرك يا معلمة .

ــ بتعجبينى .. قولى لى .. إيه بقى حكايتك ؟

وقصت عليها سيدة حكايتها ..

وفى النهاية هزت المرأة السمينة رأسها ومصمصت بشفتيها فى أسف وقالت :

ــ عيشة غلب ..

وتنهدت ثم أردفت تتمتم :

ــ كله محصل بعضه .. المثل بيقول نام على الجنب اللى يريحك .. والواحد يتقلب على الجنب ده مرة .. والجنب ده مرة .. لكن الأرض هى اللى ما بتريحش .. عمر البنى آدم ماحا يستريح فوقها أبدا .. حا يفضل تعبان لغاية ما تلمه جواها .. وبعدين .. أى جنب .. حايريحه .

كلام لا يريح يا سيدة ..

ومع ذلك .. فعليك أن تجربى الجانب الآخر .. فلعله يكون أفضل من الجانب الذى جربته .

واستقرت سيدة على الجانب الجديد .. باسم نرجس .. فى بيت الشغل .. مع زميلات لها : زوبة .. وعليات .. وتحية ورور .. وأخريات — جنس وذهبن ..

ومع الأيام ذهب عنها ما كانت تستشعره من استحياء .. و استغراب واتخذ الأمر طابع العمل البحت .. بكل ما فيه من سيئات وحسنات .

استخرجت ترخيصا رسميا من الحكومة .. كصاحب أى حانوت .. أو مقهى .. أو عربة .. وأصبحت تمارس مهنتها كأى صاحب مهنة .. بكل ما فى المهنة من متاعب التعامل مع الناس .. بما يحملون من متناقضات .. ومساوىء .. وغرائب فى أعماقهم .

ونجحت فى مهنتها .. فقد مارستها بخير ما تملك من مواهب .. بجسدها — الذى حملت عبثه منذ أن نبتت بروزاته وهى بعد طفلة تعدو فى أزقة السيدة بين المدبح والخليج والسد البرانى .

ومع ذلك .. فكثيرا .. ما سألت نفسها وهى ترقد فى إحدى حجرات ست توحيدة .. فى آخر الليل .. على فراش خلا .. من العملاء ..

كيف أصبحت يا سيدة .. بثوب نرجس الذى أحكمته على جسدك .. لتخلعيه .. لكل طالب ؟

أين أنت من الحرية .. والسيادة ؟..

الحرية !! والسيادة ؟..

إنك لم تعودى تملكين من نفسك ومن وقتك .. ما يمكنك حتى من التفكير فيهما ..

طوتك أيامك التى تعدو فى أعقاب لياليك .. ولياليك التى تطويها أيامك .. حتى لم يعد بك ما يهفو إلى الحرية .. أو يتوق إلى السيادة .. حتى ساعات الرقاد التى كنت تملكينها .. فى أشد أيام الاستعباد فى حياتك .. مع أم عباس .. حيث كنت لا تلتقين مع نفسك إلا وأنت على فراشك فى أرض المطبخ .. حتى هذه

الساعات قد حرمت منها ..

ليس عندك ساعات محددة للرقاد ..

ليس لك فراش خاص يا سيدة ..ولا حتى فى مطبخ .. لأن فراشك .. هو مكان عملك .. هو ملتقى زبائنك .. ليس من حقك أن تخلى فيه إلى نفسك .. فقد أضحى مكانا عاما .. من حق الزبائن التعامل معك فيه ، فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ..

وبضاعتك .. جسدك .. نفسك .. لا تستطيعين التصرف فيه بإرادتك أو التحكم فيها حسب رغبتك .

بت وجبة .. لكل من يشتهى ..

من حق الزبائن أن يختاروك ..

وليس من حقك اختيارهم .. أو المفاضلة بينهم .. أو رفض من تعافه نفسك .. وقبول من يروقك ..

لا خيار لك فى الأمر ما دام قد انتقاك ودفع الثمن — فالمسألة معاملة — وعليك أن تسلمى البضاعة .

ومع ذلك فقد سارت الأمور طبيعية .

واعتدت عملك .. كما يعتاد كل إنسان عمله .. بكل ما فيه من مشقة وتسلية ..

وحياتك الجديدة .. على كل ما فيها من غرائب لم تعد مع الأيام غريبة بعد ما عرفت كل ما فيها ومن فيها .

عرفت أن أبو زيد هو رفيق المعلمة توحيدة .. وأن عمله هو الجلوس نهاراً على المقهى أسفل البيت الذى فتحته توحيدة له لكى يصبح معلما .. على أن يمارس عمله الحقيقى ليلا مع المعلمة .

والمعلمة تصرف عليه كل ما يدخل لها .. ولا ترفض له طلبا ما دام لا يلعب بذيله .

فإذا ما لعب .. فعينه لا ترى إلا النور ..

وأبو زيد عينه فارغة ورأسه فارغة .. أو كما تقول تحية ورور .. إنه بقدر م
أعطاه الله فى جسده .. أخذ من رأسه ..

ومن أجل هذا تعودت المعلمة ضبطه بين آونة وأخرى متلبسا بعمليات قفش
أو تحسيس .. أو محاولات التهام لنسوة البيت ولا سيما الجديدات منهن .

ولقد كان أول ما قدمت لواحظ لسيدة من تحذيرات هو :

— خدى بالك يا سيدة .. قصدى يا نرجس .. من المنيل على عينه أبو زيد .
أصله راجل عينه فارغة .. ويهبش .. والمعلمة ممكن تسامح فى أى شىء .. إلا
أبو زيد .. يعنى تسمسرى فى الفلوس .. ممكن .. تاخدى موعد من زبو
بره .. ولا تعطيها العمولة ممكن .. لكن أبو زيد لأ ..

ولقد حاول أبو زيد معها مراراً .

قفشها من صدرها مرة وهى فى السلم .. واحتضنها مرة أخرى وهى
الصالة .. ودفعته بعنف وفرت منه فى جزع قائلة :

— حل عنى يا معلم .. بلا مصايب .. إحنا مش حمل المعلمة .

ورد عليها أبو زيد فى غيظ :

— ومن سيعرف المعلمة ؟.

ثم يتركها ساخطا ليهبط إلى مقره فى المقهى .. يدخن الشيشة ويلع
الطاولة .

وعرفت سيدة المعلمة توحيدة .. بكل ما فيها من متناقضات المرأة .. سر
الغضب وطيبة القلب .. والغباء والمكر .. والحنان والكراهية .

وعرفت سيدة الكثير من الزبائن .. تلاميذ وجنودا وموظفين وتجارا .. عز
ومتزوجين ..

والتقت ضمن من التقت .. بعباس .. ابن أم عباس .

سمعت على الباب خبطا فقامت لتفتح ووجدت أمامها عباس برأسه الص

وشعره الأكرت وشارب رقيق على بروز شفته العليا .

وفغر عباس فاه من الدهشة وهو يصيح :

— من ؟.. سيدة !..

وهتفت سيدة صائحة :

— عباس !!

— مش معقول .. ماذا تفعلين هنا ؟

ونظرت إليه سيدة وأجابت فى تحد متسائلة :

— وماذا يعملون هنا يا سى عباس ؟

وهتف عباس ضاحكا وقال فى حماس :

— حلو .. درت يا سيدة كما حلا لك .. ثم استقررت أخيرا فى موضعك الحقيقى .

وصمت برهة وهو يحدق فيها وأردف قائلا :

— كنت أعرف .. أن المقام لا بد أن يستقر بك هنا .. أجل يا سيدة هنا مكانك — حرام أن تضيعى حياتك سدى .

وتنهدت سيدة ثم قالت له فى هدوء :

— وبعدين .. ماذا تريد الآن ؟

— ألن تدخلينى ؟

— لماذا ؟

— لأفعل ما يفعله الناس .

— هل معك نقود ؟

— معى بونات .

— من أين حصلت عليها ؟

— اشتريتها بفلوسى .. افتحى يا سيدة وبلاش لماضة .

وأفسحت له سيدة الطريق فدخل وهو يقول :

ــ ماذا تظنينني ؟.. هفيه ؟.. أنا لا تملأ عيني المعلمة بحالها .
ــ إذن انتظر حتى تأتى المعلمة .
ــ ليس لدى وقت للانتظار .. تعالى بنا .
ــ أين البون ؟

ووضع عباس يده فى جيبه وأخرج دفترا صغيرا لوح لها به . وكانت سيدة تعرف أن المعلمة توحيدة قد طبعت دفاتر بها بونات مخفضة للزبائن المستديمين .. ولكنها لم تكن تعرف أن عباس من هؤلاء الزبائن المستديمين وإن أدركت من طريقة إقباله على المكان أنه ليس غريبا عنه .. ولا سيما عندما أقبلت تحية وررور لتهتف به :

ــ ينيلك يا عبس .. أين كنت خلال هذه الغيبة الطويلة ؟

ورد عليهما عباس فى صداقة وبغير كلفة :

ــ الدنيا تلاهى يا توحة .

وردت تحية وهى تغمز بعينها :

ــ ماحنا كان من تلاهى الدنيا يا عبس ..!

ورأته يقبل على سيدة فتساءلت :

ــ أنت تعرف نرجس ؟
ــ نرجس من ؟

وأشارت تحية إلى سيدة وأردفت قائلة :

ــ أمال يعنى داخل حدف عليها ليه ، ومن غير لا إحم ولا دستور ؟

وتساءل عباس فى دهشة :

ــ قصدك سيدة ؟.
ــ هو أنت عارفها من أيام ما كانت سيدة .. يبقى ما نعطلكش .. عن إذنك .

واختفت تحية ونظر عباس إلى سيدة متسائلا :

ــ وكان بقيتى نرجس ؟
ــ وليه لأ .

وهز عباس رأسه وقال ساخرا :

ــ والله اتنجرنا يا سيدة .. الله يرحم عشة الفراخ .

وتنهدت سيدة فى صبر نافد وقالت :

ــ اسمع يا عباس . لا داعى للكلام الذى ليس له لزوم ..
ــ أغضبت يا سيدة ؟.. قصدى يا نرجس .
ــ ولماذا أغضب ؟
ــ حقك على .. طول عمرنا اصحاب .. هل تذكرين آخر لقاء لنا على باب حارة السيدة ؟
ــ عندما كنت أشترى الزبادى ؟
ــ بالضبط .. لم تنسى يا سيدة ..

واقترب عباس منها ووضع يده على ساقيها فلم تحرك ساكنا وعاد يتساءل .

ــ لم تقولى لى .. ماذا قذف بك إلى هنا ؟
ــ هم الدنيا .
ــ كيف ؟
ــ حكاية طويلة ..
ــ إحكى لى .
ــ ليس هذا وقته .. وانت ما هى أخباركم ؟.. كيف حال خالتى أم عباس ؟

وبمنتهى البساطة رد عباس .

ــ تعيشى أنت .

وأخذت سيدة بقوله وضربت على صدرها وهتفت قائلة :

ــ خالتى أم عباس ماتت ؟
ــ منذ سنتين .

— الله يرحمها ويحسن إليها ..

أم عباس .. بكل ما فيها من قوة وعنف وقسوة وجلد . قد انتهت هي الأخرى إلى لا شيء .. راحت كما راح أبوها .. وسي محمد ..

أيا كانوا .. وكان خلقهم وقدرتهم . ومهما كدوا ومهما جنوا فمآلهم إلى لا شيء ..

وكل شيء .. حولك .. بما فيه أنت مآله إلى لا شيء !

ومع ذلك عليك أن تخوضى غمار الحياة .. وتحصدى شوكا لم تزرعيه .. وتواصلى الحصاد .. بإصرار .. ويدمى الشوك يديك وقدميك وتـواصلين الحصاد .. وكأنك تسعين إلى شيء .. مآله فى النهاية إلى لا شيء .

ماتت أم عباس ..

وكم تمنيت لها الموت .. فى ساعات العذاب الذى سامتك إياه .. كانت توقظك برفصة من قدمها فى ظهرك .. أو جذبة من يدها لضفائرك .. وكان النوم لذيذا وقتذاك يا سيدة .. كان نعمة تتمنيها وما زال حتى الآن .. إن النوم والراحة والاسترخاء .. دون أن تفعلى أى شيء .. متعة ما بعدها متعة ..

كم تصورت لأم عباس شتى أنواع الموت .. تصورتها مرة وهى تهوى من فوق السطح .. ومرة تضيع تحت عجلات الترام .. وأحسست براحة كبرى وأنت تقتصين لنفسك منها بالوهم .. ومع ذلك كنت تخشين ألا ينفع فيها سقوط من السطوح ولا دهس بالترام ..

ومع ذلك .. انقبض صدرك عندما أخبرك عباس أنها ماتت ..

ألأن الزمن قد مسح سيئاتها من ذهنك .. ومحا ما كان من حقد عليها فى قلبك ؟

أم لأن أمنية الموت لا تعدو أن تكون أمنية .. نفرج بها عن بغضائنا .. دون أن نجرؤ على قبول تحقيقها بالفعل ؟

رحم الله أم عباس .. لقد أذنبت فى حق سيدة .. ولكنها لا تملك سوى

الترحم عليها ..

ورد عباس مرددا قول سيدة :

— الله يرحمها .. ذهبت وتركتنى .. لايص .. فى الحياة ..

وردت سيدة متسائلة :

— كيف .. وأين أبوك ؟

— أنت تعرفين أبى وسخافته .. يريدنى أن أعمل .. ويأبى أن يعطينى مليما واحدا .. بلا عمل ..

— ولماذا لا تعمل ؟.

— أعمل ماذا ؟

— تعمل ما يريد .

— يريدنى أن أجلس فى المطبعة من طلعة الشمس إلى المساء .

— ولماذا لا تفعل ؟

— ولماذا أفعل ؟.

— لكى تحصل على النقود ..

— ولماذا ..

— لأجل أن تحيا .

— ولكن لن يكون هناك وقت للحياة .. سأذهب إلى البيت متعبا .. لأنام ولكى أستيقظ مبكرا .. وتصبح النقود التى آخذها بعد ذلك لا قيمة لها ..

— أليس لديك وقت للراحة ؟

— أبى يعمل ليل نهار .. إنه يحب المطبعة أكثر من أى شيء .

— ولماذا لا تفعل مثله ؟

— لأنى .. لأنى لا أحب المطبعة ..

— هذه هى مصيبتك يا عباس .. قال لك أبوك مرة .. يجب أن يحب الإنسان عمله .. لا يكفى لكى ينجح أن يعمله .. بل يجب أن يحبه ..

ونظر إليها عباس متأملا وقال :

ـــ وهل تحبين أنت عملك يا سيدة ؟

ـــ أحاول ..

ـــ وهل نجحت ؟

وهزت سيدة رأسها بالنفى وقال عباس متسائلا :

ـــ ولماذا ؟

ـــ لأنه لا يحب ..

ـــ كيف ؟

وصمتت سيدة برهة وبدت عليها الحيرة وهى تحاول أن تبحث عن الإجابة .

لماذا لم تستطيعى أن تحبى عملك يا سيدة ..

ألم توهمى نفسك .. أن هذا الجسد يمكن أن تتعاملى به كشىء منفصل عنك كماكينة الضحين أو عربة الأجرة ؟.. ولكنه يا سيدة ليس كذلك ..

إنه شىء أعز .. شىء يستحق معاملة أفضل ..

لا يمكن أن تعتادى مهانته ..

أو تحبى مهنة عرضه ..

إنه يحتاج إلى تكريم .. وتدليل .. وإعزاز ..

من أجل هذا لا تستطيعين أن تحبى عملك ..

تقبلينه للحاجة .. أجل .. ولكن تحبينه .. لا ..

لشد ما خذلتك التجربة .. فى الحصول على الحرية .. والسيادة .. ما أبعد التجربة .. عنهما ..

إنها تستطيع أن تحقق لك أشياء كثيرة إلا الحرية والسيادة ..

ومع ذلك .. لا تملكين سوى الصبر ..

فلم يعد أمامك إلا مواصلة التجربة .. وهى بعد تمنحك النقود وتستطيعين أن تجمعى القرش فوق القرش .. لتصبحى مرة أخرى صاحبة ثروة .. وهذه

المرة .. ثروتك أكبر .. ولن يستطيع أحد بعد تجربة عــلام .. أن يخدعك ويلطشها منك ..

ومد عباس يده يجذبها من ذراعها وهو يعيد تساؤله :

ـــ لم تقولى لماذا لا تحبين عملك ؟

ـــ لأنه لا يحب .. وكفى ..

ـــ بل لأنه ليس لك رجل ..

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ كل امرأة يجب أن يكون لها رجلها .

ـــ لقد خضت تجربة زواج .. لا أريد أن أكررها .

ـــ لا أقصد زواجا .

ـــ ماذا تقصد إذن ؟..

ـــ تقصد أصرف عليه كما تصرف توحيدة على أبو زيد ؟

ـــ ليكن .. ماذا فى ذلك ؟

ـــ يفتح الله .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى لست كتوحيدة ـــ توحيدة معلمة ـــ وأنا يادوبك مستجدة فى الكار ..

ـــ ولكنى سأنفعك :

ونظرت إليه سيدة فى سخرية وتساءلت :

ـــ أنت ؟

ـــ ألا أعجبك ؟.

وردت سيدة ضاحكة وهى مستمرة فى سخريتها :

ـــ مكانش يتعز .. يا عبس .

ـــ طول عمرك .. ليس لك فى الطيب نصيب .. هيا بنا ..

وسحبها إلى داخل الحجرة
ومدت سيدة يدها قائلة :
ـــ إيدك ..
ـــ على ماذا ؟
ـــ على البون ..
ـــ بعدين .
ـــ لا يا عبس .. ليس هناك بعدين .. الدفع مقدما .
ومد عباس يده إلى جيبه فأخرج الدفتر وقطع منه ورقة وسلمها إليها ودخل الاثنان الحجرة .

(٣٠)

عملية تزوير

فى آخر الليل .. وبقايا رواد الحى يتمايلون فى الطريق .. وصيحاتهم المخمورة تختلط بغنائهم وسبابهم . وأبو زيد يصعد الدرج لا تكاد أقدامه تقوى على حمل جسده الضخم .

والمعلمة توحيدة تجلس متربعة على الأريكة وقد بدت الحنة فى قدميها وغرس الخلخال الفضى فى طيات الشحم المكدسة فى ساقيها .. وأمامها اصطفت صبياتها يقدمن إليها حساب اليوم .

وانتهت لواحظ وجمالات وتحية ورور . وجاء الدور على سيدة .

وصاحت بها توحيدة :

ـــ وانت يا روح أمك ؟

وأحست سيدة بلهجة الخصومة فى سؤال توحيدة . ولم تستغربها . فقد كان الغبى أبو زيد مصرا على أن ينالها .. على حد قوله « بالذوق أو بالعافية » .. ولم يكن يحول بينه وبين أسلوب العافية .. سوى خوفه من توحيدة .. ولكنه لم يكن يترك فرصة تفلت دون أن « يقط » منها « قطة » .. تحسيسة .. أو قرصة .. أو قبلة ..

ولم يخف الأمر على توحيدة ..

وشى به إليها .. زميلات سيدة .. اللاتى لم يعجبهن .. أن بنت مفعوصة كسيدة .. تبذهن فى عملهن الذى مارسنه منذ سنوات .. وخبرنه وبرعن فيه .. ومع ذلك ما فتئت منذ أن حلت بالبيت تلطش الزبون إثر الزبون .. حتى أبو زيد .. المفروض أنه راسى ومتودك .. قد أدارت رأسه .. وسال لعابه عليها .

و لم يكن بها فى نظرهن ما يميزها .. ومع ذلك كان لها بخت ..

وعلقت لواحظ على نجاح سيدة بقولها فى شيء من السخرية :

ـــ والله وفلحت يا سيدة .. يوه .. قصدى يا نرجس .. ما تآخذنيش يا اختى .. فلست أنسى يوم التقطناك من على باب حارة الميضة ..

وأدارت رأسها متمتمة :

ـــ ناس لها بخت .

و لم تكن سيدة نفسها تحس بهذا البخت ..

على النقيض .. كان عبئا يثقل كاهلها .. وينقض ظهرها .. ويسلبها بقايا ما يمكن أن تمنحها إياها لحظات الفراغ التى تسترقها من أيامها ولياليها .. من حرية الاسترخاء والتفكير والشرود .

و لم تكن تحس بمدى ما تحصل عليه من نصيبها فى العمل .. وما تجمعه من قروش فوق قروش .. فقد كانت لهفتها على أن تجد نفسها وحريتها وسيادتها على وقتها وإرادتها ... أشد من لهفتها على هذه القروش التى تتجمع فى درجها يوما بعد يوم ..

ولكن زميلاتها .. كن يحسدنها على القروش .. وعلى الزبائن الذين أخذت منهم القروش .. فقد كن يشعرن .. أنها سلبتهم منهن .. وأنهن أولى منها بكل ما يملكن من دراية وخبرة وتجربة .

وهكذا التقى حسد الزميلات لسيدة .. بخوف توحيدة وقلقها منها ..

و لم تكن سيدة تعرف كيف تتجنب خصومتهن أو تتقيها .

لم يكن لها يد فى إقبال الزبائن عليها .. ولا كان لها ذنب فى لهفة أبو زيد عليها .

وردت على توحيدة تحاول أن تسترضيها وهى تمد يدها بحفنة نقود .

ـــ ثمانية يا معلمة .

وراحت توحيدة تعد النقود ثم هتفت متسائلة فى ضيق :

ـــ هذه خمسة فقط ؟

ـــ أجل .. وثلاثة بونات .

ـــ ممن ؟

ـــ من الشاويش جاد وفرج افندى وعباس .

ـــ عباس من ؟

ـــ عباس ابن المعلم برعى .

ـــ الولد الصائع ؟

ـــ أبوه صاحب مطبعة .

ـــ أتعرفينه ؟

ـــ أجل .. كنا جيرانا فى السيدة .

وتناولت توحيدة البونات الثلاثة وأخذت تتفحصها وقد بدا عليها القلق والحيرة واسترسلت تقول :

ـــ الشاويش جاد أخذ دفتر منذ أسبوع .. و لم يحضر سوى مرتين .. مفهوم .. وفرج افندى اشترى دفترين أول أمس .. برضه مفهوم .. ولكن الولد عباس .. واخد دفتر منذ ستة شهور .. وبدا لى أنه استهلكه فى أسبوع .. واختفى بعد ذلك .. مدة طويلة .. وهو يعود اليوم .. ومعه بون ؟

وردت تحية ورور مفسرة :

ـــ ربما كان قد تبقى معه منذ أن أخذ الدفتر .

والتفتت لواحظ إلى سيدة متسائلة :

ـــ هل كان معه بونات أخرى ؟

وردت سيدة :

ـــ لا أدرى .

وتساءلت لواحظ :

ـــ أ لم يشتر دفترا آخر بعد ذلك ؟

وردت توحيدة :

— لم أر له وجها منذ بضعة أشهر .

ثم هزت رأسها فى حيرة وأردفت محاولة أن تريح ذهنها :

— جائز .. معه بقايا الدفتر القديم ..

وانتهت المناقشة .. وأوت كل إلى مضجعها .. وضوء الفجر يتسلل من نافذة المنور .

وبعد أيام عاد عباس .. واستمتع بالرقدة .. وقدم البون .. وبعد أيـام أخرى .. عاد ثانية ..

وفى هذه المرة أمسكت به توحيدة وصاحت به وهى تمسك بالبون :

— اسمع يا عباس .

— نعم ؟

— من أين لك هذه البونات ؟

— اشتريتها .

— من أين ؟

وضحك عباس فى سخرية وأجاب قائلا :

— يعنى حا اشتريها من أين ؟.. من الدرلى ؟.. والا من المواساة ؟.. بونات باسم المعلمة توحيدة .. اشتريها من أين .. إلا من المعلمة توحيدة .. على سن ورمح ؟

— تكلم عدل يا عباس.. أنا عارفاك.. وعارفة وحايدك؟.. من أين هذه البونات؟

— قلت لك اشتريتها .

— ولكنى لا أذكر أنى بعتك إلا دفترا منذ ستة شهور .

— ليكن .. اشتريته منذ ستة شهور .. ماذا فى ذلك ؟

— ولكنك حضرت بما فيه الكفاية .

— كفاية أو غير كفاية .. أستحاسبيننى ؟.. بينى وبينك البونات .. ما دمت أقدم لك البون .. فليس لك عندى شىء .

وعادت توحيدة تهز رأسها فى حيرة ثم استقرت على نتيجة بدت لها أنها مرضية وقالت لعباس :

— لابد أن تكون قد سرقتها .

— وهبى أننى قد سرقتها ؟

— سرقتها ممن ؟

— ماذا يعنيك أنت ؟.. أليس المهم أنك قد قبضت ثمنها ؟

— المهم ألا تكون قد سرقتها من هنا .

وبدت على وجه عباس علامات الغضب لكرامته المهانة وصاح مهددا :

— عيب يا معلمة .. عيب .. نحن ناس عندنا شرف .

— شى الله .. يا سى شرف ؟

وانتهت المناقشة .. بعد أن اقتنعت توحيدة أن الولد عباس الصايع لا بد أن يكون لطش دفترا من أحد الزبائن الكروديات .

ولكن الأيام مرت .. بمزيد من القلق والحيرة ..

زاد الزبائن فى بيت توحيدة ..

ولكن النقدية لم تزد ..

بل زادت البونات ..

ونظرت توحيدة إلى صبياتها فى آخر الليل وهن يسلمن إليها مع النقدية حفنة من البونات .. وقالت فى غيظ :

— أهذا معقول ؟..

وأخذت تفرز البونات واحدا بعد واحد وهى تتمتم :

— أهذه بوناتنا ؟

وتعالى صوت أبو زيد يصيح فى سخرية :

— لأ .. بونات مزورة .

وعاد يصيح فى سخرية :

— أصلك توحيدة الأصلى ..

وصاحت به توحيدة ناهرة :

— اتنيل ..

وانطلق ذهنها يفكر .

أمعقول أن يكون أحد قد زور كل هذه البونات ؟

وعادت تنظر إليها .. وتفحصها .

كيف ؟.. ولماذا ؟.. وأين ؟

وفجأة تذكرت كلمة قالتها لها سيدة .. فسألتها بحدة :

— هل قلت إن الولد عباس لديهم مطبعة ؟

وببساطة ردت سيدة :

— أجل .

وصاحت توحيدة وهى تمسك بكتف سيدة فى عنف :

— هو .. الضلالى ابن الضلالى .. هو الذى زور البونات فى مطبعتهم . ليس هناك غيره .. سأبلغ النيابة حالا .. سأخرب بيته وبيت أبيه .

وخلصت سيدة كتفها من قبضة توحيدة وهى تقول :

— غير معقول ..

وردت توحيدة صارخة :

— معقول ونصف .. أنا أعرفه النصاب ابن النصاب .

وصاح أبو زيد :

— ياولية اهدى .. اعقلى .. أية بونات تلك التى سيزورونها ؟.. هل تظنين أن بوناتك تستحق التزوير ؟.

— يمين الله العظيم .. زورها الولد عباس .. أنا لم أبع كل هذه البونات ..

وصاحت تسأل تحية وورور :

— من الذى أعطاك هذه البونات ؟

— لا أذكر ..

— تذكرى .

— ناس لا أعرفهم .

واستدارت إلى لواحظ :

— وأنت ؟

— أبو سريع .. والمعلم رضا .. ورجل لا أعرفه .

وضربت توحيدة كفا بكف وصاحت :

-النصاب ابن النصاب .. لا يكفيه أن يستعملها لنفسه .. بل يتجر فيها .. يأخذ كدنا وعرقنا .. والله لأقتله .

وعاد أبو زيد يصيح محاولا تهدئتها :

— يا ولية اخشعى .. هو معقول ؟..

وقاطعته توحيدة صارخة :

— اسكت انت .. لاحسن والنبى .. واللى نبى النبى ..

وهتف أبو زيد قائلا :

— سكتنا .. خلاص .. قومى بلغى النيابة .

ولم تجب توحيدة .. وساد الصمت برهة ثم أطلقت تنهيدة قائلة :

— معلهش .. الصباح رباح ..

وفى اليوم التالى .. قدم عباس .. خالى الذهن عن كل ما حدث ..

كان يوم جمعة .. والحى قد اكتظ بالجنود .. الذين خرجوا منهم فى فسحة أو تصريح ٢٤ ساعة .. والذى زاغ من ثكناته .. وانطلقوا يملأون المقاهى والبارات وحجرات البيوت .. ووراءهم .. دوريات البوليس الحربى .. تمسك الهاربين من الثكنات بلا تصاريح .. أو الذين يثيرون الشغب .

وعبر عباس المقهى .. بكل ما حواه من ضجيج وصياح .. ولمح أبو زيد يجلس فى ركنه المعتاد .. وأمامه صبى المقهى يروح ويغدو كالمكوك حاملا

الطلبات .. وألقى عباس التحية من بعيد على أبو زيد .

واستقبل أبو زيد التحية بقهقهة عالية وهو يصيح الأغنية الشهيرة :

« آنست يا نور العيون .. آنست » .

و لم يعرف عباس ماذا يعنى أبو زيد بقوله .. ولا أدرك سر التحية الحارة التى لقيه بها .. ولا استطاع أن يفهمها إلا على أنها نوع من إعجاب الرجل به .. وأدرك أن نسوة البيت لا بد قد حدثنه حديث تقدير عنه وعن كفاءته .. واستخفه الطرب .. وأصابه نوع من الحماس جعله يقفز السلم ..

صارت لك سمعة يا عباس .

أبو زيد نفسه أبدى إعجابه بك .. وحياك فى حماس وقال لك « آنست » .

وأبو زيد رجل يعرف أقدار الناس .

وعن قريب يتحدث عنك الحى .. وتصبح لك رفيقة .. تمنحك نقودها .. وتجعلك سيد زمانك .

ليست سيدة بالطبع .. فسمعتك ومكانتك قد تجاوزت سيدة وأكبر من سيدة .

قد تكون المعلمة توحيدة نفسها . و لم لا ؟..

لا بد أن تكون سمعتك قد وصلت إليها ..

فالذى أبلغ أبو زيد قدرتك لا بد أن يكون قد أبلغها ..

بل .. من يدرى .. ربما يكون الرجل الدهل .. نفسه .. قد أبلغ وهو لا يدرى أنه يدفع إليها بمنافس .. قد يطيره من فوق عرشه .

وانتفخت أوداج عباس .. وهو يتصور نفسه .. مكان أبو زيد .. جالسا على مقعده المختار بالمقهى .. لا عمل له إلا تدخين الجوزة وشرب الشاى .. والتريقة على عباد الله .. وهو جالس مرهوب الجانب .

ولكن هل يستطيع أن يملأ مكان أبو زيد ؟.. بضخامة جسده .. وغلظ عنقه .. وهو يبدو بجواره كالجرادة .

المسألة ليست مسألة حجم يا عبس .

ليست جسدا ضخما .. وعنقا غليظا .. وكرشا منتفخا .

بل مسألة جرأة .. وفهلوة ..

وعباس .. سيد من يقدر عليها .

ادخل يا عباس .. وانفخ صدرك .. واوزن خطواتك .

ودخل عباس ..

عبر الباب .. ليجد توحيدة فى مواجهته .. متربعة على الأريكة .

ونظرت إليه توحيدة ورفعت حاجبيها .. وهتفت من أعماقها :

ــ جيت يا عباس .

حلو !!..

إن المرأة تنتظر يا عباس ..

توحيدة نفسها .. وليست البنت سيدة .. ولا لواحظ .. ولا تحية وورور .

إذن فلا بد أنها عرفت ..

فرجت يا عباس ..

حلال عليك .. أملك .. داعيالك ..

خش على توحيدة ..

عاملها كالمعلمين .. لا كالزبائن ..

وتقدم عباس يتمايل فى ثقل .. وقال متحدثا من أنفه :

ــ صباح الخير .. يا مرة .

وفجأة وعلى غير توقع .. وثبت توحيدة بقدر ما يسمح لها جسدها من فوق الأريكة .. ثم هجمت على عباس وهبشته من خناقه .. وهى تصيح :

ــ مرة .. يا جعر يا ابن الجعر يا ضلالى يا ابن الضلالى .

الله !!.. ما هذا ؟! ماذا حدث ؟!!

لماذا تهجم المرأة عليه وتطبق على رقبته ؟

وعادت المرأة تصيح :

ــ طلع البونات .. يا نصاب .. يا ابن النصاب .. طلع ..

البونات ؟!!

وقعت يا عباس ..

كان يجب ألا تعود .. بعد آخر مرة ..

بعد أن شكت فى البونات .. ولعب الفار فى عبها ..

وتذكر عباس كيف أقدم على طبع البونات فى المطبعة .

بعد أن ضيق أبوه الخناق عليه بعد وفاة أمه .. وأقسم ألا يعطيه نقودا إلا إذا عمل .. ومرت أيام وجيب عباس خال .. والأزمة مستحكمة . وذات يوم عثر فى جيب بنطلونه على أحد بونات توحيدة ..

فرجت يا عباس ..

ولكن أى فرج هذا .. ستذهب مرة .. ثم تعود إلى سابق فقرك .

ونظر إلى البون . وخطرت له فكرة ..

لماذا لا يطبع مثله فى المطبعة ؟..

ليس أسهل من عمل أكلشيه من البون الأصلى وتهون المسألة بعد ذلك ..

وفى غفلة من أبيه .. بعد أن يصعد إلى البيت .. يتفق مع عبده حارس المطبعة .. وهو لا يعرف القراءة والكتابة .. ويخبره أنها ورقة حجاب .. تدفع الحسد . ويطبع منها ما يشاء .

وفى يوم جمعة ذهب أبوه إلى الحسين .. وخلت المطبعة إلا منه ومن عبده ..

وكان قد اتفق معه على إعداد الأكلشيه ضمن عشرات الأكلشيهات التى تذهب إلى الزنكوغراف .. ووعده أن يمنحه واحدا على ألا يخبر به أحدا حتى لا يضيع مفعوله فى صد الحسد ومنع العين ..

وهكذا حصل عباس على عشرات البونات ..

ولم تعد لديه بعد ذلك مشكلة ..

فتح أمامه بيت توحيدة على مصراعيه .. دون حاجة إلى أبيه .. ولا إلى العمل .

بل من يدرى .. ربما .. استطاع مع الوقت .. أنو يستقر هناك .. كأحد البلطجية المشاهير .. مع إحدى المعلمات ..

واحتاج ذات مرة إلى نقود .. فبدأ يبيع البونات لمعارفه وأصدقائه بنصف الثمن .

ولم يكن يخطر بباله أن المسألة يمكن أن تكشف .. فالبونات متقنة التزوير وليس من المعقول أن يشى أحد الذين باعهم البونات به .. فيفضح نفسه .. واليوم .. وقد توهم أنه بلغ منتهى أمله .. يبدو أن المسألة قد كشفت .. وأنه ذاهب فى داهية .

من أجل هذا قال له أبو زيد آنست يا نور العيون ..

كان الرجل يعرف ولا شك ..

وعادت توحيدة تصيح به :

ــ أين البونات .. قل يا صايع يا ابن الصايع .

وحاول عباس المقاومة .. فافتعل الغضب وصاح وهو يحاول الخلاص من يدها :

ــ أى بونات يا معلمة ؟..

ــ البونات التى زورتها .. يا حرامى يا ضايع .

ــ عيب يا معلمة .. عيب .

ــ أبدا .. لن أتركك إلا فى البوليس .

وأحس عباس أن المرأة مصرة على قولها وأنها مقتنعة تماما بما ارتكبه . وليس أمامه من وسيلة غير أن يتخلص منها ويسلم ساقيه للريح .

وقال فى لهجة مستسلمة :

ــ إذن دعى رقبتى .. سأعطيك ما لدى من بونات .. ولتفعل ما تشائين .

وكان النسوة والزبائن قد تزاحموا حوله بعد أن أثارتهم الضجة والصراخ .

وقالت توحيدة وهى تزيد من قبضتها على خناقه :

— أبدا لن أتركك إلا فى البوليس .

وتصور عباس ذهابه إلى البوليس .. ثم انتقال البوليس إلى المطبعة والقبض على أبيه بتهمة تزوير بونات للدعارة فى بيت توحيدة بوجه البركة ..

يا نهار اسود .. ماذا يقول أبوه .. الذى لا يترك فرضا إلا وأداه فى وقته ؟..

ماذا يقول الناس عنه وهو عائد من الذكر طول الليل فى جامع الماوردى عندما يرونه مقيدا بالحديد مجرورا إلى قسم البوليس .. لأنه زور فى بونات دعارة ؟..

ليس فقط للاستعمال الشخصى ..

بل أيضا للاتجار فيها .. ومنافسة الست توحيدة فى رزقها ..

يا وقعتك السودة يا عباس .

ماذا يقول أبوك عنك .. وماذا يقول الناس عن أبيك ؟.

وفجأة دفع المرأة فى صدرها بكل ما يملك من قوة .

واختل توازن المرأة وهوت على ظهرها .. ولكن يديها لم تفلتا عنق عباس . بل ظلتا مطبقتين عليه فى استماتة . ووجد نفسه يهوى فوقها ..

وعلا صوت توحيدة .. وصراخ البنات .. وضجيج الرجال ..

وصاحت توحيدة وهى ما زالت تطبق على عنق عباس ..

— يا شاويش .. يا بوليس .

وسمع الصراخ فى الطريق .. فاندفع الناس إلى السلم .. واندفع أبو زيد يشق طريقه وسط الناس .

ووصل أبو زيد إلى الميدان .. وكانت توحيدة قد نهضت من وقعتها .. ووقفت وسط الصالة ممسكة بخناق عباس وهى مستمرة فى الصراخ :

— يا شاويش .. النصاب ابن النصاب .. يزور البونات ويتاجر بها .

وأقبل أبو زيد على توحيدة يحاول تهدئتها :

— اهدى يا معلمة .. اهدى .. أنا سأتولى أمره ..

— أبداً .. البوليس .

— ماذا سيفعل به البوليس ..

— يسجنه ..

وكان فرج افندى صبى المحامى قد أقبل من الداخل .. بعد أن سمع الصراخ وعرف الموضوع فصاح مؤيداً توحيدة :

— أجل يسجنه .. بتهمة التزوير .. تزوير فى أوراق رسمية .

وصاح به أبو زيد :

— رسمية إيه .. الله يخرب بيتك .. دى بونات دعارة .

— وماله .. برضه تعتبر أوراق رسمية .. إنها بمثابة صك .. أو إيصال .. تمثل حقا قبل الغير ..

وعادت توحيدة تصيح :

— البوليس .. لن أتركه إلا فى البوليس .

وقال أبو زيد محاولا التهدئة :

— يا ست توحيدة .. اتركيه لى .. أنا سأرقعه لك علقة .. يحلم بها طول حياته ..

يا نهار أسود .. ومهيب يا عباس .

هذا الرجل أبو زيد .. يحاول أن يخلصك من البوليس بعلقة تحلم بها طول حياتك ..

وعليك المقارنة يا عبس .

بين فضيحة أبيك .. فى الحى ..

وعلقة أبو زيد .. التى ستظل تحلم بها طول حياتك ..!

وكلا الأمرين .. أحلاهما مر .. يا عبس .

و لم يبد على توحيدة أنها قبلت أن تعوض عن البوليس .. بالعلقة التى عرضها

أبو زيد وعادت تصيح :

ـــ أبدا .. البوليس .. لازم أبيته فى التخشيبة النصاب ابن النصاب .

واستطاع الضجيج والصراخ .. والزحام خارج البيت أن يستجلب أحد رجال الشرطة .. وبدا فى السلم رجل طويل القامة مبروم الشوارب .. وهو يحاول إفساح الطريق قائلا :

ـــ وسع منك له .. خلونا نشوف عملنا ..

ووصل الرجل إلى الصالة ..

وكانت توحيدة بجسدها السمين شبه العارى .. هى أول ما لفت النظر فأقبل عليها وهو يكاد يلتصق بها قائلا فى صرامة :

ـــ فى إيه يا حرمة ؟

ـــ النصاب ابن النصاب .. زور البونات ..

ـــ أى بونات ؟

ـــ بونات المعاملة ..

ـــ المعاملة هنا بيونات !؟

ـــ أجل .. للزبائن المستديمين .. يشترون دفاتر بونات بخصم .. سأريك إياها .. يا شاويش .

ثم التفتت حولها صائحة :

ـــ بت يا لواحظ .. بت يا تحية .. هاتوا بونين فرجوهم للشاويش .

وفى لمح البصر .. أقبلت تحية بأحد البونات وسلمته للعسكرى وأمسك العسكرى بالبون يفحصه قائلا :

ـــ هذا البون للمعاملة ؟.

وردت توحيدة :

ـــ أجل يمكنك أن تستعمله بدل النقود .

ورد العسكرى وهو يضع البون فى جيبه :

ـــ فهمنا .. وماذا حدث ؟

وعادت توحيدة تصيح :

ـــ النصاب .. زور البونات .

ـــ واستعملها فى المعاملة ؟!!

ـــ ليس هذا فقط .. بل وباعها أيضا .

ـــ هكذا ؟.

والتفت إلى عباس وهو يقول فى صرامة :

ـــ زورت البونات وبعتها .. فوت قدامى على القسم .

ودفع عباس أمامه من عنقه وهو يصيح :

ـــ فوت يا نصاب .. يا حرامى .. نهارك اسود .

وصاحت توحيدة فى تشف :

ـــ اسجنوه يا شاويش .. لازم يبات فى التخشيبة .

ـــ اطمئنى يا حرمة .. ستأخذ العدالة مجراها .. سنعمل اللازم .

ومدت توحيدة يدها ببون آخر للعسكرى وهى تقول :

ـــ خذ هذا .. بون من البونات الأصلية التى زورها النصاب .. إنها للمعاملة .. بدل النقود .

وأخذ العسكرى البون ووضعه فى جيبه وهو يقول :

ـــ مفهوم .. مفهوم ..

وصاحت توحيدة وهى تودع العسكرى وسط الزحام :

ـــ كتر خيرك يا شاويش .. المحل محلك .. ما تعملش تكليف .

واستمرت الضجة والزحام فى الصالة بعد أن انصرف العسكرى بعباس إلى قسم البوليس .

وكان أبو زيد قد انتهز فرصة انهماك توحيدة فى الحادثة وإصرارها على تسليم

عباس للبوليس وجر سيدة إلى إحدى الحجرات وأطبق عليها .. يحتضنها ويحاول أن ينالها عنوة .

وصاحت سيدة :

— عيب يا معلم .. عيب بلاش فضايح .. ستودينا المعلمة فى داهية ..

— ملعون أبوها .. فى داهية .. فى داهية .

ودخلت تحية فوجدت أبو زيد يحتضن سيدة وهى تحاول الخلاص منه فهتفت ساخرة :

— ما شاء الله .. فرصة يا معلم .

ثم أسرعت إلى المعلمة توحيدة وهتفت بها :

— تعالى يا معلمة شوفى .. حاتلاقيها منين وإلا منين ..

وجذبت المعلمة من يدها ..

وكانت سيدة مازالت تحاول الخلاص من ذراعى أبو زيد ..

وهبت توحيدة فى سيدة كالإعصار :

— لم يعدلك بقاء هنا .. يا نورية .. يا بنت النور .. ياما قالوا لى عنك .. و لم أصدقهم .. ولكن أنا أستاهل .. لمى هدومك ..

ويالله وريني عرض كتافك .

ووقف أبو زيد ينظر إلى توحيدة حانقا وهو يقول :

— لماذا تطردينها ؟

— ليس لك دخل ..

— كيف ؟ إنها خير البنات اللاتى يعملن عندك .

— قلت لك لا تتدخل فيما لا يعنيك .

— .. هل تغارين منها ؟

— أغار منها .. من هذه السحلية ؟..

— إذن لماذا تطردينها ؟..

— هذا شغلى .

— ولكنها لم تفعل شيئا .. أنا الذى حضنتها .

— أنت رجل عينك فارغة .. ولى حساب معك بعدين ..

— وما لها هى ؟

واحتارت توحيدة .. ماذا تقول .. هل تقول إنها تخشى على نفسها منها .. وفجأة هداها ذهنها إلى تهمة يمكن أن تكون ستارا لطردها فهتفت :

— إنها شريكة عباس ..

— كيف ؟.. إنها لم تعرفه إلا هنا .

— كذابة بنت كذابة .. لقد قالت لى بعضمة لسانها .. إنهم كانوا جيرانها فى السيدة .

— وماذا يعنى أن يكونوا جيرانا ؟

— يعنى أنها متفقة معه .. وأنهما يتشاركان ثمن الكوبونات .

ونظرت سيدة إلى توحيدة فى غيظ وقالت :

— اسمعى يا معلمة .. سأذهب عن هذا البيت .. لأنى كما قلت لم يعد لى عيش فيه .. ولكن لا ضرورة .. لافتعال التهم .. أنت تعرفين أنى لم أعرف شيئا عن البونات إلا منك .

— كذابة أنت تعرفين أن عندهم مطبعة .

ونظرت سيدة إلى المرأة .. و لم تعرف كيف تجيبها ..

إن المرأة تعرف جيدا أنها لم تشارك عباس فى تزوير البونات .. ومع ذلك تأبى أن تصدقها ..

وأحست أن الدموع تهم بأن تطفر من عينيها ولكنها كرهت أن تظهر بمظهر الضعف ، وقالت وهى تبتلع ريقها :

— انتهينا يا معلمة .. سأترك لك البيت .. وكما قلت لى عندما أتيت إليك .. كله هم ..

ونظر أبو زيد إلى توحيدة قائلا فى غيظ :

— يا ظالمة .. لك يوم ..

وردت عليه فى حنق :

— اخرس انت .. لى حساب آخر معك .

وخرجت توحيدة إلى الصالة وكانت الزحمة قد بدأت تخف وذهب كل إلى حال سبيله .. وهبط أبو زيد مرة أخرى إلى المقهى .

وانهمكت سيدة فى حزم ملابسها . وهى تحاول أن تبحث فى ذهنها عن مستقر جديد .

ووصل إلى أذنيها صوت أقدام تصعد السلم ثم تعبر الباب وتدخل الصالة .

وسمعت صوت توحيدة تهتف فى دهشة مرحبة .

دلال .. أهلا وسهلا .. أين أنت طوال هذه المدة ؟.. ظننت أنك نسيتينى وكبرت علينا .

وسمعت سيدة صوتا .. على طول ما باعدت بينها السنون وبينه ما زال رنينه جليا فى أذنها .

— ازيك يا توحيدة .. والنبى وحشانى .. وبقى لى شهور .. وأنا أنوى زيارتك .. ولكن المشاغل تلهينى .. واليوم انتهزت الفرصة .. وعزمت على أن آتى إليك .

— قلت لنفسى كبرت دلال علينا .. ربنا أعطاها .. وتركتنا وظهرت على وجه الدنيا .. ونسيتنا .. فى الجحور .

— أنا أنساكم ؟.. ما عاش الذى ينساكم من فات قديمه تاه يا توحيدة .

— طول عمرك أصيلة يا دلال .. اتفضلى .

عجبا .. يا سيدة ..

دلال .. مرة أخرى ؟..

زوجة أبيك اللعوب .. التى كانت تثير الحارة بمشيتها ؟..

والتى انطلق من خدرها على مبيض النحاس .. ساعة دخول أبيك إلى البيت محمولا على الأعناق ..

أية ريح دفعت بها إليك فى هذه الساعة ؟.

وكيف يمكن أن تلقى وجودك فى هذا البيت ؟..

أو على الأصح طردك منه ..

(٣١)
فى بيت دلال

خرجت سيدة من الحجرة تحمل صرة ملابسها وقد لفت نقودهافى منديل ووضعته فى صدرها .. لتجد دلال تجلس متربعة على الأريكة بجوار توحيدة .

واقتربت منها محيية لتقول ببساطة :

ــ العواف يا خالتى دلال .

ونظرت إليها دلال ورفعت حاجبيها فى دهشة وردت دون أن تعرف من تكون :

ــ العواف .. يا شابة ..

ثم نظرت إلى توحيدة وتساءلت قائلة :

ــ تبقى مين بسلامتها ؟

وردت سيدة قائلة :

ــ أنا سيدة يا خالة .. ألا تذكرينني ؟

ورفعت دلال حاجبيها فى دهشة وتساءلت صائحة :

ــ سيدة ؟ أنت ؟ غير معقول ؟..

ــ أجل أنا سيدة .

ــ سيدة بنت جابر ؟

ــ أيوه أنا ..

ــ يا سلام يا ناس .. حقيقة الدنيا صغيرة .. وماذا أتى بك هنا يا سيدة .

وابتسمت سيدة وأجابت :

ــ الدنيا يا خالة دلال ..

ونظرت إليها دلال نظرة خبيرة فاحصة وقالت :

ــ احلويتى يا بنت وادورتى وبقيتى ألسطة .

ــ كتر خيرك يا خالة .

وكانت توحيدة ترقب الحوار فى دهشة بعد أن فوجئت بمعرفة سيدة لدلال .

ولم تلبث أن تساءلت قائلة :

ــ انت تعرفى البت دى يا دلال ؟

ــ أيوه يا توحيدة .

ــ من أين ؟

ــ ما هى دى سيدة بنت زوجى جابر .

ــ الذى مات فى الذكر ؟

ــ أجل .

ــ الله يرحمه ..

وضربت توحيدة كفا بكف وعادت تقول :

ــ بقى قلت لى .. إذن فهذه ابنة زوجك الحاج جابر .

ــ تصدق .. لم أرها منذ أن مات الحاج .. منذ كانت صغيرة وأخذها الحاج برعى صاحب المطبعة الذى كان يعمل بها جابر .

ــ إذن فقد كانت تعيش عند الرجل صاحب المطبعة .

وتساءلت دلال فى دهشة ..

ــ هل تعرفينه ؟.. إنه رجل طيب .

ــ أعرف ابنه عباس .. النصاب الضلالى .. هل تصدقين أنه زور البونات التى عملتها للزبائن المستديمة ؟. ولم يكفه أنه يستعملها لنفسه بل راح يتاجر فيها .

ولم تستطع دلال أن تخفى ضحكتها وتساءلت فى دهشة :

ــ زور البونات ؟

— تتصورى ؟
— غلطتك .
— لماذا ؟
— لأنك عملت تقليعة البونات .
— للتسهيل وحياتك .
— للتسهيل والا للتكويش على الزبائن ؟
— يا ختى يا دلال .. أصلك فايقة ..

وعادت تهز رأسها وتنظر إلى سيدة فى غيظ قائلة :

— المهم أن البت الساهية .. كانت تعرفه جيدا .. وتعرف حكاية المطبعة .. وادعت أنها لا تعرف شيئا .. هل تصدقين أنها لم تكن تشاركه ؟

ونظرت دلال إلى سيدة متسائلة فى استنكار :

— أكنت تعرفين يا سيدة ؟
— أنطس فى نظرى يا خالة دلال .. ما كنت أعرف شيئا .

وقالت توحيدة مؤكدة :

— لا تصدقها .. ومن أجل هذا صممت على أن تترك البيت .. أنا لا أستطيع أن أبقى على من يغدر بى .. ويسرقنى ..

وعلقت دلال قائلة :

— لم يكن يصح منك هذا يا سيدة .. المعلمة توحيدة معلمتك ..

وردت سيدة مقاطعة دلال فى غيظ :

— المسألة ليست مسألة بونات .. المسألة مسألة أبو زيد ..

وتساءلت دلال فى لهفة وهى تحاول أن تكتشف المزيد من المعلومات :

— ماله أبو زيد ؟
— تغار عليه منى ..

وصرخت توحيدة فى حدة :

— فشر .. اخرسى .. قطع لسانك من اللغاليغ .. أنا أغار منك يا سحلية ؟.. يا إبرة مصدية .. امشى اطلعى برة .

وردت سيدة فى تحد :

— طالعة .. أتظنين أنه لا يوجد سوى بيتك فى الحى ؟.. الشغل على قفا من يشيل .. أنا لست عواطلية يا معلمة ..

وصاحت بها توحيدة :

— طبعا .. فتحت .. وصوتك على .. لكن الحق على أنا اللى عملتك بنى آدم ..

ونظرت سيدة إلى دلال وقالت مودعة :

— عن إذنك يا خالة دلال .. خليتك بعافية ..

وسألتها دلال وهى تفحصها فحص خبير لصفقة طيبة يكره أن تفلت منه :

— ولكن أين ستذهبين ؟
— الدنيا واسعة يا خالة ..

وخشيت دلال أن تخرج سيدة فلا تعرف كيف تتصيدهابعد ذلك ، وخشيت كذلك أن يبدو منها ما يشعر توحيدة أنها تنوى أخذ سيدة بعد أن طردتها .

و لم تلبث أن قالت بغير اكتراث :

— على العموم .. ابقى اسألى يا سيدة ..
— حاضر يا خالة دلال ..
— البيت فى شارع كوم الدكة نمرة (...) الدور الثالث .. اسألى على شقة دلال .. ألف من يدلوكى ، وأيضا يوجد تليفون من السهل حفظه . (وذكرت رقم التليفون) .

وبعد أن أدلت بكل هذه المعلومات المفصلة عادت لتقول بغير اكتراث :

— ابقى فوق .. والا اسألى .. إذا احتجت لأى شيء ..
— كتر خيرك يا خالة ..

وأحست توحيدة أن دلال .. تنوى أن تأخذ سيدة .. وإن كانت تدعى عدم الاكتراث بها . وبدأت سيدة تحلو فى عينيها .. وهمت بأن تجر ناعم لتبقيها .. كارهة أن تخطفها منها دلال بمثل هذه البساطة ولكنها تذكرت أبو زيد .. ولهفته عليها .. وخطورتها عليه .. وعادت تنفض الخاطر عن ذهنها بشدة وتمتمت فى غيظ بصوت لم يفت مسامع دلال .

— اشبعى بها ..

ولم يبد على دلال أنها سمعت شيئا واستمرت فى حديثها لسيدة :

— على العموم ربنا يهديك ، ويجعل المعلمة توحيدة ترضى عنك .. مصيرك على أية حال إليها . والظفر لا يخرج من اللحم ..

وخرجت سيدة ..

وودعتها زميلاتها حتى باب البيت ..

وودعها أبو زيد بصيحة من مقعده على المقهى قائلا :

— مع السلامة يا نرجس .. خسارتك .. الله يخرب بيت اللى كان السبب ..

وعلى باب الحارة التقت سيدة بإحدى عربات الكارو تحمل بعض نسوة الحى وقد عدن من الكشف الطبى فى الحوض المرصود وقد تحزمت إحداهن وأمسكت بالصاجات ، وأمسكت أخرى بالطبلة وأخذن ينشدن ..

— سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة ..

وصاحت زينات الراقصة وهى تبصر سيدة تمسك الملابس فى يدها :

— على فين يا نرجس ؟

وأجابت سيدة ببساطة :

— خارجة ..

— راحة فين ؟

— لا أعرف ..

وسألت زكية التى تمسك بالطبلة :

— وما هذه الصرة ؟

— ملابسى ..

— ولماذا تحمليها ؟

— لأنى تركت بيت توحيدة ..

وهتفت زينات وكانت تعمل عند توحيدة من قبل وتركتها :

— ربنا تاب عليكى .. وإلى أين أنت ذاهبة ؟

— لا أدرى !

— إذن تعالى معنا ..

وصاحت زكية فى حماس :

— اركبى ..

وحشرت سيدة جسدها بين أجساد النسوة المكدسة على العربة ..

وصاح العربجى بالحمار :

— شى .. شى يا بتاع الكلب ..

ووصلت سيدة إلى البيت الجديد ..

لا يختلف كثيرا عن بيت توحيدة ، نفس العمل ونفس الغيرة ونفس الحقد ونفس الزبائن ونفس الجو الخانق .. والنفوس العارية التى لا يستر سوآتها ستار من رقة أو حنان .. أو محاولة نفاق أو رياء .. كل شىء حولها جاف خشن .. خلع عنه رداؤه وتجرد من طلائه ..

وفى لحظة ضيق تذكرت دلال .. لماذا لا تذهب إليها .. فقد تجد عندها شيئا جديدا .

شارع كوم الدكة نمرة كم ؟

نسيت النمرة يا سيدة .. لأنك لم تأخذى دعوة دلال مأخذ الجد .. ولم تظنى نفسك أبدا فى حاجة إليها .

ولكن لماذا لا تجربين ؟..

نمرة كم يا سيدة ؟. لقد قالت لك إن ألف من يدلونك على شقة دلال .

ولها تليفون أيضا ؟.

عجيبة أن يكون عندها تليفون ..

لابد أن تكون دلال قد اغتنت ..

ألم تقل لها توحيدة .. كبرت علينا .

لماذا لا تذهب إليها ؟..

لماذا لا تجرب ؟..

واستأذنت سيدة وخرجت متجهة إلى بيت دلال .. بعد أن استفسرت من زميلاتها عن شارع كوم الدكة .. كيف تصل إليه .. وأى ترام تأخذ ؟

ووصلت سيدة إلى الشارع .

شارع ملىء بالدكاكين والناس والعربات .

نمرة كام يا سيدة ؟

خيبتك قوية يا سيدة .. لا تذكرين رقم البيت .. ولا التليفون .

اسألى ..

تسألين من ؟..

لو أنها تجد مكوجيا .. لاستطاع أن يدلها .. فليس هناك من يعرف البيوت كالمكوجية ولكنها لا تجد أثرا لمكوجى .

لو بائع كازوزة .. أو جزار ..

ولكنها لا تجد أثرا لهذه الدكاكين ؟

غريب هذا الشارع .. حوانيته كلها تبيع أشياء لا تعرفها .. ولا يمكن أن تكون دلال زبونة لها .

هنا بائع سجاير .. قد يعرفها ..

واقتربت سيدة منه ..

ـــ العواف يا معلم ..

ونظر إليها البائع نظرة فاحصة :

ـــ الله يعافيكى ..

ـــ وحياة والدك ، تعرف بيت الست دلال ؟..

ـــ ماذا تشتغل ؟

أجل .. بماذا تشتغل الست دلال ؟.. مشكلة!!وأجابت سيدة :

ـــ بتشتغل .. ست !

ونظر الرجل إليها فى سخرية قائلا :

ـــ لا يا ختى .. لا أعرف بيت الست دلال !

وسارت سيدة تتطلع إلى البيوت ..

لو أن دلال تطل من النافذة .. أوتقف فى الشرفة !..

وفى منحنى فى الشارع بدا حانوت عصير قصب .. وتوقفت سيدة ، واقتربت من صبى يمسك بمنشفة فى يده :

ـــ تعرف يا شاطر بيت الست دلال ؟

وببساطة أشار الصبى بأصبعه إلى أعلى .. قائلا :

ـــ أهو عندك هناك ، فى الدور الثالث ..

واتجهت سيدة إلى مدخل البيت الذى أشار إليه الصبى وبعد لحظة كانت تطرق باب الشقة .

وفتحت لها فتاة صغيرة عجفاء ذكرتها بنفسها وهى تعمل عند أم عباس ،

وتساءلت سيدة :

ـــ الست دلال موجودة ؟

ـــ نقول لها مين ؟

ـــ سيدة ..

ووصل صوت دلال عاليا من الداخل :

ـــ مين يا بت يا زهرة ؟

ــ واحدة اسمها سيدة ..

وتعالى صوت دلال مرحبة :

ــ أهلا وسهلا ..

وأقبلت دلال من الداخل ترحب بسيدة ..

كان لقاء دلال حارا .. أحر مما يمكن أن تتوقع سيدة !..

لقد جعلتها تشعر أنها شيء هام ..

واستمرت دلال فى ترحيبها الحار ..

ــ خطوة عزيزة يا سيدة .. مضت مدة وأنا أنتظرك .. أين كنت طول هذه المدة ؟

وردت سيدة وهى تجلس أمام دلال على مقعد كبير منخفض .. وتسترق نظرة فاحصة إلى ما حولها ..

ــ لقيت فتاة اسمها زينات كانت تعمل معى عند توحيدة ..

وقاطعتها دلال قائلة :

ــ أعرفها .. زينات على سنجة عشرة !

ــ أجل هى .. وعرفت أنى تركت توحيدة فألحت على للذهاب معها إلى بيت كوكب ..

وعادت دلال تقاطعها :

ــ كوكب المتسيطة ؟

ــ أجل هى ..

ــ ياختى بلاهم .. آل من توحيدة لكوكب يا قلبى لا تحزن .. ما أسخم من سيدى إلا ستى .. كله محصل بعضه يا سيدة .. لازم تخلصى من الواغش ده .. لازم تشوفى نفسك .. مستقبلك ..

وعادت سيدة تسترق النظرة الفاحصة لما حولها .

الأثاث يبدو شيئا آخر .. غير ما تعودت عليه عند توحيدة وكوكب ..

شيئا أنظف وأفخر .. وهناك صور معلقة على الحائط .. صور شجر وزهور وفاكهة .. تبدو أثمن كثيرا .. من صور أبو زيد وتوحيدة المعلقة فوق الكنبة الاستامبولى ومنضدة عليها زهرية بها ورود .وبجوارها تليفون .. وعلى النوافذ والأبواب ستائر قطيفة .

والبيت لا يعج بالحركة والضجيج ليس هناك من يدخل ويخرج ويعلو صوته .. كل دقيقة .. بل سكون يشمل البيت لا يشوبه غير أصوات خافتة .. وأبواب تفتح وتغلق بين آونة وأخرى .

ونظرت دلال إلى سيدة قائلة :

ــ إن شاء الله تقعدى معايا على طول .. وربنا يتوب عليكى من الهم والقرف ..

وأجابت سيدة مترددة :

ــ ولكنى لم أعمل حسابى ..

ــ حسابك فى ماذا ؟

ــ أعنى لم أحضر ملابسى ..

ــ لا يهم .. أنت تحتاجين إلى ملابس جديدة .. من هنا ورايح ستصبحين شيئا آخر .

ــ وقطعتين الصيغة .. والقرشين ..

ــ إذن اذهبى لإحضارهم وعودى فورا ..

وعادت تنظر إلى جسد سيدة .. نظرتها الفاحصة الوازنة ..

ــ الشغل هنا شيء آخر يا سيدة .. وأنت أهل له .. سأعرف كيف أوضبك .. المهم عايزة منك حلحة .. يالله يا حبيبتى ..لا داعى لتضييع الوقت ..

وبدأت سيدة عملها الجديد فى بيت دلال .. جديد شكلا ، وإن لم يتغير فى جوهره .. عن التعامل بنفس البضاعة ..

ارتدت سيدة ثيابا جديدة .. وتغير مظهرها تغييرا يمكن أن يضعها فى مصاف أولئك الذين تعتبرهم دائما .. أسيادا !

تعلمت كيف تلبس وكيف تتزين ..

وأصبحت ثيابها تفصل لها خصيصا ..

شيئا آخر .. غير الجلاليب .. أو الفساتين الجاهزة ..

أصبحت تذهب إلى خياطة عندها سيدات أنيقات .. وأصبحت تعمل بروفات مثلهن !

وارتبكت بالطبع .. لم تكن تعرف كيف تتصرف وكانت هناك كلمات جديدة عليها .. ونطقتها خطأ فى أول الأمر وأثارت الضحك منها .

ولكنها تعلمت كيف تنطقها ، وتعلمت كيف تتصرف مع هؤلاء الناس الجدد الذين أخذت تتعامل معهم فى وضعها الجديد ..

أخيرا يا سيدة أصبحت .. سيدة !!

هكذا يعاملك الناس .. وهكذا يتحتم عليك أن تتعاملى معهم .

ولقت يا سيدة .

شكلك فى المرآة .. يؤكد ذلك ..

لو قلت إن أباك .. جابر بك .. لما كذبك أحد ..

لو قلت إن المرحوم كان عنده أطيان .. وإنك تركت المدرسة لتتزوجى من علام بك صاحب وابور التلج ومصنع الكازوزة .. وإنك تركته لأنك لم تطيقى عشرة أسرته .. الشلق .. لما أنكر أحد عليك قولك .. ولما اتهموك بتجاوز الواقع .

فقط تتعلمين نطق بعض كلمات وجمل .. بالفرنسية ..

وليس ذلك بالعسير عليك ..

ليس عسيرا .. كنطق كلمة الكلور .. الذى حاول حمدى وسميحة عبثا أن يعلماك نطقها .. أنت تستطيعين أن تقولى بونجور .. وبونسوار ..

الناس من حولك يقولونها .. فعليك أن تتعلميها ..

ودلال نفسها تعلمتها ..

تغيرت كثيرا بالطبع ، وإن كان أصلها يغلب عليها .. عندما تنفعل ، أو تسترخى ، ولكنها عندما تتعامل مع الناس .. تلتزم الأدب والألفاظ المنغمة ..

هكذا يحتم الشغل يا سيدة .. وأكدت لها دلال المرة بعد المرة .. أن لا شىء عسير على بنى آدم ..

لبس البوصة تبقى عروسة .. والتكرار يعلم الحمار ..

و لم تكن سيدة بوصة ..

بل كان جسدها خير ما تملك .. وأحكمت عليها الثياب .. فتجلى ..

وعلمها الالتقاط والتقليد والتكرار أشياء كثيرة فعرفت كيف تتكلم وكيف تتصرف .. وكيف تتعامل ..

وكان الزبائن من نوع جديد ..

شيئا آخر غير لعيبة الكرة .. والجنود .. والسمكرية .. وصبية البقالين .. يتدفقون فى طوابير .. يؤدون مهمتهم فى حماس وعجلة ،ثم ينصرفون ..

أناس لهم وزن .. يأتون فرادى أو شلل .. يطرقون الباب فى هدوء .. ويدخلون فى أدب ويجلسون كالضيوف .. ثم ينتقلون إلى الحجرات .. يشربون كأسا .. أو يشدون نفسا .. فى رحرحة واسترخاء .. ويضحكـون .. ويمزحون ..

وهم يرتدون ثيابا محترمة .. بكتاين ذهبية فى الصدارى .. ودبابيس أنيقة فى الكرافتات .. ولكنهم يخلعون كل هذا .. ويعودون .. كزبائن توحيدة .. مجرد آدميين .. أو حيوانات .

وبعضهم يتحدث فى التليفون ليقول إنه آت .. ليسأل إن كان هناك أحد أم أن المكان خال أو ليسأل عن فلانة لتخلو له .. وبعضهم يدق التليفون .. ليسأل عن الست ..

وترد دلال .. ويدور حديث خاطف ..

ـ أهلا وسهلا سعادة البيه (أو الباشا أحيانا) .. حاضر .. حاضر .. من عنيه .. بكرة الساعة التاسعة تكون عندك .. أجل .. أجل .. أعرف العنوان .. فى شقة سليمان باشا .. حاضر .. إذا لم تكن هى .. فسيكون شيئا أفضل .. هناك .. أشياء جديدة .. تعجبك .. أجل أعرف مزاجك جيدا ..

وهؤلاء لا يحضرون إلى البيت .. ولكن ترسل لهم البضاعة .. من الباب للباب .

هؤلاء .. هم العملاء الجدد .. أناس .. محترمون .. لهم وزن .. وكروش .. وزوجات .

ونجحت سيدة فى التعامل مع عملائها الجدد .. فى بيت دلال .. كما سبق أن نجحت مع عملائها القدامى .. فى بيت توحيدة وكوكب .

وتوطدت علاقاتها .. مع زميلات جديدات .. زارت زميلاتها الأوليات .. بضع مرات .. وزارتها بعضهن .. بضع مرات .. ثم انقطعت الصلة ..

ولم يعد للقروش قيمة عند سيدة .. بعد أن بات التعامل بالجنيهات .. ولا عادت قطعة المصاغ .. القديمة .. ذات أهمية .. بعد أن تعددت الهدايا .. وبعد أن تعلمت هى كيف .. تتصيد الزبون المليء .. وكيف تحصل على ما تريد ببراءة وبساطة .. وكيف يمنحها إياه بحماس ورضاء .

وتعدد تعامل سيدة .. من الباب للباب ..

جرس التليفون يدق والحديث الخاطف يجرى .. وتغلق دلال التليفون بكلمتها المأثورة .. (من عنية الاثنين) ..

وباختصار تصدر تعليماتها ..

« بكرة الساعة عشرة عند عبد الوهاب بك » .. أو « النهاردة الساعة ٨ فى شارع التوفيقية نمرة كذا شقة كذا » ..

ولفت سيدة فى ثلاثة أرباع شوارع قلب القاهرة .. شقق أنيقة هادئة .. تدق

جرسها .. ويفتح الباب وتدخل فى هدوء ثم يغلق وراءها .. لتجد حياة أخرى ..

الكؤوس .. والطعام .. والغناء .. والحظ .. وهيصة ما بعدها هيصة ..

وذات يوم .. دق الجرس ..

وتناولت دلال السماعة .. وسمعتها سيدة تجيب فى حماس وترحيب ..

ـ أنور بك .. أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. حمد الله على السلامة .. أين كل هذه الغيبة يا سعادة البيه ؟..

وأجاب الصوت الآخر على التليفون :

ـ أبدا .. جالى دور .. رقدت فيه مدة ..

ـ سلامتك يا بيه ألف سلامة ..

ـ الله يسلمك .. ماهى أخبارك أنت ؟

ـ الحمد لله رضا ..

ـ كنا نريد أن نجلس جلسة ..

ـ تحت أمرك .. متى ؟

ـ اليوم فى المساء .

ـ فى أية ساعة ؟

ـ سأكون موجودا فى الثامنة .

ـ نفس العنوان ؟

ـ أجل .

ـ عنيه الاثنين .

ـ سترسلين من ؟..

ـ حاجة جديدة .. ستدخل مزاجك .

ـ لم أرها من قبل ؟

ـ لأ .. ولكنها ستعجبك جدا .. حاجة على الفرازة ..

ـــ إذن سأنتظر الساعة الثامنة . .

ـــ بالدقيقة ستكون عندك ..

وتلتفت دلال إلى سيدة قائلة :

ـــ اسمعى يا نرجس .. النهاردة الساعة الثامنة تكونى فى العنوان الذى سأذكره لك .. راجل لقطة .. مقاول مليان وبجبوح .. ولا يهمه القرش ..

وأملتها العنوان .. وأخذت تشرحه لها ثم أردفت قائلة :

ـــ شدى حيلك معاه.. إذا بسطتيه .. حايبيئك أوى .. يده سائبة .. وليس للنقود قيمة عنده .. فاهمة ؟

وردت سيدة :

ـــ فاهمة يا خالة دلال ..

وفى المساء وقفت سيدة تلقى نظرة أخيرة على نفسها فى المرآة بعد أن ارتدت ثيابها .. وتزينت وتعطرت ..

أهذه أنت يا سيدة ؟..

معقول ؟!

و لم لا .. ما دام هذا وجهك وجسدك .. فلا بد أن تكونى أنت .

أنت يا سيدة ؟. كل هذا قد أصبحته ؟

.. وعلى غير إرادة ولا توقع .. قفز حمدى إلى ذهنها .

ماذا يمكن أن يقول عنك لو رآك ؟..

بل ماذا يمكن أن يكون نصيبك منه .. لو أنك أحببته بهذا الكيان أكان يمكن أن يبادلك .. بعض مشاعره ؟

أكان يمكن أن يقبل عليك ؟..

لم لا ..

إنك بهذا الكيان لا تقلين .. عن أية مخلوقة يمكن أن يكون لها قدر عنده أو عند غيره من الناس ..

أنت بهذا الكيان يا سيدة ..

بعطرك الفواح وثوبك الأنيق المحكم على جسدك الجميل .

لا كدش منبوش على رأسك .. ولا رائحة مطبخ تفوح من ثيابك ..

ولكن كيانك الفاخر .. جاء متأخرا .

جاء بعد أن فقدت ما هو أقيم منه .

كلفك غاليا .. يا سيدة ..

اكتسبته .. وفقدت قدرك .. الذى بغيره لا تكونين أكثر من بضاعة .. بالنسبة لجميع الذين تتعاملين معهم .. ومن بينهم حمدى .

ولكن أيمكن أن يتعامل معك حمدى .. حتى كبضاعة ؟..

وهل تقبلين أنت ؟

و لم لا ..

إذا كنت قد أبحت كيانك لكل مشته يدفع الثمن ..

أفلا يكون من حقك أن تمنحيه .. لمن لم تلتهفى فى حياتك على غيره .

أفلا يكون من حقك .. أن تريحيه .. فى حضنه برهة ..

بعد أن تمرغ فى أحضان .. كل من لا يربطك به أدنى شعور من مودة أو حنان ..

أجل من حقك يا سيدة ..

وبلا خجل ..

فما عاد من حقك الخجل فى عملية .. باتت مهنتك ..

لقد مارستها كمهنة .. بغير خجل .

ومن حقك أن تمارسيها كهواية .. أيضا بغير خجل .

ولكن لم هذا كله .. وماذا جر كل هذه الأمانى السرابية إلى ذهنك ؟

ألأن شكلك أعجبك .. تمنيت لو تعاملت به مرة من أجل نفسك ؟

دعى عنك الأمانى الحمقاء .. وابعدى الشيطان عن نفسك ..

إلى العمل يا سيدة .. فليس هذا وقت الأمانى البلهاء .

وهبطت سيدة إلى الدرج .

وعلى الباب نادت :

ـــ تاكسى .

وبعد دقائق كانت تقف أمام العنوان .

وتقدمت فى ثقة ودخلت الأسانسير وضغطت الزر . ووقف الأسانسير فى الدور المطلوب .

وفتح باب الأسانسير .. ورفعت بصرها لتبحث عن رقم الشقة ..

ثم ضغطت الزر .

وفتح الباب .

وتلقاها رجل يرتدى الصديرى والبنطلون . طويل أكرش أسمر .. ضخ الأنف .. تتناق تجاعيد وجهه مع سواد شعره المصبوغ .

وهتف بها مرحبا :

ـــ أهلا .

ولم يكن وجهه غريبا عليها .

أجل سبق أن رأته ..

أنور بك ..

أجل .. هو بعينه .

الأسطى أنور السباك الذى كان يعمل عنده عطوة ابن أم عطوة فى الماوردى والذى فتح الله عليه وقتذاك .. وفتح دكانا فى ميدان السيدة ..

إذن هذا هو أنور بك ..

هذا الذى يجب أن تبذل كل جهدها لإرضائه .

ولم لا ؟..

أليس مليئا .. ولا تهمه النقود ؟

ادخلى يا سيدة ..

ادخلى ..

هذا هو عملك ..

وهذا الكيان المعطر الجميل هو بضاعتك .. وهو موهبتك .. وهو سلاحك ..

فاقدمى يا سيدة أقدمى .

أقدمى .

(٣٢)

ساعات الذنوب

أقبلت سيدة على أنور بك .. تمد يدها إليه فى رقة :
وتحت نظرة الرجل المبهورة إلى وجهها وجسدها .
نجحت يا سيدة !!
لم يعرفك الرجل بغير شك .
وكيف يعرفك يا غبية ؟!
رآك بضع مرات وأنت تذهبين إلى الحانوت تصطحبينه إلى البيت لكى يسلك
البالوعة أو يركب جلدة للحنفية .. أو يصلح وابور الجاز .
كان هو أعجف يعلو الهباب وجهه ويديه .
وكنت صعلوكة حافية القدمين بعد أن تركت القبقاب وراء الباب حتى لا
يضايقك فى الجرى .
كيف يخطر بباله .. أن العجفاء الحافية ذات الكدش تعدو أمامه إلى البيت فى
حوارى الماوردى وهو يحمل وابور اللحام وحقيبة العدة الخشبية التى حوت
القصدير والاستوبه والفونيات والجلد .
كيف يخطر بباله .. أنها هى نفسها .. الفاتنة ذات الصدر المتحدى والخصر
الملفوف والردف المكتنز .. تخطو إليه فى ثبات وكبرياء ..
يتقدمها عطرها الفواح .. ليعلن عن أنثى أصيلة قادمة .
لم يميزك الرجل يا سيدة ..
ولكنك ميزته رغم كل هذه السنين الطوال .. ورغم كل ما كسته إياه يد
النعمة .

ميزته .. لأن كل ما تغير به .. إنما هو إضافة إلى كيانه الأصلى .. طبقة شحم
علت بدنه .. وكرش تكور أسفل صدره .. وتجاعيد أسفل عينيه ولغد تحت
ذقنه .. وقميص حريرى .. وكتينة ذهبية فى الصديرى تتدلى على كرشه .
وكل هذا لم يخف ملامحه الأصلية .. أنفه العريض الذى يملأ نصف وجهه ..
وعيناه الضيقتان .. وحاجباه المقرونان .. ولون جلده المتسخ .. لم تخفه طبقة
الشحم .. تحت الجلد .. ولا الثياب فوق البدن ..
أى إنسان يراه .. يعرف أنه الأسطى أنور .. بوابير الجاز نصلح ..
أما أنت يا سيدة .. فيحتاج المرء لكى يعرفك .. أن يقال له هذه هى سيدة ..
كما فعلت مع دلال ..
وليس هناك ما يدفعك إلى أن تقوليها للرجل لتعرفيه بحقيقتك .. وتجهدى
ذهنه فى تذكرك .. لو فرض أن لك من القيمة .. فى ماضيك ما تجعل لك بقايا أثر
فى ذاكرته ..
إنسى يا سيدة ما كنت .. وما كان ..
وادخلى عليه .. باعتبار ما أصبحت عليه .. وما صار إليه .. نرجس هانم ..
وأنور بك ..
وهو .. بعد ملء .. سائب الكف ..
وأنت .. قد أصبحت منه .. بمجرد الاقتراب .. ودون أدنى جهد ..
موضع الرضا والتقدير .. وأقبل عليك يحييك فى شوق ولهفة .. وقد تهللت
أساريره .. وهتف بك :
ـــ أهلا .. وسهلا .. أهلا .. أهلا ..
ـــ أهلا بك .. مساء الخير ..
ـــ مساء النور .. على البنور ..
ومد يده فتحسس ذراعها .. وربت على ظهرها .. قائلا :
ـــ أين كانت تخفيك دلال طول هذه المدة .. والا لم نكن قدر المقام ؟

وضحكت سيدة .. وأطربها أن يضعها الرجل فى مقام لا يصل إليه .

وأجابت قائلة :

— أبدا .. لم يكن هناك نصيب نلتقى من قبل ..

— منذ متى عرفت دلال ؟

— منذ بضعة شهور ..

— لا بد أنها عرفتك بعد أن مرضت .. لقد مضى على ستة شهور لزمت الفراش .. عقب نوبة قلبية .. نصحنى الأطباء .. بعدها ألا أبذل أى جهد ..

— سلامتك ..

— الله يسلمك .. الإنسان يظل يشطح فى الحياة .. دون أن يعرف أن لجهده حدا .. حتى يدق له جرس الخطر .. فإذا بحياته تكاد تتسرب منه ..

وكانت سيدة قد مرت بمدخل وضعت فيه شماعة .. ومقعدان .. أفضى بها إلى صالة رحبة وضع فى ركن منها بار أنيق عليه أرفف صفت عليها زجاجات مختلفة الألوان والأحجام .. وفى ركن آخر منضدة مستديرة وفى جانب من الصالة أريكة كبيرة حولها بضعة مقاعد مريحة .. وعلى الجدران علقت صور لسيدات عاريات وشبه عاريات ..

وفى يمين المدخل باب بدا كأنه يؤدى إلى مطبخ وحمام صغير وفى المواجهة باب موارب ولم تشك فى أنه يفضى إلى حجرة النوم .

وأشار أنور بك إلى الأريكة قائلا :

— تفضلى ..

واستقرت سيدة على الأريكة العريضة المريحة التى تبدو أشبه بفراش وثير صغير . وأخذت تلقى على ما حولها نظرات فاحصة .

كان كل ما حولها يوحى بالغنى والأناقة ..

بغير جدال .. ليس أنور بك .. هو الذى فعل هذا ..

إنسان له ذوق .. صنعه له ..

هذا الورق الذى كسيت به الجدران .. والصور والزهريات والتماثيل ..

توحى بجو آخر .. غير ما يوحى به بيت دلال .. يوحى بأن صاحبه معه نقود .. وقادر على الصرف .. بل وأكثر من ذلك .. يريد أن يصرف ..

وتساءل أنور بك :

— تشربى إيه ؟..

أجل . ماذا تشربين يا سيدة ؟!!

الرجل يبدو أنه فى غير عجلة من أمره .. ليس لديه مهمة معينة يريد أن ينهيها .. ولكنه يريد جلسة ..

يريد مباسطة ..

يريد جلسة على رواقة .. يشرب .. ويمز .. ويتسلطن ..

وسيدة تكره مثل هذه الجلسات ..

أولا لأنها تريد .. أن تنهى مهمة .. وتأخذ الثمن ..

وثانيا لأنه ليس هناك من يستطيع أن يمنحها بجلسته .. بهجة .. ورضا ..

ومع ذلك .. فصاحبنا هذا .. يستحق أن يحتمل .. من أجل ما يمكن أن يبذله .. وليلة معه .. قد تكون أبرك .. من عشرة زبائن .. وعليها أن تتمشى معه .. وتريحه .

وأجابته باسمة :

— أمرك .

— ويسكى ؟

— أجل .

— أنا أشربه بالماء .

— وأنا أيضا .

وذهب الرجل وعاد بكأسين .. ثم عاد إلى البار ليحمل أطباقا صغيرة .. حوت أصنافا من المكسرات المملحة .

ونهضت سيدة لتساعد الرجل وهى تراه يحمل الأطباق .

وتساءل الرجل :
— إلى أين ؟
— أساعدك .
— لا .. لا .. استريحى أنت ..
ولكن سيدة أصرت على المساعدة .. وأخذت ترص الأطباق ثم ذهبت إلى المطبخ .. وأخذت تتصرف كأنها صاحبة بيت ..
وأسعد الرجل تصرفها .. وقال ضاحكا :
— بعض اللواتى يبدين كخادمات .. لا يفعلن هذا .. بل يصرون دائما .. أن يتصرفن كسيدات .. حقيقة المسألة .. مسألة أصل ..
وضحكت سيدة ..
أصل !!..
أى أصل يا غبى ؟!
من له أصل فى هذا البلد ..
مَن ليس له جد .. بوشم على باطن رسغه .
أصحاب الأصول .. غرباء .. ولقد كانوا فى بلادهم بلا أصول ..
والأصول تتطور مع الزمن ..
أنت بلا أصل ..
أبوك بالكثير سباك ..
ولكن ابنك سيصبح أصيلا .. ابن بك .. وربما باشا ..
والذى كان له أصل .. سيفقده العطل ثروته الموروثة .. وسيصبح ابنه غدا بلا أصل .. ومع ذلك ما دمت تصر على أنها مسألة أصل .. فليكن لك ما تريد ..
ورصت سيدة الأطباق بأناقة على المنضدة .. ثم جلست على الأريكة .. واضعة ساقا على ساق .

ولمح أنور بك باطن ساقها وقد انحسر عنه ذيل ثوبها . وشاعت فى نفسه البهجة ..
هذه لك يا أنور .. ملكك .. تفعل بها ما تشاء .. تستطيع أن تنزع عنها الثياب فورا ..
ولكن الأطباء .. منعوك من الجهد .. قلبك لا يحتمل .. ماذا تبقى لك من الحياة إذن ؟..
هذه هنيهات متعتك .. بعد طول الكد .. توشك أن تحرم منها .
ولكن .. لماذا الجهد ؟..
ليس حتما أن تجهد نفسك لكى تستمتع ..
ورفع أنور الكأس إلى شفتيه .. وازدرد نصفها فى شفطة طويلة قائلا :
— فى صحتك .. يا جميل .
ومد يده فأحاطها بذراعه وضمها إليه متسائلا :
— لم أعرف اسمك بعد ؟
— نرجس ..
— قربى يا نرجس .. قربى ..
ثم رفع بقية الكأس إلى شفتيه وأطلق تنهيدة طويلة قائلا :
— هذا كل ما تبقى لنا .. يا نرجس .. بعد طول الجرى .. رسينا على فاشوش .
— كيف ؟
— الأطباء منعونا من كل شىء ..
وعاد يملأ الكأس ثانية وهو يردد :
— ملعون أبوهم .. كله إلا هذا .. قربى .. يا ست ..
ومد يده يتحسس صدرها قائلا :
— ما شاء الله ..

ورفع الكأس فأفرغها فى جوفه مرة واحدة وهو يقول :
ـــ خسارة .. أتينا الزمان على كبر ..
ورفع كأسها قائلا :
ـــ اشربى يا نرجس ..
ورشفت رشفة وهى تردد فى صوت خافت :
ـــ أنت ما زلت صغيرا يا أنور بك لماذا تقول هذا ؟
ـــ استهلكنا العمر بسرعة يا نرجس .. كنا نريد أن نأخذ أكبر قدر من الدنيا ..
ـــ وأخذته ؟!!
ـــ أجل .. ولكن .. بأكبر قدر من العمر ..
ومد يده إلى أزرار ثوبها يحاول فكه .. وهو يقول :
ـــ لماذا لا تجلسين على راحتك ؟..
وأكملت سيدة فك الأزرار .. وجذبت الثوب من فوق جسدها فألقته على أحد المقاعد . واسترخت بجوار الرجل ..
ومد الرجل ساقيه وأرخى جسده على الأريكة .. قائلا :
ـــ يبدو عليك بنت حلال يا نرجس .. يسهل على المرء أن يستريح إليك .. اشربى .
ورفعت نرجس الكأس إلى شفتيها ورشفت رشفة ..
وعاد الرجل يقول :
ـــ أخذنا من الحياة الكثير .. ودفعنا الكثير .
وصمت الرجل برهة قبل أن يسألها فجأة :
ـــ هل تصدقين أن هذا الجالس أمامك .. كان سباكا فى الماوردى .. كنت أصلح الحنفيات .. وأسلك بوابير الجاز ؟
ودهشت سيدة من تصريح الرجل .. وهمت بأن تقول .. إنها تعرفه حينذاك

جيدا .. ولكنها كرهت أن تكشف نفسها .. وتظاهرت بالدهشة قائلة :
ـــ غير معقول ..
وبسط الرجل كفه الخشنة الغليظة .. قائلا :
ـــ ومن تصليح الحنفيات .. وتسليك بوابير الجاز .. فى الماوردى .. انتقلت إلى حانوت فى السيدة .. وبدأت أمارس عمليات مقاولات صحية .. على الضيق .. ثم دخلت شريكا فى إحدى مقاولات الحكومة .. ومن يومها تعلمت مهنة أكثر حيوية من المقاولات الصحية .. مهنة لازمة لكل مهنة .. يريد صاحبها أن يربح منها جيدا .. مهنة الرشوة ..
ومد يده يتحسس ساقيها ورفع القميص قائلا :
ـــ لماذا تضايقين نفسك بهذا القميص ؟.. ألا يبدو جسدك أجمل بدونه ؟
وببساطة جذبت القميص فخلعته عنها .
وتنهد الرجل قائلا :
ـــ أجل .. هكذا أفضل .. إن جسدك جميل جدا .. قلت لك إن الرشوة .. حرفة .. لازمة لكل من يريد أن يشق طريقه إلى الثراء .. الحصول على العطاء يحتاج إلى الرشوة .. يرسى علينا العطاء بقدرة قادر .. قادر على الارتشاء .. وتسهيل الصعاب وتذليل العقبات .. وفى كل خطوة .. تحتاج العملية إلى ترتيب .. وتسليك .. فى استلام الخامات .. وفى القياس .. بقدر ما ندفع .. بقدر ما نأخذ .. ومع الزمن .. امتلأت .. وازدادت قدرتى .. وأصبحت أقدر على أن أخوض أكبر المناقصات ..
ورشفت سيدة رشفة وقالت تعلق على قوله بعد أن رأته يخلد إلى الصمت :
ـــ كل هذا من الأعمال الصحية ؟
ـــ صحية .. وغير صحية .. لقد أصبحت مقاولا عموميا .. أقمت منشآت كاملة .. كان آخر ما أقمته مستشفى ومدينة للعمال .. ربحنا فيها .. صافى ..

عشرين ألف جنيه ..

وتساءلت سيدة فى ذهول :

— عشرين ألف جنيه ؟

وضحك أنور وأجاب وهو يدفع بالكأس إلى شفتيه :

— كثير ؟

— طبعا .. كيف تعدها ..

— أعدها ؟. ولماذا أعدها ؟.. إنها تضاف من بره بره .. إلى الرصيد فى البنك ..

— وماذا تفعل بها ؟..

وصمت الرجل برهة وهو يتأملها فى شرود وأجاب كأنما يحدث نفسه ..

— ماذا تفعل بها .. يا أنور ؟. لم يعد لديك ما تريد فعله .. دون أن تفعله .. أكلت وشربت وخبصت .. وبنيت للولية والأولاد قصرا .. واشتريت رتبة البكوية .. و لم يعد لديك بعد ما تريد ..

ومد يده يتحسس صدرها وجذبها إليه حتى لاصق جسدها جسده وتمم قائلا :

— لم تعد النقود هى المشكلة .. وإنما القدرة على ممارسة ما تجلبه النقود .. أصبحت النقود تجلب المزيد من النقود وما زلنا نعدو فى الطريق .. لم يعد العمل يحتاج إلى نفس الجهد .. ولكنه مع ذلك يحتاج إلى يقظة .. وإلى أعصاب .. لو تركت الأمر لمن حول لنهبونى . وانهار كل شىء .. لا أستطيع أن أغمض لحظة واحدة .. المعركة مستمرة .. وكما خدعت الناس يجب أن أحذر خديعتهم .. يجب أن أحذر كل من حولى .. كل من أتعامل معهم .. وهذا الحذر يحتاج إلى عين مفتوحة .. وأعصاب مشدودة .. اللحظات التى أستطيع أن أغمض فيها عينى وأسترخى .. هى اللحظات التى أمضيها هنا .. فالخديعة هنا .. محدودة المجال .. واضحة المعالم ..

وتساءلت سيدة :

— وبيتك .. لماذا لا تسترخى فيه ؟

— البيت ؟! إنه منطقة عمل أخرى .. ليست رياستها لى ولكنها للست أم عبده .. امرأة طيبة .. ولكنها تمارس نفوذها فى البيت ممارسة كاملة .. وليس عندى وقت ولا أعصاب لمنافستها على الرياسة .. ليس أمامى سوى قبول مشروعاتها والعمل على تمويلها وتنفيذ ما يخصنى منها .

ورشف من كأسه رشفة وأرخى ذراعه على جسدها قائلا وكأنه يستدرك أمرا هاما :

— ثم .. إننا لا نستطيع أن نمارس الذنوب .. فى البيوت .. إن كل أعمالنا فى البيت تتسم بالشرعية .. وإذا كنت لا تعلمين فإن للذنوب لذة .. بل إنها — بينى وبينك — أمتع ما فى حياتنا .

— أمتع ما فى حياتنا الذنوب ؟

— للأسف .. أجل !! لا تصدق المنافقين .. الذين يحاولون أن يوهموا الغير بأنهم ينعمون بالزهد ويستمتعون بالمشى على الصراط .. إن حب الخطيئة .. إحدى مركبات الإنسان .. وتقويمه يحتاج إلى عصا .. والعصا ألجمة .. ومع علمه بذلك يقبل متحديا ألم العصا .. لقاء متعة الخطيئة .. كفة الخطيئة دائما ترجح عند الموازنة فى قرارة نفسه .. ولا يردعه إلا العجز والخوف .. الشىء الوحيد الذى يأخذه الإنسان لنفسه .. من كل جهده فى الحياة .. هو ساعة ذنب .. أو هكذا يسمونها .. نحن نكد ونكدح .. ونقيم البيوت وننشىء الأسر .. ونربى الأولاد .. كل هذه واجبات . نتوهم أنها حقوق .. الحق الوحيد هو حقنا فى الاسترخاء وأن نفعل ما تريده نفوسنا .. وهى دائما تريد شيئا غير أصولى .. رغباتها الخاصة دائما .. نزوات .. يتحتم علينا أن تسرقها .. فى غفلة مـن المجتمع .. وأن تسترها بستار يتوقف سمكه وقدرته على حجب الخطيئة على ما نملك من أدوات الزيف ..

ورشف الرجل ما تبقى فى كأسه السادسة ثم قال ضاحكا وهو يضمها إليه :

— قربى يا نرجس .. قربى يا حلوة .. نستمتع بما خلفه لنا الزمن من قدرة على ممارسة الذنوب .

واستسلمت سيدة لأحضان الرجل ..

أراحته بكل ما تملك من قدرة على الإراحة ..

لم تكن تشعر له بالبغضاء أو التحدى كما كانت تشعر للآخرين غيره .. بل كانت أميل إلى العطف عليه .. والفهم له .. كان صريحا .. واضحا ..

وأغفى الرجل على ذراعها .. وعلت حشرجة أنفاسه .. فى شخير متقطع .

وأحست بالتنميل يسرى فى ذراعها .. من ثقل رأسه عليها .. فسحبت ذراعها ببطء .. ولكنه استيقظ فجأة .

وحدق فيها برهة كأنه يحاول أن يسترجعها إلى ذاكرته .. وعندما ذكرها .. وذكر أين هو .. نهض بجذعه الأعلى متسائلا فى لهفة :

— كم الساعة ؟

ونظرت سيدة إلى ساعتها مجيبة :

— الساعة التاسعة .

— كاد الموعد أن يضيع .

— أى موعد ؟

— موعد مع الرجل الذى سيشرف على استلام آخر دفعة من المبانى .. يجب أن أسرع حتى لا يضيق بالانتظار .. إن موعدى معه فى التاسعة .. فى المكتب .

ونهض الرجل وقد زالت عنه كل مظاهر الاسترخاء .

وبعد لحظات كانت سيدة تقف وقد ارتدت ملابسها وصففت شعرها ومد الرجل يده يشد على يدها وقد علت شفتيه ابتسامة راضية وقال لها وهو يربت على ظهرها فى رفق وحنان :

— أنت إنسانة مريحة ..

وأجابته فى إخلاص :

— وأنت رجل طيب .

— غفر الله لنا ساعات الذنوب التى تريحنا من كدح الحياة .

ومد يده فأخرج محفظته ثم أخرج منها بضع ورقات كبيرة قائلا :

— خذى ..

وأمسكت سيدة بالورقات الخمس ولمحت عليها رقم ١٠ — ولم تصدق عينيها وتساءلت فى دهشة :

— هذه لى ؟

— أجل .. إنك تستحقين أكثر منها ..

— ولكننى لا آخذ أكثر من ثلاثة جنيهات .

— قلت لك خذيها ..

— هل تدفع لهن هكذا دائما ؟

— لا أدفع أكثر من خمسة .. وأحيانا عشرة .

— ولم إذن أعطيتنى كل هذا ؟

— لأنك أرحتنى ، وليس من السهل أن يجد الإنسان من يريحه .

— هل تريدنى أن آتى إليك ثانية ؟

— بل لن أرى سواك .. اذهبى الآن لأنى فى عجلة .. ومرة أخرى .. سنجلس مدة أطول .

وعبرت سيدة باب الشقة .. وانحدرت على الدرج .. وهى ما زالت تطبق الورقات الكبيرة بأصابعها ..

خمسون جنيها يا سيدة ..

فى ساعتين !!

مرتب سى محمد .. بعد طول الكد فى إدارة الترجمة وفى كتابة القصص والروايات .. فى بضعة أشهر .. تأخذينه أنت فى ساعتين ؟..

وبلا أى جهد ..

لا شىء أكثر من الاستسلام ..

لو سرت بهذا المعدل .. فى حياتك .. لحصلت على ما يقرب من ألف جنيه فى الشهر ..

هذا .. هو الجنون بعينه ..

ولكن أمعقول أنك ستصادفين مثل هذه اللقطة كل يوم ؟

قال عنك الرجل إنك مريحة ..

ولقد بذلت مع غيره جهدا أكبر .. ولم يقل عنك كذلك ..

لا شك أنه حالة خاصة .. لا تتكرر .

لقد قالت عنه دلال إنه ملىء .. ويده سائبة .. ولكنها لم تتصور قط أنها سائبة إلى هذا الحد .

ترى هل تستطيع إراحته فى المرات القادمة ؟..

وهل سيواصل الإغداق عليها بهذا القدر .. أم إنها فقط حلاوة المرة الأولى ؟

وعبرت باب العمارة .. ووجوه البوابين النوبيين تتطلع إليها فاحصة .. ولفحت وجهها الذى شع منه صهد الكؤوس الثلاث التى ارتشفتها .. ريح الطريق الباردة ..

وسارت تطرق أرض الرصيف بكعبها .. وكانت الحوانيت قد أغلقت أبوابها .. وقل عبور المارة فى الطريق .. وبين آونة وأخرى تمرق عربة بجوارها .

وعادت تتحسس الورقات الكبيرة التى تطبق عليها بكفها ..

أصبحت ذات ثروة يا سيدة ..

هذا المبلغ الذى فى كفك يفوق كل ما جمعته من كدك طوال سنى عمرك .. منذ أن بدأت سرقة البقالين عند أم عباس .. حتى احتللت مركزك فى بيت دلال .

تستطيعين أن تفعلى ما تشائين يا سيدة .. بنقودك .. لست كصاحبنا هذا

الذى أتى الزمان على كبر .. إن لديك النقود .. والقدرة الى الاستمتاع بكل ما تجلبه النقود .

واستخفها الطرب .. وملأتها النشوة ..

نشوة الكؤوس الثلاث تشع فى رأسها .. والأوراق الخمس تشع فى كفها .

الدنيا ملكك يا سيدة .. تمارسين فيها كل ما حرمت منه ..

فى صباك كنت تتوقين إلى البيض المقلى والسجق على الصينية النحاس يفترش البقدونس فى الدكان ذى المرايا فى شارع السد .

كنت تتوقين إلى مشط ومرآة .. وزجاجة عطر ..

وأنت الآن تملكين شراء كل ما على الصوانى من سجق .. وكل ما فى الحوانيت من عطور .. ماذا تريدين يا سيدة ؟.

كل شىء تستطيعين الحصول عليه ..

حتى الحرية ؟!!

والسيادة ؟!!

حرية .. فى أى شىء ؟

وسيادة على من ؟

حريتك فى أن تفعلى ما تشائين وقتما تشائين .

ومن الذى يملك هذا ؟..

ما دمت تعملين .. أى عمل .. فأنت خاضعة لمقتضيات العمل .. ومتطلباته .

كل ما تملكينه .. هو حريتك عندما تخلين بنفسك .. حريتك فى فراغك .

ولكل إنسان حق الفراغ .. وحق الحرية فى الفراغ .

وأنت الآن تملكين .. بعض الفراغ ..

وتملكين حرية التصرف فى هذا الفراغ ..

والسيادة .. يا سيدة ..

ليست مطلقة ..

السيادة بالثمن .

يمارسها فيك من يدفع الثمن لك ..

وتمارسينها بدورك على من تدفعين له الثمن .

حريتك إذن يا سيدة وسيادتك .. تحدهما حاجتك .. وخضوعك لهذه الحاجة ..

وبالاستغناء المطلق .. تمارسين الحرية المطلقة .. وتتحررين من آثار سيادة الغير عليك .. وباحتياج الغير إليك .. تمارسين السيادة عليه والتحكم فيه .

وكلما امتلأت كفك .. ازدادت قدرتك على السيادة .. وقدرتك على التحرر .

شيء واحد لا تنطبق عليه كل هذه المقاييس والمعادلات ..

شيء يكمن فى صدرك .. فى قلبك ..

حنين يستيقظ بين آونة وأخرى .. ليذكرك بحرمان .. مكبوت .. تحاولين أن تغلقى أمامه الأبواب وتوصدى الطرق .

ويخيل إليك والوقت يمر .. أنه ضمر .. حتى انتهى .. ولم يعد له وجود .

ولكن .. فى ساعات الرقاد .. وقد خلوت بنفسك تتطلعين إلى النجوم فى ليلة صيف .. أو تكورين نفسك تحت الغطاء فى ليلة شتاء .. يستيقظ الحنين .. ليدفع بالغائب .. إلى صدرك .. تضمينه فى رفق .. وتوسدين رأسك على صدره .. حتى تغفى ..

هذا الشيء يا سيدة ..

لا سلطان لأحد عليه ..

لا قدرة لحريتك على تصيده ..

ولا قدرة لسيادتك .. على إخضاعه .

(٣٣)

ضاع السراب ...

وصلت سيدة إلى بيت دلال .. وقد أخفت الورقات المالية فلم يبق منها ظاهرا فى الحقيبة سوى ورقة واحدة ..

ودقت جرس الباب ، ففتحت لها زهرة الخادمة ..

وسألتها سيدة :

— أين ستك دلال ؟

— فى الداخل .. مع ضيوف ..

ولم تكد سيدة تخطر إلى الصالة حتى أقبلت دلال من الداخل لتقول لها فى لهفة :

— بنت حلال .. أتيت فى موعدك .. عندنا جماعة حضروا منذ نصف ساعة ، وليس هنا أحد من البنات سوى عديلة ..

ولم تكن سيدة تشعر برغبة فى ممارسة أى جهد .. كانت تود أن تخلو إلى نفسها ..

وكانت تحس بعد الخبطة التى حققتها بنوع من الاستعلاء والاستغناء أكدتها فى نفسها الكؤوس الثلاث التى شعشعت فى رأسها !

ونظرت إلى دلال وردت فى ملل وتبرم :

— أنا متعبة يا خالة دلال !

— معلهش يا سيدة .. تحملى .. إنهم تلاميذ ولن يطولوا .

وأحست سيدة والخمسون جنيها فى حقيبتها أنها قد كبرت على العمل مع التلاميذ فأجابت مستنكرة :

— تلاميذ إيه يا خالة .. احنا حانقرد !!

— معلهش يا سيدة يا اختى . غدا يصبحون موظفين قدر الدنيا .. من يدرى .. قد يصبح منهم المدير والوزير ، ويذكرونك بالخير ..

وردت سيدة ساخرة :

— عندما يصبحون مديرين أو وزراء .. يحلها ربنا ..

وأجابت دلال راجية :

— ادخلى يا سيدة ربنا يهديكي .. إن منهم تلميذ بوليس .. قد يصبح بعد سنوات مأمور ويخدمنا .. ومعهم آخر فى الحقوق .. قد يصبح وكيلا للنيابة ..

وأجابت سيدة مستسلمة :

— حاضر يا خالة دلال سأدخل ..

وقبل أن تخطو إلى الداخل سألتها دلال :

— ماذا فعلت مع أنور بك ؟

— رجل طيب .. وعنده القلب ..

— المهم ماذا أعطاك ؟

— عشرة جنيهات ..

— شاطرة .. لا بد أنك بسطته ؟

— يعنى ..

— عندما يرضى .. يدفع عشرة .. وعندما لا تعجبه الواحدة .. يعطيها خمسة ويقول لها سلمى لى على الست دلال !

وضحكت سيدة قائلة :

— لم يرسل إليك سلاماته .. والحمد لله .

و لم تذكر لها ماذا أعطاها ..

خمسون جنيها يا سيدة ؟!

لا بد أن يكون الرجل قد فقد وعيه وهو يعطيها لك ..

ولكنك سألته وناقشته وأصر على أن يمنحك إياها ، وأكد أنك تستحقينها ..

هذا كنز يجب أن تحرصى عليه .

المهم الآن أن تنتهى من هؤلاء التلاميذ !

ودفعت الباب ودخلت الحجرة ..

ووقفت مبهوتة .. مشدوهة !

هذه ليلة عجيبة يا سيدة ..

غير معقول .. أبدا ..

على أحد المقاعد الكبيرة فى الحجرة ، كان يجلس حمدى ، وبجواره عديلة ، وعلى المقعدين الآخرين جلس صديقاه صلاح وطلعت

كان طلعت يرتدى ثياب البوليس . الياقة المغلقة والبنطلون المشدود ذا الشريط الأحمر .. وبدا كأنه قد ازداد طولا وعرضا .. وبدا صلاح قصيرا كما هو ، ولكنه أكثر امتلاء ..

وبعد نظرة عابرة على الصديقين ، استقر بصرها على حمدى .. اخشوشن وجهه .. واعرض منكباه ، وبدا أكبر حجما ، ولكنه ظل مشرقا كما تعودت أن تراه ..

وتملكها ارتباك شديد .. وتزاحمت مشاعرها مختلطة متناقضة ..

الفرحة بلقائه .. والخجل من وضعها الذى تلقاه به .. واللهفة عليه ، والخوف منه ..

وفى زحمة المشاعر المتناقضة المتصارعة .. برزت اللهفة عليه .. أبرزتها نشوة الكأس فى رأسها .. والحنين الراسب فى أعماقها .. هتفت به : « حمدى » !

ونظر إليها فى دهشة هاتفا : « سيدة .. مش ممكن » !

وردت سيدة وأنفاسها تتلاحق : ازيك يا سى حمدى ..

ورد حمدى مأخوذا : ازيك انت يا سيدة ..

وهتف بها طلعت فى صيحة ضاحكة :

— سيدة .. يخرب بيتك .. والله ظننتك شيئا هاما .. فإذا بك سيدة !

وهتفت عديلة فى دهشة :

— هل تعرفون نرجس ؟

وردت سيدة لتختصر الطريق :

— يعرفوننى عندما كنت سيدة . وكنت أعمل فى بيت حمدى بك ..

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، قفزت عديلة على حجر حمدى واحتضنته قائلة :

— أموت فى حمدى .. لماذا لا تأتى إلينا دائما ؟

وصاح طلعت :

— لأنه غشيم !

ثم جذب سيدة من يدها وأحاط خصرها بذراعه بعنف قائلا :

— والله زمان يا سيدة .. طول عمرى نفسىَ فيك ، قربى يا بت !

وأقبلت دلال .. فهتف طلعت :

— وتبقى المعلمة بحالها من نصيبك يا عم صلاح .. طول عمرك تحب العتاق .. حلال عليك يا عم !

ونهضت عديلة من فوق حجر حمدى وجرته من ذراعه إلى إحـدى الحجرات ، وجذب طلعت سيدة من ذراعها قائلا :

— يالله يا بت يا للى زى اللوز .. ادورقى واحلويتى وبقيتى على المكسر ..

وأحست سيدة أن فرصة العمر توشك أن تفلت .

أقبل الغائب الميئوس من لقائه .. يا سيدة .

وسيذهب بعد ذلك إلى غير عودة .

بينك وبينه ما بين طلقتين متضادتين .. لقاؤهما كلمح البرق .. خلال كل هذه المسيرة الطويلة بين الانطلاق والاستقرار ..

ليس هناك ما يربط بينكما سوى شعور أحمق .. مُلِح .. دءوب ..

لم يكن بك أبدا ما يشدك إليه .. أو يؤهلك له ..

كنت له .. كآلاف الكائنات المحيطة به ..

وما عرفت يوما .. ما يمكن أن تطمحى إليه منه .. أو تأملى منه فيه .. ومع ذلك لم يثنك هذا عن الطموح .. مجرد الطموح . والأمل . مجرد الأمل .. وتدفعك مشاعرك .. كظاهرة طبيعية .. ليس لها دخل بما حولها .. أو بمن حولها .. ولكنها تندفع لتصب فى مصب .. لا يحس بها ولا يأبه لها ..

وفى لحظة من اللحظات .. لحظة مضيئة خاطفة كلمح البرق ، يتيح القدر فرصة لقاء ، بغير تمهيد ولا تحضير .. وبغير تخير ولا انتقاء .: لا تخير فى كيف يمكن أن تقع من نفسه .. ولا أى أثر يمكن أن تتركه فى قلبه .. ولا أية ذكرى يمكن أن تخلفها فى ذهنه .. لقاء محتوم بغير بديل .. إما أن تتقبله كما هو ، أو ترفضه .. وهى تشعر أنها لا يمكن أن تعرض عنه ، لأنها تتلهف عليه ، ولأنها يمكن أن تمنح نفسها به أمنية العمر ، ولو للحظة .. ولأنها تستطيع أن تمنح به حمدى أقصى ما يمكن أن تمنحه لإنسان من متعة على ظهر الأرض .

ومن أجل هذا قررت أن تقبل على اللقاء ، وألا تترك الفرصة تفلت ..

وقبل أن تتحرك عديلة لتجذب حمدى إليها صاحت سيدة :

— انتظرى يا عديلة .. إنهم كلهم فى ضيافتى ، إنى أدعوهم للعشاء .. وللسهرة .. بأكملها على حسابى ..

ونظرت دلال فى دهشة إلى سيدة كأنها قد جنت ، وصاحت ساخرة :

— ما شاء الله .. منذ متى هذا الكرم .. هل أنت حمل ما تقولين ؟

وردت سيدة فى تحد :

— وأبوها يا معلمة !

— الظاهر أن المبلغ الذى قبضته يقرصك فى يدك ؟!

حمدى بك خيره سابق .. طول عمرهم أفضالهم على ..

— وبدا الحرج على وجه حمدى ، ونظر إلى صديقيه فى قلق وضيق .

وهتف صلاح :

— والله العشرة طمرت فيك يا سيدة !

وقال طلعت :

— خلاص يا عم حمدى .. حانسهر الليلة تبعك ، ولن نحضر بعد ذلك إلى هنا بدونك !

وقال صلاح :

— هل تظن أن الدعوة مؤبدة ؟

وردت سيدة :

— أنا فى خدمتكم دائما ..

وأجاب طلعت وهو يجرها إليه فى حماس :

— عشت يا سيدة .. والله أصيلة ..

وتخلصت منه سيدة وصاحت منادية الخادمة :

— زهرة ..

وأقبلت الخادمة فأمرتها قائلة :

— حضرى السفرة .. بعد إذنك يا خالة دلال .

وتساءلت دلال وهى ما زالت فى دهشة من تصرف سيدة :

— ومن سيعد لك العشاء ؟

— سأطلبه بالتليفون من الحاتى . هل هناك ما يمنع ؟!

ورفعت دلال كتفيها فى استسلام قائلة :

— أبدا .. افعلى ما يحلو لك .. ما دمت ستدفعين الثمن ..

وقالت سيدة مؤكدة :

— قلت لك السهرة كلها على حسابى يا معلمة !

— انتهينا .. أنت وشأنك ..

ونظرت سيدة إلى الأصدقاء الثلاثة .. وكان حمدى ما زال واقعا تحت تأثير الدهشة من لقاء سيدة وتصرفها ، وكانت الحيرة والقلق والضيق لا تزال تكسو

وجهه :

وقالت سيدة :

— ماذا تشربون ؟

وأجاب طلعت بسرعة :

— ويسكى بالصودا !

وأردف صلاح :

— وأنا مثله ..

ونظرت سيدة إلى حمدى وقد بدا مطرقا صامتا وسألته :

— وأنت يا سى حمدى ؟

ورد حمدى :

— أنا ؟.. لا شىء ..

وقال طلعت محتجا :

— يا أخى .. إلى متى ستظل هكذا غشيما ؟ اطلب شيئا ..

وأجاب حمدى وقد بدا عليه الشرود :

— متشكر ..

ورد صلاح :

— اطلب واحد ويسكى وسأشربه أنا !

ولم يجب حمدى ، وقالت عديلة ضاحكة :

— سأعرف أنا كيف أجعله يشرب ..

وقال طلعت :

— لا فائدة .. كان غيرك أشطر ..

وخرجت عديلة لتعد الكئوس ، ونظرت سيدة إلى حمدى ، وقد بدا فى شروده واجما ، واقتربت منه واتخذت مجلسها على مقعد مجاور وسألته فى صوت شبه هامس :

ــ هل ضايقك شيء ؟
وهز رأسه ، وقال وهو يحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة :
ــ أبدا !..
ــ هل ضايقك وجودى ؟
ــ أدهشنى !!
ــ وأنا أيضا أدهشنى وجودك .. كنت آخر من أتوقع رؤيته ..
وصمتت برهة ثم أردفت كأنما تحدث نفسها :
ــ وأول من أتمنى رؤيته ..
ولم يرد حمدى بل استمر فى شروده الواجم .
وعادت سيدة تتساءل :
ــ وكيف حال العائلة كلها ؟
ــ بخير ..
ــ والست الكبيرة ؟
ــ لا بأس بها .. أصيبت بالسكر ..
وردت سيدة فى جزع :
ــ سلامتها ألف سلامة .. وكيف حالها ؟
ــ ماشية بالأنسولين .. تعلمت إعطاء الحقن من أجلها ..
ــ والست سميحة ؟
ــ تزوجت وذهبت مع زوجها إلى أسيوط .
ــ والست الكبيرة تعيش وحدها ؟
ــ عمتى تزورها دائما ، وابنتها كوثر تكاد تقيم معنا ..
ــ كوثر بنت أميرة وحلوة وطيبة .. لا بد أنها كبرت الآن ؟
ــ يعنى ..
ــ كانت تبدو دائما أكبر من سنها .. هادئة وعاقلة ..

ــ إنها تؤنس وحشة أمى .. وتخدمها ..
ــ وسيدى الكبير .. كيف حاله ؟
ــ مات !..
وازدردت سيدة ريقها ، وقاومت دموعا همت بأن تطفو من عينيها وقالت فى لهجة حزينة :
ــ الله يرحمه ، كان رجلا أميرا .. هده موت سى محمد .. لست أنسى منظره يوم وفاته .. ربنا أراحه .
وأقبلت عديلة تحمل صينية صفت عليها الكؤوس ، وأعطت كأسا لطلعت وأخرى لصلاح ثم أقبلت على حمدى تقول ضاحكة :
ــ أما أنت فسأتكفل بك !..
ثم قالت لسيدة وهى تحاول أن تأخذ مقعدها :
ــ دعيه لى يا نرجس ..
وكان حمدى ما زال يبدو مطرقا شاردا ..
وأردفت عديلة تقول :
ــ مالكم تجلسون هكذا كأنكم فى محزنة ؟.. اتركيه لى وسأعرف كيف أفرفشه ..
ونظرت إليها سيدة قائلة فى حزم :
ــ إنه ضيفى يا عديلة !..
وردت عديلة ساخرة :
ــ ورثته من أين ؟
ــ قلت لك إنه ضيفى !
ــ سأشرب معه هذه الكأس ..
ــ أنه لا يريد أن يشرب .. فخذى الكأس واذهبى ..
وصاح طلعت يستحث سيدة :

— تعالى يا سيدة نشرب فى صحتك ..

وقالت عديلة ضاحكة :

— طلعت بيه يريدك يا سيدة ..

— اذهبى إليه أنت ..

— ولكن حمدى بك كان جالسا معى ، وهو يريدنى ..

ونظرت سيدة إلى حمدى وأحست أن عليه أن يقول شيئا يحسم به المناقشة ..

ولم ينطق حمدى !..

حمدى .. لا يحب أن يخذل أحداً ..

لن يقول أبداً لعديلة إنه لا يريدها ..

ولن يخذلها هى أيضا ..

هى وعديلة عنده كآلاف الناس .. لا يميزهم عنده سوى حاجتهم إليه .. وقدرته على معاونتهم ..

ميزتها عنده .. أول مرة .. حاجتها إليه وهى تقف وسط الناس عقب سرقتها من البقال وهم يوشكون أن يفتكوا بها وميزها بعد ذلك كل إحساس منه بأنها تحتاج إلى عونه .. عندما كانت تحمل السلال فى الطريق إلى المدافن .. وعندما كانت تثقل عليها السجاجيد عند التنفيض .

ولكن هل يمكن أن يحس الآن مدى حاجتها إليه ؟

هذا الجسد الذى أذلته الحاجة .. والذى تمرغ هوانا بين أحضان بغيضة كريهة ..

يحتاج مرة واحدة .. إلى أن يأنس بين أحضانه ..

إلى أن يستقر فى هدوء .. بغير هوان ولا مذلة ..

أن يكرم مرة واحدة .. بالاحتواء فى ملاذ يحس فيه بالأمان والسلام .

ولكن .. أنى له .. أن يدرك منها هذا الاحتياج ..

بل أنى لمخلوق على ظهر الأرض أن يفهم مشاعرها كإنسانة .. لها احتياجات

الإنسان ..

أنى له .. ولا إلى مخلوق على ظهر الأرض أن يدرك أن احتياجها له .. احتياج إلى أن تعز نفسها بعد طول ذل .. وتكرمها .. بعد طول مهانة .. أنى له .. أو لغيره .. أن يدرك هذا .. من مخلوقة تتجر بجسدها .. وتعرضه .. بين الكؤوس فى بيت دعارة .

لم ينطق حمدى ..

لأنه لم يدرك هذا ..

كانت سيدة تتساوى فى نظره مع عديلة ..

وهو يكره أن يخذل أيا منهما ..

وكان على سيدة أن تقول شيئا تحسم به الأمر وهى ترى عديلة مصرة على الجلوس مع حمدى ..

ونظرت إلى عديلة وقالت فى لهجة حازمة ناهرة :

— قلت لك إنه ضيفى ، فاذهبى وكفى لماضة !

وأطلقت عديلة ضحكة مقهقهة وقالت فى سخرية :

— إذن فلقد اشتريته بالعشوة !

ورفع حمدى حاجبيه فى دهشة وبدا عليه الضيق والغضب .

وشعرت سيدة بما يمكن أن يتركه قول عديلة من أثر فى نفسه .. وأحست بالدم يغلى فى عروقها وبلا وعى وثبت من مكانها وطوحت ذراعها ، وانهالت بكفها على صدغ عديلة فى صفعة رنت فى الحجرة صائحة فى غضب :

— يا مجرمة !.

سقطت الكأس بالصينية من يد عديلة ومرت لحظة ذهول ساد الصمت الحجرة ، ثم وثبت عديلة على سيدة وأمسكت بخناقها صائحة :

— يا بنت الكلب .. أنا المجرمة ..

وقفز حمدى ففصل بينهما فى سرعة البرق ، وجرت دلال عديلة بعيدا وهى

تواصل قذف سيدة بالشتائم المنتقاة ودلال تقول فى دهشة :

— إيه ده يا بنت منك لها .. اتجننتم .. والا جرى لعقلكم حاجة .

وأقبل طلعت وصلاح يتساءلان فى دهشة عما حدث .

وأحس حمدى أن عليه أن يحسم الموقف فنظر إلى ساعته .. وقال فى لهجة حاسمة محاولا أن يتمالك نفسه :

— الساعة جاوزت العاشرة ولا بد أن أنصرف .

وصاح طلعت :

— تنصرف .. لماذا ؟

— لأن لدى موعدا .

— موعد ؟! الآن ؟

ورد حمدى فى إصرار :

— أجل .

— ولكنك لم تخبرنا به من قبل .

تذكرته الآن .

وقال صلاح وهو يحس أن العشوة والسهرة المجانى توشك أن تطير :

— ماذا حدث يا حمدى ؟

وهز حمدى رأسه فى إصرار قائلا :

— لا شئ .

وتساءل طلعت :

— هل ستنصرف .. من أجل هذا القلم الذى رن على صدغ عديلة ؟

وأردف صلاح ضاحكا :

— الظاهر أنه ليس لديه فكرة .. هذه أشياء طبيعية جدا .

وقال طلعت مشاركا صلاح فى ضحكته :

— صفعة تفوت .. ولا حد يموت .. اجلس يا أخى .. اجلس الله يهديك ..

ومد صلاح يده محاولا جذب حمدى ليجلسه فوق المقعد .

— اجلس واخزى عين الشيطان ..

ولكن حمدى .. لم يجلس . ولم يضحك . بل استمر واقفا وعلى وجهه مخائل التجهم .

وأحس طلعت باليأس منه فقال وهو يدرك أن عليهما أن يدفعا ثمن السهرة .

— لا فائدة .. ضاعت السهرة .

وقال صلاح :

— ضاعت لماذا .. سأبقى أنا .. إذا أراد حمدى أن ينصرف فلينصرف .

ورد طلعت وهو ينظر إلى سيدة قائلا :

— وسأبقى معك .

وكانت سيدة تعرف أن حمدى لن يبقى ..

وأحست بأن شيئا يدمى فى داخلها .

مر الشهاب .. وانطلق فى سبيله .

لا فائدة .

لوح لها به القدر .. ليدمى القرح الملتئم .. وينكأ الجرح المندمل .

بعث به إليها .. ليذكرها بضآلتها .. أمام نفسها .. رغم ما توهمته من إحساس بالسيادة .. وبعبوديتها لمشاعرها .. رغم كل ما تخيلته من حرية .. وبعجزها أمام رغباتها .. رغم الأوراق الخمس التى نفخت أوداجها .. وملأتها كبرا .

وسار حمدى تجاه الباب وهو يقول فى هدوء :

— عن إذنكم .

وضربت دلال كف بكف وهى تتساءل فى دهشة دون أن تدرى سببا لما حدث :

— حقا .. ليس لك فى الطيب نصيب .

ثم أردفت وهى تمصمص بشفتيها :

— حد يحرم نفسه من سهرة وعشوة بلاش ؟.. مع بنات زى اللوز حقا بطلوا ده واسمعوا ده .

ثم التفتت إلى طلعت متسائلة :

— هو الجدع إيه اللى زعله ؟

وأجاب طلعت ضاحكا :

— لأن سيدة لهفت عديلة كفا .

— طيب وهو ماله ؟

— لأنه هو السبب .

— اشمعنى ؟

وتطوع صلاح للتفسير :

— لأن عديلة كانت عايزة تلطشه من سيدة .

وعادت دلال تتساءل فى نفس الدهشة :

— طيب وده شىء يزعل ؟

ورد طلعت ضاحكا :

— وسيدة عايزة تلطشه من عديلة .

وازدادت دهشة دلال وهى تتساءل محاولة المزيد من الاستفسار :

— حلو !!. وبعدين ؟

— عديلة لقحت على سيدة .. سيدة لطشتها كف .

ونظرت دلال إلى حمدى وهو يتجه نحو الباب وعلقت ساخرة :

— ده لازم سره باتع .. لن ترضيه غير المعلمة دلال بنفسها ..

ثم صاحت ضاحكة :

— خليك يا ابنى على حسابى أنا ؟

وأحست سيدة بما يمكن أن يحس به حمدى من هذه المناقشة العجيبة الدائرة

حوله .

وكان حمدى قد وصل إلى الباب الخارجى ودون أن يتلفت وراءه ودون أن يعلق بكلمة على كل ما قيل قال فى هدوء :

— تصبحوا على خير .

وردت دلال :

— وانت من أهله يا روحى .. ابقى فوت .

ولحقت به سيدة عند الباب وصوت عديلة يصيح :

— اشبعى به يا اختى ..

ثم قالت مازحة :

— لازم واخده عليه من أيام ما كنت بتمسحى البلاط وتقعدى على طشت الغسيل ؟

وخرجت سيدة وراء حمدى وهى تهتف به :

— سى حمدى .

والتفت إليها حمدى وقد بدت المرارة فى وجهه ورد عليها :

— أيوه يا سيدة .

— أنا متأسفة يا سى حمدى .

ونظر إليها حمدى نظرة شاردة وكأنه لا يراها .. وعادت تقول :

— لم أكن أقصد أبدا شيئا مما حدث ..

— حصل خير .

وتمتمت بصوت هامس وكأنها تحدث نفسها :

— ظننت أنى أستطيع أن أتحدى القدر .. مرة .. ولكنى كنت حمقاء .

ونظر إليها حمدى نظرة فاحصة أحست وكأنها تقف أمامه أول مرة .. وهى متلبسة بسرقة البقال والناس يتصايحون من حولها .

ولم يسألها « هل سرقت ؟ »

ولكنه سألها فى هدوء :

— ما الذى دفعك إلى هذا الطريق ؟.. لماذا ؟

وأطلقت زفرة حارة .

ولم تسأله .

ولماذا مات أبوك ؟

وتركتك صفاء ؟

ولماذا لم تحبنى ؟.. أو تدرك مرة واحدة .. أنى ما أحببت فى الدنيا غيرك .

لماذا كل هذا ؟

من منا يزرع الشوك فى طريقه ؟

ولكنها لم تقل شيئا من هذا .

ما الفائدة ؟!!

وتمتمت باختصار .

— قدرنا .

ونظر إليها نظرته العطوف التى نظر بها إليها يوم أن قالت له « أجل .. إننى سرقت » .

وتساءل حمدى وهو يمسك بكفها فى كفه :

— هل أستطيع أن أفعل لك شيئا ؟

وتمنت لو استطاعت أن تسأله أن يأخذها معه كما سألته أول مرة .. لينقذها من الضياع .

وأحست أنها على استعداد .. لأن تتبعه كما تبعته أول مرة .. مجرد .. تابعة ..

وتضاءل أمامها فجأة .. كل ما اكتسبته من رونق .. وانكمشت فى نفسها كل مظاهر .. الحرية .. والسيادة ..

ولاذت بالصمت فلم تنطق بكلمة .

وشد حمدى على يدها قائلا :

— تصبحى على خير .

وقبل أن تفلت يده من يدها تساءلت فى نبرات حزينة :

— هل أستطيع أن أزوركم يوما ؟

ونظر إليها حمدى مؤكدا :

— بالطبع .

— ولن تخبرهم بشىء عنى ؟

وهز حمدى رأسه مؤكدا :

— مطلقا .

وقبل أن تفلت يده من يدها أحنت رأسها ومستها بشفتيها .. وأحس حمدى بقطرات دمع تندى أصابعه .

وسحب يده برفق ثم تحسس رأسها فى عطف وقال :

— إذا احتجت إلى أى شىء .. فتعالى إلى .. بيتنا مفتوح لك دائما ..

وهزت رأسها بالشكر .

وهبط حمدى على الدرج .. ووقفت تنصت إلى وقع خطواته تتباعد .

أفلت الطيف يا سيدة ..

وضاع السراب ..

عودى إلى صحرائك الجافة .. لتضربى فيها باحثة عن حرية موهومة وسيادة كاذبة .

(٣٤)

طريق جديد ..

واصلت سيدة حياتها فى بيت دلال .. منهمكة فى أداء عملها بين البيت والشقق الخاصة الهادئة المظهر الصاخبة الباطن .

وتدفقت النقود فى يديها ..

وكانت تعرف قيمتها جيدا .. تعرف كيف تحولها إلى مصوغات . كما علمتها سيدتها فاطمة عندما كانت تجمع أجرها شهرا بعد شهر .

وعرفت شيئا جديدا .. اسمه البنك .. يمكن أن تضع فيه نقودها . وبدفتر شيكات تصرف منها قدر ما تريد .

وتعلمت من القراءة والكتابة ما أمكنها من أن تقرأ عناوين الصحف . وتكتب اسمها فى أسفل كل شيك .

ولم تكن تحس بارتباط كبير بينها وبين هذه العناوين التى تملأ رءوس الصحف .

مات ملك .. وجاء ملك .

سقطت وزارة .. وتألفت وزارة ..

كل هذا لم يكن يعنيها فى شيء ..

لم تكن تحس أن شيئا مما حولها يمكن أن يتأثر بهذه الأحداث التى تقفز إلى عناوين الصحف .. وتتفجر على ألسنة الباعة كأنها طلقات الفشنك .. دوى بلا إصابة .

أكبر الظواهر .. وأضألها .. كان يبدو فى موضعه وكأنه يهز كتفه بلا مبالاة ..

النيل يتدفق أسفل الكبارى .. وجبل المقطم يتعالى من بعيد وراء أبنية القاهرة ..

وبائع الترمس يقف وراء عربته . والقلل مرصوصة لكل عابر سبيل .. والطعمية تطشطش فى زيت المقلاة .

ظواهر .. لا يأبه لها إنسان .. يؤخذ بتلك الأحداث ذات الدوى .. ومع ذلك فهى أبقى من الأحداث .

الحكام يتتابعون .. فيثيرون الضجيج على عناوين الصحف .. وبعد أيام يذهبون إلى حيث لا يعرف أحد .

والنيل يتدفق والمقطم يرقب المدينة فى صمت .. وبائع الترمس ينادى « لوز » .. ورشاش الزيت يتطاير كلما سقط فيه قرص من أقراص الطعمية .

والناس يسيرون فى الشوارع ، أو يجلسون على مقاعد المقاهى أو يرقدون فى الدور ..

والعناوين البراقة .. تضوى ثم تختفى ..

ولا يبقى من كل هذه الغلبة إلا ما ينفع الناس ..

﴿ أما الزبد فيذهب جفاء ﴾ .

وأكثر ما يثير الضجيج زبد يذهب فى الأرض جفاء .. أما ما ينفع الناس .

فأقل القليل .. ولا يدركه الناس أنفسهم .. إلا بعد أن يطوى الزمن أصحابه .

ومرت الأيام بسيدة .. برصيد يزداد فى البنك .. كان صاحب الفضل الأول فيه .. هو أنور بك الذى أخذ ارتباطها به يزداد مع الأيام .. عندما أخذ يألفها يوما بعد يوم .. يشعر أنه لم يعد له غنى عنها .

ولم تر حمدى بعد آخر لقاء .. وإن واصل أصدقاؤه من زبائن البيت حمل أخباره إليها .. وكان آخرها أنه تخرج فى كليته وبدأ العمل فى الصحافة فى جريدة البلاغ .

وزارها عباس مرة ..

وفوجئت هي بزيارته .. وإن لم يفاجأ هو .. فقد أدرك أنه يعرف أنها تعمل فى بيت دلال .

وكان منظره جديدا عليها .

كان يرتدى بدلة كحلية أنيقة وطربوشا أحمر مائلا على أحد حاجبيه ويمسك منشة فى يده ويضع قرنفلة حمراء فى عروة جاكتته .. وفى قدميه حذاء أسود لميع يضع فوقه جترا رماديا .

وقدمته إليها دلال بقولها باحترام :

ـــ عباس بك البرعى .

ولم يكن القالب الذى وضعت عليه كل هذه الأبهة قد تغير فى شيء اللهم إلا بعض امتلاء النعمة والراحة .

وأقبلت عليه سيدة وحيته وهى تقول فى نغمة لا تخلو من السخرية :

ـــ أهلا وسهلا عباس بك .

وقالت دلال :

ـــ أظن الحكاية معرفة قديمة .

ورد عباس ضاحكا :

ـــ قديمة جدا .

وقالت دلال :

ـــ إذن أطلع منها أنا .. عن إذنكما .

ولم تكد تختفى دلال حتى هتفت سيدة فى دهشة :

ـــ ما الذى فعل بك هذا يا عبس ؟

ورد عباس ضاحكا :

ـــ فعله من فعل بك هذا .

وأشار إلى جسدها من أسفل إلى أعلى .. وهى ترتدى ثوبا ملتصقا بجسدها .. وقد فاح منها العطر ليملأ الحجرة .

ونظرت إليه سيدة نظرة لا تخلو من الخبث وقالت متسائلة :

ـــ أفهم من هذا أنك بدأت تعمل .

ـــ أعمل فى ماذا ؟

ـــ فى أى عمل .. المهم أن تعمل .. وأن تحب عملك وتتقنه .. كما قال لك أبوك .

ـــ وهل أنت تعملين ؟

ـــ أجل .

ـــ وتحبين عملك .. وتتقنينه ؟

ـــ أحاول .

ـــ آخر مرة قلت إنك لا تستطيعين أن تحبيه .

ـــ مع الزمن اعتدته .. وروضت نفسى عليه .

ـــ وبت تتقنينه ؟

ـــ أعتقد .. وإلا لما أصبحت فيما أنا عليه ..

ورد عباس ضاحكا :

ـــ يبدو عليك أنك أتقنته جدا ..

وعاد يرمقها بنظرته الفاحصة .

ـــ بدا عليك العز يا سيدة .. سمعتهم ينادونك بنرجس هانم .

ـــ كما ينادونك بعباس بك ..

وصمتت سيدة برهة ثم عادت تتساءل وهى ترمق المنشة فى يده والخاتم ذا الفص الأحمر فى أصبعه :

ـــ لم تخبرنى بعد .. من أين لك هذا ؟

ـــ باختصار .. ورثت .

ـــ من ؟

ـــ هذه المرة أبى .

— المعلم برعى مات ؟
— الله يرحمه .
— ألف رحمة .. كان رجلا طيبا .. وجادا .. للأسف لم يورثك شيئا من خصاله .
— الحمد لله .. أورثنى ما هو أفضل .
— ماذا ؟
— أشياء قيمة لم أعرف بها إلا بعد موته .. بعضها فى البنك .. وبعضها فى درجه .. غير بيت فى الدراسة وحتة أرض .. لا أدرى أين ؟
— وماذا فعلت بها ؟
— ما لم يستطع هو فعله .. اشتريت عربة .. وأخذت شقة على وش الدنيا فى شارع خيرت عملت فيها مكتبا واستراحة .. ولبست وعشت .. واستمتعت ..
— والمطبعة ؟
— ما لها ؟
— ماذا فعلت بها ؟
— شغالة كما هى .
— من الذى يعمل بها ؟
— الاسطى عبد الرحمن .. وبقية العمال كما هم .
— أعنى من الذى حل محل أبيك ؟
— أين ؟!!
وأجابت فى غيظ :
— فى المطبعة .. ألا تذهب إلى هناك ؟
— من آن لآخر أذهب لآخذ الإيراد .. واهى ماشية .
وتنهدت سيدة قائلة :

— حقا .. مال الكنزى للنزهى .. خزن أبوك نفسه فى الجحر .. لكى تطفو أنت بأمواله على وش الدنيا ..
وضحك عباس قائلا :
— قولى يا باسط .
— إلى متى ؟.. إلى أن تصرف القرشين وتجلس على البلاطة ..
وعادت تنظر إليه فى غيظ متمتمة :
— طول عمرك يا ردا .. وانت كده .
— يا ستى خليها على الله .. حد واخد منها حاجة .. قومى بنا .
ونظرت إليه سيدة متسائلة فى سخرية :
— معك بونات ؟
واندفع عباس مقهقها :
— انت فاكرة .
— ماذا فعل العسكرى بك يومها ؟
— ذهب بى إلى القسم .. وهفونى علقة .. ضحضحتنى .. قال لى الباشجويش يومها وهو يهوى على بكفه « طب زور لك حاجة عدلة .. مالقيتش غير البونات الوسخة دى اللى تزورها » .. ومن يومها .. تبت .
ثم مد يده إلى المحفظة فى جيب البنطلون قائلا :
— لم تعد بنا حاجة إلى البونات .. معنا ما يكفى من البنكنوت .
وتعودت أن تراه بين آونة وأخرى وفى كل مرة تعرف أنه باع شيئا مما ورث يستنفده فى متعاته .. حتى انقطع ما بينهما بعد أن تركت بيت دلال .. واستقرت نهائيا فى شقة أنور بك .
كانت زيارتها لشقة أنور بك قد أخذت تتزايد .. حتى أصبحت لا تكاد تجد وقتا لزبائن دلال .
وفى ذات مرة دق جرس التليفون فى بيت دلال .

وردت دلال .. وعرف أنور صوتها فقال :
— مساء الخير يا ست دلال ..
— خير عليك .. أهلا وسهلا .
— أين نرجس ؟
— نرجس .. ذهبت فى مشوار .
— أين ؟
— والله ذهبت تقضى مصلحة .
— ومتى ستعود ؟
— لا أعرف بالضبط ..
وتساءل الرجل فى عصبية :
— لا يعرف أحد أين ذهبت .. ولا متى تعود .. شىء غير معقول .. من فضلك عندما تعود .. تضرب لى تليفون فورا ..
— حاضر . من عنيه الاثنين .
ووضعت دلال السماعة وهى تضرب كفا بكف قائلة :
— الرجل انهبل .. حقا بطلوده واسمعوده .. هى البنت مقطوعة لـه .. راحت فين .. جت منين .. وراها شغل يا ادلعدى .
وعندما عادت سيدة قالت لها دلال فى سخرية :
— المحروس .. سأل عليكى .
— من ؟
— بسلامته سى أنور بك .. لا يستطيع أن يصبر على بعدك ..
ونظرت إليها نظرة متبرمة ثم تساءلت فى ضيق :
— كم يعطيكى على كل هذا ؟
— عشرة جنيهات .
— لا ينفعوا .. اطلبى عشرين .. ما دام قد علق بك بهذا الشكل .

— كيف أطلب عشرين ؟
— كيف تطلبين عشرين ؟. كما تطلبين العشرة .
— ولكنه يضعها لى فى الشنطة كل مرة ..
— قولى له إنك فى احتياج إلى نقود .. والا حاتعملى نفسك غشيمة .
— سأعمل جهدى .
— أنا أنصحك لصالحك .. إنك ستستفيدين مثلى .
وهمت سيدة بأن تخطو إلى الداخل عندما هتفت بها دلال :
— اطلبيه فى التليفون .. إنه فى انتظارك .
ودقت سيدة التليفون .. ودارت محادثة قصيرة .
— أنا نرجس .
— أين كنت ؟
— فى مشوار .
— مشوار .. أين ؟
— شغل .
— أنا منتظر .
— الآن ؟
— أجل ..
— حاضر .
وتركت السماعة واتجهت إلى الباب قائلة :
— أنا ذاهبة يا خالة دلال ..
— شدى حيلك .. ما دام ملهوف كده .. لن يرد لك طلبا .
وبعد برهة كانت سيدة تقف أمام باب شقة أنور تدق الجرس .
وفتح الرجل الباب . وكان وجهه يبدو متجهما وسألها فى عصبية :
— أين كنت ؟

وردت سيدة فى عصبية مماثلة وقد أثارها أن يلقاها بمثل هذا التجهم :
— قلت لك كنت فى مشوار .
— أين ؟
— ولماذا تسأل ؟
— لأنى أريد أن أعرف أين كنت بالضبط .
— كنت فى داهية .
— لا داعى لقلة الأدب .
— قلت لك كنت فى شغل .
— أى شغل ؟
— ألا تعرف ما هو الشغل ؟
— قولى إنك كنت مع رجل .
وبتحد أجابت سيدة :
— أجل كنت مع رجل . ألا تعرف أن هذا هو شغلى ؟
وبدا الضيق والغضب على وجه أنور بك وصاح بها :
— من الآن .. أريدك أن تنهى هذا الشغل الذى تتحدثين عنه بمثل هذه البساطة .
— أظنك عرفتنى بواسطته .
وصاح بها :
— أجل .. ولكنى أريد أن تنهيه .
— ولماذا ؟
— لكى تبقى هنا ..
— كيف ؟
— سأعطيك هذه الشقة .. وسأفرشها لك من جديد .. وأعطيك كل ما تريدين .

وصمت الرجل برهة يتالك أنفاسه ثم عاد يقول بنفس الحدة :
— على أن تنهى كل علاقة لك بدلال .. وبكل من تعرفين ..
— وماذا يجبرنى على ذلك ؟.
— قلت لك سأعطيك كل ما تريدين .. سأضع باسمك فى البنك ألف جنيه .. وسأكتب هذه الشقة بكلّ ما فيها باسمك .. وسأعطيك فى الشهر مائة جنيه مصروف يدك .. عدا ثيابك ومصروف البيت وكل ما تحتاجين إليه .
واسترخت سيدة فى مقعدها ..
وانطلق ذهنها يفكر .
هذا طريق جديد فتحت أبوابه أمامك .
طريق .. يربطك بهذا المخلوق الجالس أمامك .. بكل ما فيه من حسنات وسيئات ..
ستصبحين تابعة له .. بطريقة مّا ..
طريقة غير شرعية بالطبع ..
ولكنها ستلصقك به .
ستستمتعين بكل خيراته .. ستكون لك اليد الطولى عليه ..
ولكن ماذا يمكن أن يبقى لك من خيراته .. مع القطيع الملتصق به .. أو القبيلة التى يتزعمها ..
أم عبده زوجته .. ذات الوشم على ذقنها .. والأولاد التسعة .. والأحفاد .. الثانية عشر ..
ماذا يمكن أن تنال هى .. من هذه القبيلة ذات الحقوق المشروعة ؟
هل ممكن أن تأمل فى مركز شرعى .. تدخل به فى قتال مع القبيلة ؟
أم تبقى عشيقة .. تنهب كل ما تستطيع أن تنهبه .. قبل أن ينتهى بها الأمر على رصيف الطريق .
على أية حال إنها فرصة .. يجب ألا تترك ..

ومصيرها .. أولا .. وآخرا على الرصيف ..

المهم .. هو ما يمكن أن يكون فى جيبها .. بعد آخر رمية على الرصيف .

ولكن هل ممكن أن تحتمل السجن مع صاحبنا هذا ؟..

و لم لا .. هو أو غيره .. سواء ..

المهم .. الثمن .

وهو من غير جدال .. أقدر من عرفت على دفع الثمن .

وعاد أنور بك يستحثها فى شبه استعطاف :

— ماذا قلت ؟

ونظرت إليه فى شرود قائلة :

— دعنى أفكر .

واقترب منها أنور بك .. وتحولت لهجته إلى توسل قائلا :

— سأعطيك كل ما تريدين .. إنى لم أعد أستغنى عنك .. لم أعد أشعر بالراحة إلا فى جوارك ..

وصمتت سيدة وقد زاد بها الشرود .

أيمكن أن يكون هذا الجالس أمامها بديلا لحمدى ؟

ولكن .. أين حمدى ؟..

ولماذا تحاول أن تخلق له وجودا فى حياتها .. لتجعله موضع مقارنة مع سواه ؟

لماذا تترددين يا حمقاء . كنز وانفتح لك .. كيف تحجمين عنه ؟

اقبلى يا جربوعة قبل أن تضيع الفرصة ..

اقبلى وافعلى بعد ذلك ما تشائين ..

ستصبح لك شقة فاخرة .. وستحصلين على كل ما تشائين من ثياب وحلى .. وسيبقى بعد ذلك فى يدك مائة جنيه .

حلم .. يا سيدة .. ما جسرت يوما على أن تحلمى به .

ونظرت سيدة إلى الرجل ثم قالت فى هدوء :

— حسن .. سأبقى معك .

وتهلل وجه الرجل وأقبل عليها يضمها إليه .

ومد يده بمفتاح الشقة قائلا :

— خذى مفتاحا معك .. وسيبقى آخر معى .

ثم جلس إلى المنضدة وأخرج من جيبه دفتر الشيكات وكتب :

« ادفعوا لحامله مبلغ خمسمائة جنيه » وأمضى إمضاء لا يقل ركاكة عن إمضائها . ثم مد يده إليها بالشيك قائلا :

— خذى .. خمسمائة تحت الحساب .. دبرى بها أمرك .. اشترى ما تريدين من الأثاث . والثياب .

وتناولت سيدة الشيك ببساطة فى حقيبتها ثم قالت :

— دعنى أعود إلى دلال .. لأصفى موقفى معها .

— وماذا لديك عندها ؟

— ملابسى ومصوغاتى .

وبدا التردد على وجه أنور بك وقال فى خشية :

— أخشى إن عدت إليها أن تدير رأسك وتغير رأيك .

— لا تخش شيئا .. لن يستطيع أحد أن يغير رأيى .. إلا أنت .. بتصرفك ومعاملتك .

— اطمئنى .. سأفعل ما يريحك .

وغادرت سيدة الشقة عائدة إلى بيت دلال .

وفتحت دلال الباب لتسألها فى دهشة :

— عدت بسرعة !

— أجل .

— لماذا ؟. هل تعاركتما ؟

— أبداً .

— إذن ما الحكاية ؟
— لقد سألنى أن أبقى معه .
— ولماذا لم تبقى ؟
— أبقى معه .. على طول !!
— كيف ؟
— أعطانى مفتاح الشقة .. وطلب منى أن أنقطع له .
— وماذا قلت ؟
— وافقت .
— تنقطعين لأنور بك .. لماذا ؟
— لأنه — كما قال — لا يستطيع أن يستغنى عنى .
— وماذا سيعطيك .. سواد عينيه ؟
— قال أنه سيعطينى ما أريد .
— هل سيتزوجك ؟
— لم نتحدث فى هذا .
— ولماذا لم تطلبى منه ذلك ؟
— ولماذا اطلبه ؟
— لكى ترثيه .
وضحكت سيدة قائلة :
— لم يطف بذهنى أن أرثه .. وهو يقف أمامى كالحصان .
— إذن ماذا سيعطيك ؟. سيأخذ مزاجه منك ثم يلقيك على الرصيف .
— يا ستى ... عندما يأخذ مزاجه .. يحلها الحلال .
— اسمعى نصيحتى يا بنت .. هذا الصنف لا يؤتمن .. بين يوم وليلة .. يمل منك فيلقيك فى الطريق ، لا بد أن تضمنى شيئا فى يدك ..

— طبعا سأفعل هذا .. أنا لست غشيمة يا خالة دلال .. أنا صبيتك ..
— ومتى ستذهبين إليه ؟
— الليلة .
— ولماذا هذه العجلة ؟
— لقد كان يرغب فى أن أبقى معه .. ولكنى قلت له إنى لا بد أن أعود لأودعك .
— فيكى الخير .
ودخلت سيدة إلى حجرتها لتحزم حاجاتها .
وباتت ليلتها فى شقة أنور بك .. أو شقتها .
ومنذ ذلك الحين .. استقر بها المقام فى مقرها الجديد ..
أصبحت سيدة .. سيدة محترمة .. لها سفرجى وطباخ ..
وتم لها كل شىء لكى تصبح .. مدام أنور بك .. عدا وثيقة الزواج .. ولم تحس هى أبدا أنها فى حاجة إليها .
لقد يسر لها الرجل كل ما تريد .. ومنحها أقصى مما كانت تجسر على أن تحلم به .
وكانت تكره أن تسبب له أية تعقيدات يمكن أن تزعجه فى منزله بل بذلت كل جهدها لكى تريحه .. وتستره ..
وقدر لها الرجل ذلك .. فزاد إكرامه لها وتعلقه بها .
ذات ليلة .. سهر وإياها ..
وكان فى حالة انتعاش بعد أن حقق صفقة كبيرة مع الجيش البريطانى بعد أن أعلنت الحرب .
وشرب الكأس تلو الكأس .. حتى انتشى .
وجلس يأكل . وبدل أن يضع الفوطة على صدره .. وضع قطعة من ثيابها ..

وقبل أن ينهض ليغسل يديه .. وضعها مازحا داخل الصديرى .
وانتهت السهرة .. وخرج عائدا إلى بيته فى الجيزة .
وأوت سيدة إلى حجرتها .. تلم ثيابها فاكتشفت قطعة ناقصة .
وتذكرت أين ذهبت القطعة .
وضربت صدرها بيدها صائحة :
— يا نهار أسود .. ستخرب أم عبده بيتك يا أنور .
ولم تعرف ما يمكن أن تفعله ..
وانتظرت برهة كافية لعودة أنور إلى بيته .
ثم نهضت إلى التليفون وطلبت نمرته .
ولحسن الحظ أجابها صوته وهمست بسرعة :
— اسمع .. أنت نسيت حاجة داخل الصديرى ..
وأجاب أنور وقال متلجلجا :
— أجل .. أجل ..
ثم وضع السماعة ..
وفى الصباح أخبرها أن أم عبده كانت تقف أمامه .. وأنه كان يوشك أن يخلع الصديرى أمامها لتكشف ماذا يوجد بداخله وإنه توجه رأسا إلى الحمام فألقى به من الشباك .
ومنذ تلك الليلة زاد تقديره لها .
أضاف ببساطة خمسمائة جنيه إلى حسابها فى البنك وسلمها الإيصال .
وزارتها دلال ذات مرة وأحست بالنعمة التى ترتع فيها .
وقالت وهى تهز رأسها فى حسد :
— شىء ما كان له .. ربنا داله .
ثم أردفت بعد برهة :

— والمحروس ناوى يتجوزك امتى ؟
وقالت لها سيدة ببساطة :
— مش ناوى .
— لو باق عليكى حقيقى كان اتجوزك .
— يا خالة دلال .. أنا لا أريد الزواج .
— حمارة .
وخرجت دلال من عندها ذلك اليوم لتبدأ سلسلة من المشاغبات .
ضربت تليفون لأم عبده لتخبرها أنها نائمة على آذانها .. وأن زوجها قد تزوج .
تحدثت هى وصبيانها إلى بنات الرجل وأولاده .. لتخبرهم أن أباهم أن تزوج وأنه أنجب ولدا سيشاركهم الميراث .
ومن يومها انتهى الاستقرار من بيت سيدة وبدأت المتاعب .
كل يوم مكالمة تهددها فيها امرأة بالقتل .. وتسبها بأقبح الشتائم .
واشتكت سيدة إلى أنور ..
وشكا أنور إلى سيدة .. أن بيته انقلب إلى جحيم وأن أم عبده تكاد تجن .. وهى تسمع يوما بعد يوم .. إشاعة جوازه ..
وأن هناك من يتطوع لنقل أخباره معها ..
أنور ذهب .
أنور خرج ..
أنور دفع لها ..
حتى تحولت حياة الرجل إلى جحيم .
وفى إحدى الليالى .. أقبل أنور على سيدة وقد بدا عليه الحزن والوجيعة ليقول لها : .

— أم عبده أصيبت بذبحة .

وفى اليوم التالى ..

قرأت فى وفيات الأهرام :

« توفيت إلى رحمة الله .. السيدة حرم المقاول المعروف .. » الخ .

واختلطت فى نفسها المشاعر .. واضطربت الأحاسيس ..

هل أنهت وفاة أم عبده المتاعب ؟

أم بدأت بها متاعب جديدة ؟!!

(٣٥)

نهاية مرحلة

أقبل أنور بك على سيدة بعد بضعة أيام ، وقد بدا محطما مهموما ، و لم يبق عندها سوى بضع دقائق أمضاها صامتا ثم انصرف قائلا إن لديه بعض الأعمال العاجلة لا بد أن ينهيها ..

ومع الأيام أحست سيدة أن الرجل أخذ يبتعد عنها ..

زياراته لها قد ندرت ..

ولهفته عليها قد ضاعت .. وعطاياه لها قد تناقصت حتى الحد الضرورى الذى لا غنى لها عنه ..

وأحست سيدة أن وفاة زوجته ، أحدثت تأثيرا عكسيا لما كان يمكن أن تتوقع ..

وشعرت أن أيامها معه أصبحت معدودة .. وأن حياة الاستقرار التى استمرأتها يمكن أن تنتهى ، وأن عليها أن تعود مرة أخرى إلى حياة الكفاح بجسدها تقلبه فى أحضان الزبائن ..

وذكرت نصيحة دلال لها بالزواج .. وأحست كأنها حلقة نجاة يمكن أن تتعلق بها ..

وذات ليلة وهو يجلس معها فى صمت وشرود سألته :

— إلى متى سنظل على هذا الوضع ؟

— أى وضع ؟

— الوضع الذى نحن فيه ..

— لا أفهم ما تقصدين ..

— كلام الناس كثر .. والجيران يتساءلون : أين البيه ولماذا لم يعد يأتى إلى البيت ؟

— دعينا من كلام الناس ..

— كيف .. انهم ينهشوننى بألسنتهم ؟

— وماذا تريدين ؟

— أريد أن أعرف موقفى منك .. إلى متى سأبقى هكذا معلقة ؟

ونظر إليها أنور نظرة طويلة ساهمة ، ثم قال فى هدوء :

— لست أدرى ماذا جد عليك .. البيت هو البيت .. والنقود هى النقود .. ماذا نقص منك حتى تتذمرى ؟

وأجابت سيدة فى تبرم وهى تحاول أن تجد منفذا إلى مطلبها :

— هل تظننى أستطيع أن أقضى العمر هكذا ؟

— ولم لا ؟

وأخذت لهجتها تزداد حدة وهى تقول :

— طبعا .. ماذا يضيرك أنت ؟ بيت مفتوح وامرأة تنتظرك .. تأتى إليها وقتما تشاء .. وتتركها وقتما تشاء !

ورد أنور فى ضيق وبرود :

— لا داعى لهذا الكلام يا نرجس . دعينى أقضى اللحظات التى أمضيها هنا فى هدوء فالمتاعب لا تنقصنى .

ولم تجد سيدة بدا من أن تطلق طلقتها .. فقالت فى حزم :

— اسمع يا أنور .. الأمور لا يمكن أن تسير على هذا الحال ..

وصمتت لحظة لتلتقط أنفاسها ثم قالت :

— بصراحة .. هناك عرسان تتقدم إلىّ ..

ونظر إليها أنور وتساءل فى دهشة :

— عرسان ؟!

— أجل .. عرسان !

— غريبة !!

— غريبة لماذا ؟.. ألا أستحق أن يتقدم إلى من يريد الزواج منى ؟

— لا أقصد ..

— أم ترانى لا أستحق إلا أن أكون عشيقة ؟!

— قلت لك لا أقصد ..

وساد الصمت برهة .. قطعه الرجل بتساؤله فجأة :

— ومن هؤلاء الذين تقدموا إليك ؟

— كثيرون !

— مثل من ؟

وبدأت سيدة تبحث فى ذهنها عن شخص يمكن أن تدفع به لإثارة مشاعر الرجل .. وكان أول من خطر ببالها هو عباس فقالت ببساطة :

— مثل عباس بك ..

— عباس بك من ؟

— عباس بك البرعى ..

— لم أسمع به من قبل !

— رجل ملىء من الأعيان وله مطبعة كبيرة .. وعدة بيوت وأطيان .

ونظر إليها أنور فى هدوء وقال :

— ولماذا لا تتزوجينه ؟

وأحست سيدة كأنه هوى بصفعة على وجهها .

أهذا هو مدى تمسكه بها وحرصه عليها ؟

لقد حاولت بإثارتها هذا الجدل أن تقوده إلى الانفعال .. وأن تضعه فى مأزق

لا مخرج له منه إلا بعرض الزواج .

ومع ذلك .. وجدته يتسلل هو ببساطة ويضعها فى المأزق ويسأها لماذا لا تتزوج عباس .

وصاحت به فى حدة :

ــ هكذا ببساطة .. أقبل زواجه !

ــ ألم يعرضه عليك ؟

ــ أجل ..

ــ ألم تقولى عنه إنه رجل ملء ؟

ــ أجل ..

ــ إذن لماذا لا تقبلينه ؟

وعادت تصيح فى حدة :

ــ وهكذا تضعنى كأى سلعة فى فاترينة .. تقذف بها لأول شار !

ومد أنور كفه فوضعه على كتفها وربته بهدوء قائلا :

ــ لا داعى لأن تثورى هكذا .. أنا لم أقل لك شيئا ، ولم أضق بشىء ، وإنما أنت التى ضقت بهذا الوضع وبكلام الناس .. وأنا لست على استعداد لأن أغيره ..

وصرخت فيه بحدة :

ــ لماذا ؟

ــ لا داعى للصراخ .. تحدثى بهدوء ، وإلا تركت لك البيت ..

وخفضت نرجس من حدة صوتها ، وتساءلت فى صوت أقل حدة :

ــ لماذا لا تستطيع أن تغير الوضع ؟

ــ أغيره إلى ماذا ؟

ــ نتزوج ..

ــ أهذا معقول ؟

ــ لماذا لا يكون معقولا ؟.. ما الذى يمنعك ؟

ــ اسمعى يا نرجس .. طوال هذه المدة التى عاشرتك فيها .. لم تفتحى هذا الموضوع .. فلماذا تثيرينه الآن ؟

ــ لأنى لا أستطيع أن أضيع عمرى معك .. ثم أجد نفسى بعدك بلا مأوى .. أجد نفسى على الرصيف !

ــ لماذا على الرصيف ؟.. إن لديك هذه الشقة ولديك نقودك فى البنك ..

ــ إلى متى يمكن أن تعيشنى نقودى فى البنك .. إلى أن يذهب شبابى ؟.. ولا أعود أجد من يعولنى .. حتى العمل الذى كنت آكل منه لقمتى .. لن أصلح له .. بل لا أظننى بت أصلح له من الآن !

ــ لماذا كل هذا ؟.. أنا لم أتخل عنك ..

ــ ولكنك قد تتخلى عنى غدا ..

ــ لن أتخلى عنك ما دمت حيا ..

ــ ومن يضمن لى حياتك ؟

ــ الأعمار بيد الله ..

ــ ولكن من حقى أن أطلب ضمانا .. لا يمكن أن يضيع ما قضيت من عمرى معك هباء .. أنا أفنى معك زهرة عمرى .. وكل من حولك له ضمان من بعدك .. إلا أنا !

ــ تتحدثين كأنى أوشك أن أقضى غدا !

ــ لا أقصد هذا .. أعطاك الله العمر الطويل .. ولكنك أنت قلت إن الأعمار بيد الله .

وصمت الرجل برهة ثم نظر إليها متسائلا فى هدوء :

ــ وبعد .. ما آخرة هذه المناقشة ؟

ــ إما أن تتزوجنى ..

ــ أو ....

— تكتب لى ما يعادل ما يمكن أن أستحقه منك !

— هكذا ؟

— أليس هذا من حقى ؟

— وإذا لم أقبل ؟

— يصبح بقائى معك حماقة .. وإضاعة لعمرى سدى !

— وتتزوجين عباس بك ؟

— عباس بك أو أى زبال .. خير من بقائى معلقة هكذا ..

— وتنتهى علاقتنا ؟

— طبعا !

— أهذا هو الحل الوحيد ؟

— أعتقد هذا ..

— افعلى ما يريحك ، وسأظل دائما تحت أمرك .

وقام إلى المنضدة بهدوء وأخرج من جيبه دفتر الشيكات وكتب فى أحدها رقما ثم أمضاه وأعطاه إياها قائلا :

— خذى ..

وتساءلت فى ضيق :

— ما هذا ؟

— خمسمائة جنيه .

— لست أريد منك شيئا ؟

وطبق أنور الشيك ثم وضعه تحت الزهرية على المنضدة قائلا :

— خذيه فقد ينفعك .

وقبل أن يتجه إلى الباب توقف أمامها قائلا بعد أن زفر زفرة طويلة :

— اسمعى يا نرجس .. أنا لا أشعر أنى بت أهلا لهذه الحياة ! لم يعد فى نفس .. حتى للاستمتاع .. لقد هدنى وفاة المرحومة .. فى بعض الأحيان عندما أخلو إلى

نفسى .. أشعر أنى مسئول عما حدث لها .. أنا أعرف أن الأعمار بيد الله ، ولكن الصدمات التى أصابتها أخيرا نتيجة الوشايات التى كانت تصل إليها قد عجلت بنهايتها ، كان يفزعها أن أتزوج عليها ، ولقد أقسمت لها أنى لم أفعل ولن أفعل ولكنها لم تكن تصدقنى ، وكان الناس يتطوعون للحديث عن علاقتنا ، وعن زواجنا .. وكانت حياتنا معا فى الأيام الأخيرة شرا من الجحيم .. وأثارت على البنات والأولاد ، وكنت أجلس بينهم كالمذنب .. ومع ذلك فلم أفكر مرة فى أن أنهى علاقتنا معا ، لأنى كنت فعلا أحتاج إلى ساعات الراحة التى أقضيها بجوارك ، ولكنى الآن أشعر أنى بت أفتقد هذه الراحة هنا .. وأن كل ما أحتاج إليه هو شعاع من شمس فى الشتاء .. ونسمة رطبة فى الصيف .. فى ركن هادىء .. بعيدا عن الناس .. لقد تضاءلت احتياجاتى من الحياة ، حتى العمل لم أعد أجد فيه ما يشدنى إليه .. كل ما أتمناه هو أن أقبع فى هدوء ، وأن أخرج من الحياة فى هدوء .

وأحست سيدة أن شيئا فى باطنها يحاول أن يدفع الدموع إلى مقلتيها .. ولكنها قاومت البكاء .

هذا الرجل رغم احترافه خديعة الناس .. يبدو مخلصا فى حديثه .. ورغم جبروته الذى جمع به ماله .. وقفز به من سباك حارة الماوردى إلى رجل الأعمال وصاحب الأموال والعمارات ،. يحس بفرط ضعفه أمام ذنوب العمر وقرب النهاية .

ولم تعرف كيف تجيبه .

كل ما كانت تعرف .. أن علاقتها معه .. قد أوشكت على نهايتها .

وإن عليها أن تطرق بابا جديدا من أبواب العيش .

وقال الرجل منهيا حديثه وهو يمد يده إليها :

— لقد عشنا أصدقاء ، وأرجو أن نفترق أصدقاء .. لن أنسى عشرتك الحلوة أبدا يا نرجس ، كانت أياما جميلة ..

ووقفت سيدة ووضعت يدها فى يده والمشاعر تضطرب فى نفسها ..
هل تكرهه .. هل ترثى له ؟
لقد منحها فترة مريحة من حياتها ..
ومهما اتهمته من أنه ألقى بها على الرصيف فإنه لم يلقها بجيب خاو .. بل برصيد يمكن أن يهيىء لها فترة أخرى من العيش النظيف المريح ..
وردت سيدة محاولة أن تعبر عن مشاعرها المضطربة :
— كتر خيرك .. على كل حال .. مهما كان الأمر فلن أنسى أفضالك على ..
— ولا تنسى أنى موجود دائما .. وفى خدمتك دائما ..
ملجأ جديد .. يؤكد أنه فى خدمتها .
ومع ذلك عليها أن تشق طريقها .. وحدها .. وأن تسقط من اعتبارها كل هذه الوعود بخدمتها .
وتركها أنور ليلتذاك .
وكان عليها أن تدبر أمرها .. من جديد .
مهما كان معها من نقود .. فمصيرها إلى النفاد .. إذا استمرأت حياة الراحة والاسترخاء .
ولكن ماذا تفعل ؟.
هل تعود إلى دلال مرة أخرى ؟..
مرمطة .. وقرف .
مهما كان وضعها مع أنور .. وأيا كان نوع تبعيتها له .. عشيقة أو رفيقة .. فلقد كانت تشعر أنها تحتفظ بقدر من إنسانيتها .. وتملك قدرا من حريتها وسيادتها ..
لقد دفع إلى نفسها بالحنين إلى الحياة الطبيعية المستقرة التى يحياها كل الناس .
حياة مهما كان فيها من متاعب .. فهى حياة طبيعية .. كل ما فيها علنى .. مكشوف .. ليس بها ما تخشى أن تعلنه أمام المجتمع .. حتى متاعبه وآلامه ..

يشترك فيها كل الناس .. وهى واحدة منهم .
وهؤلاء الصغار .. الذين تراهم عند الجيران .. والذين ينادونها أحيانا « تنت نرجس » وقد يحتضنونها ويقبلونها ببراءة .. قبل أن تختطفهم أمهاتهم وتحذرهم من العودة إليها مرة أخرى .
كم تمنت لو أن أحدا منهم .. كان ابنا لها .
كم تاقت إلى أن تمارس أمومتها .. وحياتها الطبيعية .. بعد أن ملأها الإحساس بأنها باتت غريبة عن هذا المجتمع الذى يحيط بها .. وأنها لا تستطيع أن تجلس مع الناس وتتحدث إليهم كما يتحدثون .. عن زوجها ومتاعبها وأولادها ومشاكلهم ..
لقد أحست أن أكثر الناس قدرة على تحقيق بعض أمانيها .. هو هذا الذى استقرت فى بيت من أجله .. ومارست معه قدرا من هذه الحياة الساكنة الآمنة .. ومنحته قدرا من الوفاء لم تتعود منحه لأحد .. وهيأت له من الراحة .. ما اعترف هو بأن أحدا لم يستطع أن يهيئها له .
ومع ذلك .. أفلت منها .. بمجرد أن لوحت له بالطلب .
كره أن يرتبط بها — لأنه يعرف ما هى .. ومن أين جاءت إليه .
من إذن يقبل أن يؤويها إلى بيت ؟.. ويشاركها الحياة .. ويمنحها الأطفال .
نعمة .. لم يعد من حقها أن تأمل فيها أو تحلم بها .
ومن جديد وجدت قدميها تقودانها إلى بيت دلال .
يوم من أيام شتاء القاهرة الجميلة .. تهبط أشعة شمسه المشرقة كأنها الحضن الدافىء .. والناس يتمشون أمام فترينات الحوانيت .. والوجوه تضحك .. حتى أولئك الذين يجمعون الزبالة أسفل الأرصفة .. أو يشوون أبا فروة فوقها .
وسارت سيدة ترمق المارة والفاترينات بنظرات شاردة .. تتلقى نظرات الإعجاب من العابرين وألفاظ الغزل من الرابضين على مقاعد المقاهى .. يوزعون نظراتهم بين زهر الطاولة وأرداف العابرات .

ووصلت أخيرا إلى بيت دلال .. صعدت الدرج ووقفت تدق الجرس
وفتحت لها زهرة الباب وأفسحت لها الطريق مرحبة :

ــ أهلا وسهلا ست نرجس .. اتفضلي .

ــ ازيك يا زهرة ؟

ــ الله يسلمك يا ستي .

ــ أين ستك دلال ؟

ــ في الداخل .

ــ عندها أحد ؟

ــ بعض الضيوف .. ولكني سأعطيها خبر .

وبعد لحظات أقبلت دلال هاشة مرحبة .

ــ أهلا وسهلا .. بست الحسن .. وجهك ولا وجه القمر ..

ــ أهلا بك يا خالة دلال .

ــ خطوة عزيزة .. افتكرتينا أخيرا ؟

ــ لا أستغنى عنكم يا خالة دلال .

ــ ولا نحن ..

وجلست سيدة قبالة دلال التي صاحت بزهرة قائلة :

ــ اعملي قهوة لست نرجس يا بت .. على الريحة .

ثم التفتت إلى سيدة قائلة :

ــ أخبارك إيه ؟

وتتنهد سيدة قائلة :

ــ أبدا .

ــ كيف حال سعادة البيه ؟..

وبطريقة مقتضبة أجابت سيدة :

ــ انتهينا ..

وأثار قولها انتباه دلال ومالت للأمام في إصغاء شديد .

ــ ماذا تقصدين ؟

وبغير اكتراث أجابت سيدة :

ــ لم يعد بيننا شيء .

ــ منذ متى ؟

ــ منذ بضعة أيام .

ــ ولماذا .. ماذا حدث ؟

ــ لا شيء .

ــ غير معقول .. انتهيتم هكذا بلا سبب ؟

ــ قلت له إني سأتزوج .

ــ وهل ستتزوجين حقيقة ؟

ــ لا .

ــ إذن لماذا قلت له هذا ؟

ــ لكي أستثيره وأجعله يطلب الزواج .

وضحكت دلال من أنفها ضحكة ساخرة وسألت :

ــ وماذا فعل ؟

ــ قال لي تزوجي .

ــ شاطره .. وكيف رددت عليه ؟

ــ ثرت فيه .. وقلت إني لا أستطيع أن أبقى معه على هذا الحال .. إما أن يتزوجني أو أتركه .

ــ وماذا قال ؟

ــ قال إنه لا يستطيع أن يغير شيئا من وضعنا .

ــ يعني رفض أن يتزوجك .

ــ أجل .. وقال إنه يشعر أنه مسؤول عن وفاة زوجته .

ــ هل توفيت زوجته ؟

ــ أجل .

ــ ابن الصرمة .. وماذا يمنعه إذن ؟.. ما دامت زوجته قد انقلبت فى داهية .

ــ قال إنه يريد أن ينهى حياته فى هدوء .

ــ فى هدوء أو زيطة .. ماذا يمنعه من زواجك ؟

ــ هكذا قال .

ــ وماذا فعلت به ؟

ــ تركته يذهب إلى حاله .

ــ يا خيبتك يا سيدة .. يا خيبتك القوية تتركينه هكذا يخلص كالشعرة من العجين ؟

ــ ماذا كنت أفعل له ؟

ــ تسودى عيشته .. تعملى له فضيحة بجلاجل .. هى سايبة .. هو دخول الحمام يا بت زى خروجه ؟

ثم مصمصت بشفتيها وواصلت قولها وهى تضرب كفا بكف :

ــ تتركينه يفلت هكذا ؟.. يا ميلة بختك يا نرجس .. ياما قلت لك .. وياما نصحتك .. الرجالة ليس لهم أمان .. كالمنجل الأعوج .. إذا استسلمت لهم حشُّوك وحشُّوا رقبتك .. يأكلونك لحما .. ويلفظونك عظما .. ليس لهم إلا العين الحمراء.. ياما عملت فيهم.. من أول أبوك الله يرحمه.. لغاية المعلم شقلط المبيض الله يرحمه مطرح ما راح .. لم يستطع أحد منهم أن ينجو بجلده .. كلهم جذبتهم من حبالى عنيهم على المأذون .. زواج شرعى وحياتك .. على سنة الله ورسوله .. وورثت فيهم على داير مليم .. ولو إن ماكانش حيلتهم اللضا .

وصمتت برهة ترقب سيدة وقد بدت شاردة النظرات واجمة الملامح ثم استرسلت تقول :

ــ المهم .. ماذا ستفعلين الآن ؟

ــ والله لا أعرف يا خالة دلال . كنت أتمنى أن أتلم فى بيت وأستريح كبقية خلق الله .

ورفعت دلال حاجبيها فى دهشة وتساءلت فى خبث :

ــ وتعيشين مم ؟.. من الأبعدية التى كتبها لك بسلامته ؟

ــ أبدا .. تمنيت لو استطعت الزواج ..

ــ ما كان أمامك الرجل .. لقطه .. وتركتيه يفلت بخيبتك .

ــ الزواج ليس بالعافية يا خالة ..

ــ طيب ورينى شطارتك ..

ــ ولا بالشطارة .

ــ أمال بإيه ؟

ــ دا قسمة ونصيب .

ــ إذا كانت المسألة هكذا .. فلست أظن قسمتك الزواج .. أنت ما زلت فى شبابك .. وفرصة الشغل ما زالت أمامك واسعة .. والرجال يرغبونك .. لديك موهبة إغرائهم بسهولة .. فعودى إلى الشغل .. والبيت مفتوح أمامك فى كل وقت .. وعندما يقع فى يدك الزبون السقع .. لا تتركينه يفلت كما أفلت بسلامته سى أنور بك .. ماذا قلت ؟

وصمتت سيدة برهة قبل أن تطلق تنهيدة حارة ثم قالت :

ــ سأفكر يا خالة دلال .

ــ تفكرين فى ماذا ؟.. ليس أمامك سوى الشغل .. أو التسول .. أو الموت جوعا ..

أجل يا سيدة .. لم يعد أمامك سوى إحدى هذه الطرق الثلاث ..

طبعا بعد أن تستنفدى رصيدك من النقود التى تركها لك أنور .. وتبيعى الأثاث والحلى .. وتستهلكى بقايا شبابك .. ولا تعودى تصلحين حتى للشغل .

ولكن ليست أمامك فرصة لغير هذا الشغل المهين المذل .. الذى تفقدين فيه

إحساسك بآدميتك .. والذى يصبح فيه جسدك نهبا مشاعا للغير كأنه لا يخصك
ولا يعنيك ؟..

هذا الشغل الذى يشعرك دائما بأنك فاقدة للملكية أعز ما تملكين .. فاقد
لبدنك .. الذى بات الغير أكثر تحكما فيه واستغلالا له ..

ولكن ماذا يمكنك أن تفعلى يا سيدة .. وهذا البدن هو موهبتك الوحيدة ..
هو قدرتك التى مارستها بنجاح .. وتجربتك التى دأبت على أدائها بتفوق ؟.

تعودين إلى خدمة البيوت .

بعد أن ذقت السيادة وعزها .

وعادت دلال تجرها من شرودها قائلة :

— البيت بيتك يا نرجس .. مفتوح لك فى كل وقت .. وأنت لست
عاطلة ..

وصمتت برهة ثم عادت تسأل :

— ماذا قلت ؟

وردت سيدة فى استسلام :

— أنا أعرف أن مصيرى إلى هنا .. ليس لى أحد غيرك يا خالة دلال .

وقبل أن ترد دلال سمعت صوتا يناديها من الداخل .

و لم يكن الصوت غريبا .. بعد ثوان بدا صاحبه .

وهتف عباس وهو يقف بطربوشه الأحمر المائل على حاجبه ومنشته فى يد
صائحا فى دهشة :

— سيدة .. غير معقول .. ماذا أتى بك ؟

وتنهدت وأجابت فى لهجة لا تخلو من التهكم :

— أتت بى ساقاى .

— ظننت أنها مشغولة فى أشياء أهم .

— أهم من زيارة خالة دلال ؟

— أجل .. آخر مرة سألت عليك قالوا لى إنك تخصصت .

— لمن ؟

— لسعادة البيه الثرى الأمثل .

— فعلا .

— و لم يعد للشعب من أمثالنا .. نصيب فيك .

وضحكت دلال وقالت معلقة :

— خلاص يا عباس بك نرجس هانم عادت إلى قواعدها .

— سالمة ..؟

وعادت دلال تقول مقهقهة :

— أجل .. سالمة .. يا سلامة ..

وأدرك عباس بنظراته إلى سيدة أنها غير سعيدة .. وأن شيئا يشغلها .. وأن
ضحكتها السطحية .. تدل على أنها غير قابلة للمزاح .

وكانت دلال قد نهضت متجهة إلى الداخل .

واقترب عباس من سيدة متسائلا :

— مالك يا سيدة ؟

وهزت سيدة رأسها قائلة :

— لا شىء .

— تبدين غير سعيدة .

— ومتى كنت سعيدة ؟

— كنت غير مبالية .

— واليوم ؟

— تبدين كأنك تحملين هما فوق كتفيك .

— الدنيا كلها هموم يا عباس .. من منا لا يحمل همه فوق كتفيه ؟

وأطلقت سيدة تنهيدة طويلة .

وقال عباس :

ــ يا ساتر .. يبدو أنك تحملين هموم الدنيا كلها .

والتفت وراءه تجاه الباب الذى اختفت فيه دلال ثم تساءل :

ــ متى أراك ؟

وهزت سيدة كتفيها فى غير مبالاة قائلة :

ــ أى وقت .

ــ هنا ؟!!

ــ لا أعرف .. لم يستقر رأيى بعد .

ــ إذن أين أراك ؟

وبدا التفكير على وجه سيدة وهى ترمق عباس .

وجرى فى ذهنها شريط سريع .. لكل لقاءاتها معه .. أول مرة فى حجرة الفراخ .. والموز الذى دفعها إلى سرقته .. والنصب على البقالين .. وتزوير البونات ..

أى لقاء يمكن أن يكون معه بعد هذا ؟

وعاد عباس يتساءل فى إلحاح :

ــ لم تقولى لى كيف أراك ؟

ثم صمت برهة وأردف :

ــ هل آت إليك فى البيت ؟

وهزت سيدة برأسها .

وعاد عباس يتساءل :

ــ متى ؟

وردت سيدة :

ــ أى وقت .

وبدت الحيرة على وجه عباس وتساءل :

ــ كيف ؟ ألا تخشين أن ..

وقاطعته قائلة ببساطة :

ــ لا أخشى أحدا .

ــ وأنور بك ؟

ــ لم يعد معى أحد .

وتهلل وجه عباس وقال :

ــ إذن سآتى الليلة .. أين البيت ؟

وببساطة أعطته سيدة العنوان .

لماذا أعطيت له العنوان يا سيدة ؟..

ولماذا قبلت زيارته ببساطة ؟..

ماذا يمكن أن يكون لك عباس ؟

أيمكن أن يكون لك شيئا ؟

أى شىء !!..

ولم لا ؟..

ألم تبدئ هذه الحياة العجيبة معه على السطح فى حجرة فراخ ؟

(٣٦)

عرض مثير

أقبل عباس فى المساء على شقة سيدة يحمل فى يده لفافة تعود أن يحملها لزو
السهرة . زجاجة ويسكى وأصناف بقالة .. مرتدلة وتونة وعدة أنواع من الجبن
وكيس فزدق . وهو يرسم فى ذهنه تفاصيل سهرة ممتعة يقضيها بياتى مع سيدة
أصبحت سيدة شيئا آخر يا عبس .. شيئا فاخرا ممتعا .. ولقد خلصت من
صاحبها القديم بعد أن امتلأت منه .. واتريشت .. وأضحى لها شقة فى عمار
كبيرة .

وهى قد قبلت عرضك زيارتها بسهولة .. تكاد تحمل معنى الترحيب .

فهى إذن تريدك . وأنت أهل لها ..

هى خالية .. وأنت على باب الله ..

هى مليئة .. وأنت محتاج ..

فاقبل عليها .. ولا تتركها تفلت هذه المرة من يدك ..

لا تخيب أملها فيك .. فهى تظنك شيئا .. بعد أن ورثت من أبيك ..
ولبست الطربوش وأمسكت بالمنشة .

أكد لها أن تحت القبة شيخا .. وأن نقبها لم يجىء على شونة .. إياك أن
تكتشف أنك بعت ما جمع أبوك .. وأن مال الكنزى قد بدده النزهى .. وأنه لم
يعد هناك غير المطبعة . بالماكينة التى اشتراها أبوك قبل أن يموت . تدور فى قوة
وإصرار .. تتنحك فى وفاء مع غيرها من الماكينات العتيقة .. ما تستطيع أن
تواصل به مظهرك كعباس بك البرعى .. ذى المنشة والطربوش والقرنفلة فى
العروة .. بعد الخنصرة والسرقات من كل من يسمح له وضعه فى المطبعة بأن

يلهف شيئا .. وهم يعرفون أن المال بات بلا صاحب .

الماكينات يا عبس هى الأشياء الوحيدة فى المطبعة تسير كأن أباك موجود ..
كأن عينه على تروسها .. وقلبه يدق مع طرقاتها ..

كان يعرفها .. كما يعرفك .. يعرف مزاياها ويعرف مواطن الضعف فيها ..
وإن لم يكن يجد فيك أية مزايا .. ولقد حاول أن يعرفك بها .. حاول أن يدنيك
إليها ويقربك منها .. وأخبرك أن هذه الماكينات هى أقرب الأقرباء .. وأخلص
الأوفياء ..

.. وكان يسمى الماكينة العتيقة . الرابضة كشجرة الجميز .. باسم أمك ..
أم عباس .. لأنها صلبة وقوية .. ولا تكل .. من العمل . وحاول أن يعلمك
أسرارها .. حتى لا يضحك عليك الأسطى خضر الميكانيكى ويهول لك الأمر
لكى يلطش منك أكثر ما يستطيع من النقود .. ويدعى أن الموتور قد احترق ..
وأن التروس تحتاج إلى تغيير .. وأن أمام الماكينة .. كثور الله فى برسيمه .. لا
تعرف الشنابر من التروس . حاول أن يعلمك أماكن التزيت والتشحيم .. وماذا
تفعل إن فوتت منك الماكينة . أو توقفت .. وكيف تصلحها دون أن تخسر الجلد
والسقط ..

حاول أن يعلمك شيئا .. أى شىء .. ولكنك كنت تلتقط كلامه بالأذن
اليسرى لتطلقه فى سرعة البرق من الأذن اليمنى .. كأن الرجل يهذى .

مالك انت والتروس والشنابر والسيور .. مالك بالأحبار والحروف .
والرزم والبوبين والعادم والقص والتجليد . هذه أشياء ليس وراءها .. غير الهم
وقلق البال .. وهناك من يستطيع أن يحمل عنك همها .. ويمنحك الفرصة
للانطلاق وراء أشياء تحقق لك متعة حقيقية .

انطلقت تستمتع يا عبس .. وتصرف مال أبيك الكنزى .. وتبدد ما كد فى
جمعه .. وما أفنى عمره فى تحويشه .. وتركت الماكينات العزيزة على أبيك تدور
بلا عين ترعاها .. أو قلب يخفق مع طرقاتها .. تتوقف أسابيع بأكملها .. لأن

سيرا قد قطع أو سوستة قد كسرت .. وإذا ما تحركت مرة أخرى .. فوراء حركتها كشف حساب طويل بالمصاريف .

وأنت يا عبس جاهل .. لا تعرف — كما يهمس عنك العمال — السما من العمى ..

وأنت لا تملك الوقت للمناقشة أو القدرة عليها .. وليس عليك إلا التسليم بكل شيء .. لأنك تريد ما تبقى لك .. وما يتبقى لك لم يعد سوى الفتات من موائد اللئام .. وحتى هذه الفتات لم تكن فى نظرهم تستحقها .

وباتت محافظتك على القرنفلة فى عروتك والطربوش النائم على حاجبك .. والمنشة فى يدك .. أمراعسيرا .. بعد أن تسرب مال الكنزى من يد النزهى .. وبعد أن أضحى إيراد المطبعة .. لا يكاد يغطى احتياجات مظهرك الجديد .. مظهر الوارث عباس بك البرعى .. بعد كل ما يستنزف منه من سرقات .. وبعد ما يتبقى من تكاليف الشىء .. والشىء لزوم الشىء .

وفى الوقت الملائم يا عبس .. أقبل عليك الحظ .. وأدلى إليك بطوق النجاة .. المسمى سيدة .

فأمسك به بيديك وأسنانك .. لا تدعه يفلت .. فهو وحده الذى سيحميك .. بطربوشك ومنشتك إلى بر الأمان .

فقط .. لا تدعها تكشفك .. وادخل عليها دخلة المستغنى .. القادر .. الصريف .. الملىء ذى اليد السائبة .. لكى تطمئن إليك .. وتريحك .. وتهىء لك — بالساهل — كل ما تريد .. كما كانت تفعل توحيدة مع أبو زيد .. والقياس مع الفارق ..

الفارق ما بين المعلمة توحيدة .. ونرجس هانم .

والفارق ما بين المعلم أبو زيد .. وعباس بك البرعى .

طابت يا عبس واستوت .. وطلبت الأكال يا عبس .. وأنت صاحبها .. فأقبل وإياك أن تنكشف ..

قرض بكم مائة جنيه من تاجر الورق .. أو من أى عميل .. بكمبيالات مؤجلة .. يمكن أن يمنحك الستر أمامها بضعة أشهر حتى تعرف أنك .. مستغنى .. وأنك غير نصاب ولا محتال .. ولا بلطجى .. وأنت رجل ولا كل الرجال .. وبعدها عندما يستتب لك الأمر .. لا بأس من أن تعرف أن خسارة أصابتك وأنك فى حاجة إلى سند .. ثم تعرف أن سوء الحظ قد استبد بك .. وأن عليها أن تقاوم سوء حظك .

وبعدها يا عبس .. يحلها الحلال .

ادخل يا عبس ..

ادخل يابيك ..

اعدل الطربوش على حاجبك .. وثبت القرنفلة وطوح المنشة وادخل .

ودق جرس الباب .

وفتح سفرجى أسود بقفطان أبيض . وتساءل فى أدب :

— أفندم .

وارتبك عباس قليلا وخيل إليه لأول وهلة أنه قد يكون أخطأ الشقة .. إذ لم ينتظر أن تلقاه سيدة بسفرجى فى شقتها .

وتغلب عبس على ارتباكه الأولى .. وتساءل فى كبرياء :

— الهانم موجودة ..

وخشى أن تكون أيه هانم .. فاستدرك قائلا :

— نرجس هانم .

— نقول لها من يا فندم .

— قل لها عباس ..

وحتى يحدث التأثير الواجب على السفرجى أردف من أنفه :

— عباس بك البرعى .

— حاضر يا أفندم .. تفضل .

وأفسح له الطريق إلى المدخل .. أسرع إلى الداخل ينبيء سيدة بوجوده ..
وكانت سيدة قد استلقت فى استرخاء على أريكة فى حجرة جلوس داخلية .

واعتدلت فى جلستها والسفرجى يقول لها :

ــ واحد اسمه عباس بك البرعى .

ــ دعه يدخل فى حجرة الصالون .

وتمطت سيدة فى تكاسل ثم أردفت فى غير اكتراث :

ــ أودعه يأتى إلى هنا .

وذهب السفرجى إلى عباس بك يقوده إلى حجرة الجلوس الداخليه قائلا :

ــ تفضل يا سعادة البيك .

ودخل عباس بالمنشة فى يمناه .. ولفافة الوسكى والمزات فى يسراه .. وأقبل على سيدة مرحبا فى لهجة يشوبها الاحترام والكلفة أمام السفرجى .. قائلا :

ــ مساء الخير يا نرجس هانم ..

ثم مد يده إلى السفرجى قائلا :

ــ خذ هذه يا أسطى ..

وتساءلت سيدة :

ــ ما هذا ؟

ــ أبدا .. أشياء بسيطة .. زجاجة ويسكى .. وبعض البقالة والمكسرات .

وبدت الدهشة على وجه سيدة .. وهى تدرك نوايا عباس التى لم تكن على استعداد لها .. ولا كان لديها ما يقابلها .

ومع ذلك فلم تستطع إلا أن تأخذ الأمر ببساطة قائلة :

ــ لم يكن لها لزوم يا عباس بك .

ورد عباس بغير اكتراث :

ــ يا ستى .. شيء بسيط على ما قسم .

وحاولت سيدة أن تفهمه بأن نواياه فى غير موضعها فقالت :

ــ لا أظن أننا فى حاجة إليها .

و لم يفهم عبس .. وظن كلامها من باب الشكر فقال ضاحكا :

ــ فضلة خيرك يا نرجس هانم .

وأحست سيدة أنه لا يريد أن يفهم . فتركته وشأنه قائلة للسفرجى :

ــ ضعها فى حجرة السفرة يا محمدين .

وأشارت إلى أحد المقاعد قائلة لعباس :

ــ تفضل يا عباس بك .

وخرج السفرجى يحمل اللفافة . و لم يكد عباس يطمئن إلى خروجه حتى طوح بالمنشة من يده وألقى بالطربوش على الأريكة وأقبل على سيدة يحاول ضمها وهو يقهقه قائلا :

ــ كفى بكوية .. خشى على يا بت يا سيدة .. بالحضن .

وصدته سيدة بهدوء وبرود قائلة :

ــ اعقل يا عباس .. واجلس على الكرسى .

وظن عباس .. أنها تحاول أن تجعله يصبر حتى ينصرف السفرجى فقال لها فى تعجل :

ــ متى ينصرف هذا اللوح ؟

ــ ينصرف إلى أين ؟

ــ إلى بيته .. لا أظن أحدا سيحتاج إليه .. ولا بد أن وقت نومه قد حان .

ــ إنه ينام هنا .

ــ ينام هنا ؟ معك ؟ فى شقة واحدة .. غير معقول أن تنامى مع السفرجى وحدك .

وردت سيدة فى هدوء :

ــ تنام معنا .. أم سيد .

ــ أم سيد من ؟

— الشغالة .. لقد خرجت لزيارة ابنتها .. وستأتى بين لحظة وأخرى .

ودق جرس الباب فأردفت سيدة :

— لا بد أنها قد عادت .

وبدت مظاهر الامتعاض على وجه عباس وتمتم قائلا :

— محمدين .. وأم سيد ..

وتساءلت سيدة فى دهشة :

— هل ظننتنى أعيش فى الشقة وحدى ؟

— أبدا .. أبدا .. فقط كنت أتخيل أننا سنجلس وحدنا .. على حريتنا .

— وماذا يقيد حريتنا ؟

— لا شىء .. مجرد وهم .

واسترخى عباس فى مقعده .. ولكن ذهنه لم يسترخ .. فقد أحس أن بسيدة شيئا غريبا .. وكأنها تحاول أن تضع جدارا من الكلفة بينهما .. جدارا شفافا يكاد لا يرى ولكنه كلما حاول أن يتخطاه انزلقت قدماه عليه فارتد مكانه .

وتساءلت سيدة :

— ماذا تشرب يا عباس ؟

وقبل أن يجيب أردفت قائلة :

— شاى أو قهوة ؟

شاى أو قهوة ؟.. ماذا تقصد هذه الخبيثة أن تفعل به ؟..

وزجاجة الويسكى التى لفعها على قلبه ..

والمزات ..

والسهرة ..

إنه لم يأت للعزاء .. حتى يشرب قهوة ..

وكان عليه أن يواجهها بصراحة فقال بنفس البساطة التى تتحدث بها :

— أفضل ويسكى ..

وصمتت سيدة برهة ثم قالت بهدوء :

— حاضر .

وصاحت :

— محمدين .

ورد الرجل وكأنه يقف بالباب :

— أفندم .

— افتح زجاجة ويسكى .. وجهز الثلج .. وأحضرها فى صينية ومعها كأس .

— حاضر يا افندم .

وتساءل عباس فى دهشة :

— قلت كأس ؟

— أجل .

— كأس واحدة ؟

— أجل ..

ورد عباس فى استعباط :

— وأنا .. ألن تحضرى لى كأسا ؟

— إنها لك .

— كأنك لن تشربى .

— أجل .

— غير معقول .

— لماذا ؟

— لا أظنك ستتركيننى أشرب وحدى .

— ولم لا ؟

— تستضيفيننى .. وتتركيننى أشرب وحدى .. من علمك هذا ؟

وردت سيدة فى شىء من الحزم محاولة أن تنهى الموضوع قائلة :
— اسمع يا عباس .. أنا لست على استعداد للشرب .. فإذا كنت لا تريد أن تشرب وحدك .. فلا تشرب .
وأحس عباس أن المسألة تحتاج إلى مزيد من اللين والمسايسة فقال فى تلطف :
— أمرك يا ستى .. سأشرب وحدى ما دمت تصرين .
وبعد لحظة أحضر محمدين زجاجة ويسكى وجردل ثلج وكأسا وطبقين بأحدهما سودانى وبالآخر خيار مخلل .
ولم يكد ينصرف حتى أقبلت أم سيد .. امرأة عجوز قصيرة نحيلة طرقت باب الحجرة ثم أقبلت محيية !
— مساء الخير يا ست ..
— خير عليكى يا ام سيد .. كيف حال ابنتك ؟
— الحمد لله أفضل كثيرا .. الحرارة هبطت .. والألم خف ..
— هل تريدين شيئا ؟
— أبدا .. فقط .. المكوجى أحضر المكوة وكشف الحساب ..
— ضعى المكوة فى الدولاب .. وحاسبيه غدا .. وإذا كان قد بقى لديك شىء فى الحلل فاغليه وضعيه فى البلكونة حتى لا يحمض .
— حاضر .. تصبحى على خير يا ستى .
— وانت من أهله .
وأحس عباس من المناقشات الدائرة حوله .. أنه فى بيت عادى .. كبيوت الأسر .. قد خلا من جو السحر الذى يشيع فى بيت المتعة والفرفشة ..
لا طرب .. ولا مغنى .. ولا ضحكات ناعمة .. ولا نكات ..
لا شىء .. سوى الكأس اليتيمة التى أحضرها محمدين ووضعها أمامه ليبلعها بقطعة الطرشى .. وكأنها شربة زيت خروع ..
وبعد ذلك .. مكوة توضع فى الدولاب .. وأم سيد تحاسب المكوجى وتغلى

الطبيخ حتى لا يحمض .
و .. وكأنه فى بيت أمه .. عليها رحمة الله .
وأحس بحماسه لليلة الحمراء .. قد بدأ يفتر ..
ولكنه لم يستسلم ..
ومد يده فأمسك بالكأس .. وأفرغ قدرا مزدوجا .. ثم جرعه مرة واحدة .. بلا ماء .. وبلا ثلج .
أجل .. إن عليه أن يستعين على برود سيدة بحرارة الويسكى .
وشعشعت الكأس فى رأسه .. وأخذ جو القتامة الذى أشاعته حوله سيدة يتبدد .
ومد يده فوضعها على ذراع سيدة قائلا بغير كلفة :
— والله زمان يا سيدة .
ولم تجب سيدة وسحبت ذراعها من تحت كفه بهدوء .
وعاد عباس يقول :
— هه .. ما هى أخبارك ؟
— كما ترى ..
وضحك عباس قائلا :
— لم أر سوى محمدين .. وأم سيد .
وضحكت سيدة وأجابت :
— لأنه ليس لدى أكثر من ذلك .
— وإلى متى ؟.
— حتى يحلها الحلال ..
— أتنوين العودة إلى دلال ؟
ورفعت سيدة كتفيها وتنهدت فى يأس قائلة :
— إذ لم يكن منها مفر فسأعود .

— وكيف يكون المفر ؟
— الله أعلم ..
— بالعيش وحدك .
— الوحدة أيمة .
— مع إنسان يؤنس وحدتك .
— جائز ..
وصمت عباس برهة ثم نظر إليها وهو يحس بالحزن يشيع فى نبراتها وتساءل :
— لماذا تركت صاحبك ؟
— لم أتركه .
ووضع الكأس على المنضدة ثم تساءل فى دهشة :
— لم تتركيه ؟
— أجل .. هو الذى تركنى .
— لماذا ؟
— لأنى طلبت الزواج ..
— طلبت الزواج .. أنت ؟.. منه ؟
— أجل ..
— لماذا ؟
— لكى أؤمن نفسى معه .. لم أرد أن أفنى معه زهرة شبابى ثم أخرج صفر اليدين ..
وهز عباس رأسه وتمتم قائلا :
— والله ناصحة يا سيدة ..
ورفع الكأس فرشف ما بها ثم عاد يتساءل :
— ولكن ماذا .. بعد هذا ؟
واسترخت سيدة على الأريكة متثائبة وهى تقول :

— يفرجها ربنا ..
واقترب منها عباس .. منتهزا فرصة تثاؤبها واسترخائها وجلس بجوارها على الأريكة وارتمى بجسده عليها .
وضاع من سيدة الاسترخاء ودفعته بعيدا عنها قائلة :
— خليك بعيد يا عباس .
وهز عباس رأسه ممتعضا وأجاب :
— الله .. وبعدين معك .. إيه الحكاية ؟
وردت سيدة فى لهجة الآمر :
— قم واجلس مكانك .
وعاد عباس يبرطم ..
— غير معقول .. هذه ليست معاملة .
— انت هنا ضيف .. مجرد ضيف .
وهز عباس رأسه وتساءل فى دهشة :
— أتعنين أنك ستبقين هكذا .. مجرد حرمة .. بلا عمل .
وعاد يملأ الكأس ثم استمر فى تساؤله :
— وعندما يفرغ القرشين اللذين تركهما لك بسلامته .. ماذا ستفعلين ؟
هل ستعودين إلى الشغل ؟. أم ستجلسين على باب السيدة ؟
وردت سيدة فى سخرية :
— عندما أقرر العودة إلى الشغل .. أى شغل .. سأخبرك .
وعاد عباس يقترب منها فصدته فى إصرار وقالت فى حزم :
— إذا أردت أن تجلس فى هدوء .. فاجلس .. وإلا فخير لك أن تنصرف ..
أنت تعرف أن محمدين وأم سيد هنا .. ولا تضطرنى لأن أعمل فضيحة ..
وعاد عباس إلى مقعده وهو يهز رأسه ويتمتم فى دهشة قائلا كأنما يحدث نفسه :

— البت اتجننت .. غير معقول أن تفعل سيدة هذا .. ماذا جرى لها ؟!..
واسترخى عباس فى مقعده .. وعاود الشرب .
استمرأت سيدة الراحة .. وجلسة البيت .. والحياة الشريفة .. أو الحياة شبه الشريفة .
إذن ليجذبها .. من هذا المغمز .. من نقطة الضعف عندها .
ووضع عباس كأسه وتنهد قائلا :
— معك حق يا سيدة .. ليس أفضل من الاستقرار .. ماذا أخذ الإنسان من طول الصرمحة .. والسنكحة والتسكع ..
ثم سألها قائلا بعد أن أتى على آخر قطعة طرشى ..
— هل أستطيع أن أجد شيئا يؤكل .. ولو قطعة جبن ؟
وقالت سيدة :
— طبعا .. سنأكل لقمة سويا .
ثم نادت :
— محمدين ..
وأتى محمدين .. متسائلا :
— افندم ..
— جهز العشا ..
وتدخل عباس قائلا :
— اللفافة بها بعض أشياء .
وأكملت سيدة قوله آمرة محمدين :
— افتحها وجهزها على المائدة .
— حاضر ..
وعلى المائدة أكمل عباس حديثه :
— لقد مللت حياة الصرمحة .. ووددت لو استطعت الاستقرار .. إنى مقبل

على مشروعات كبيرة فى المطبعة .
ورفعت سيدة حاجبيها فى دهشة متسائلة :
— مشروعات فى المطبعة .. أنت ؟
— أجل .. لدى مشروع لشراء ماكينة أوفست .. ونقل المطبعة لمبنى جديد سأقيمه على الأرض التى تركها أبى فى درب الجماميز .
— ومن أين لك النقود التى تفعل بها كل هذا ؟
وازدرد عباس لقمة كبيرة فى فمه ثم قال :
— الشغل ماشى يا سيدة .. أعمال الطباعة كثيرة هذه الأيام .. كتب وزارة المعارف تغرق المطابع .. نحن نعمل ليل نهار .. والماكينات تكاد لا تفى باحتياجات العطاءات التى ترسو علينا .. ولا بد من التوسع .. لقد عرضت علىّ مطبعة روتو .. ولكنى وجدت بها عيبا .
وقاطعته سيدة غير مصدقة :
— هل بت تفهم فى المطابع ؟
ورد عباس معاتبا :
— وبعدين يا سيدة .. هل تظنيننى ما زلت صبيا !
وردت سيدة ببراءة :
— أنا أعرف أن طول عمرك لا تعمل شيئا .. ولا تفهم فى شىء .
— الله يحفظك يا سيدة ..
— لم أقصد إهانة .. ولكن فقط سردت معلوماتى عنك .
— نحن نكبر يا سيدة .. ونتعلم .. والإنسان يجب أن يحب عمله ..
ولم تستطع سيدة أن توقف ضحكتها وبدا لها عباس كأنه طفل يردد كلاما حفظه من فرط ما ردد أمامه وقالت مازحة :
— أنى الزمن الذى عرفت كيف تتحدث فيه عن العمل .
— كل إنسان يتغير يا سيدة .. غير معقول أن نبقى كما نحن .
وهزت سيدة رأسها غير مصدقة وقالت :

ــ ربنا يهديك ..

وانتهى الاثنان من العشاء ..

ومرة أخرى حاول عباس أن يقترب من سيدة وجرها إليه .. قائلا وقد أمالت الخمر رأسه :

ــ قربى يا سيدة .. قربى .. دانتى بقيتى نجف ..

وردت سيدة وهى تدفعه عنها :

ــ ابعد يا عباس ..

وعاد عباس يميل عليها بثقله قائلا :

ــ يا بت اختشى .. مش معقول كده .

ــ اختشى انت .. وابعد بالتى هى أحسن ..

ــ طب ورحمة أمى ..

ــ ورحمة أمك .. لانت خارج .. من سكات .. قبل أن يخرجك محمدين على ملا وشك ..

ــ عيب يا سيدة .. انت اتجننت .

ــ عيب انت .. قلت لك اخرج .. بالذوق .

وصاح عباس وهو يحاول أن يستند إلى أحد المقاعد :

ــ الله .. إيه هو ده .. احنا بنشحت .. أنا حاقعد بفلوسى ..

ــ وفرهم على نفسك يا عباس .. وارينى عرض اكتافك ..

ــ ده حرام .. ده ظلم .

وأدركت أنه قد سكر .. فربتت على ظهره قائلة :

ــ معلش .. استحمل .. تعال .. تعال .

وجرته نحو الباب وهو يصيح :

ــ أنا عايزك يا سيدة .. عيب يا سيدة .. عيب قوى .

ــ معلشى .. المرة القادمة ..

وبدا عباس كأنه يبكى وهو يقول :

ــ والله حرام .. حرام يا ناس .

وأوصلته إلى الباب ثم أخرجته وهى تربت ذراعه قائلة :

ــ تصبح على خير يا عباس ..

ــ كده برضه يا سيدة .. تطردينى يا سيدة .. ما كانش العشم يا سيدة ..

ــ معلشى .. المرة الجاية يا عباس .. مع السلامة .

ونزل عباس على الدرج وهو يتمايل ويبرطم قائلا :

ــ برضه كده يا سيدة ؟.. يخونك القرش اللى ادتهو لك فى عشة الفراخ يا سيدة .

وأغلقت سيدة الباب وعادت إلى مضجعها .

وبعد بضعة أيام عاد عباس .. يحمل اللفافة إياها .. وفى نهاية جلسته خرج يبرطم كما خرج فى المرة السابقة ..

ــ هو دا معقول يا ناس ؟.. البت سيدة تستكبر على .

ومرة ثالثة ورابعة وهو يخرج بغير نتيجة .

وفى المرة الخامسة أقبل على سيدة .. بغير لفافة وجلس إليها فى الصالون الخارجى وقد كسا وجهه مظهر الجد والوقار ، وفى هذه المرة .. لم يطلب الطلب التقليدى الذى تعود أن يطلبه ولكن طلبه كان جديدا .

نظر إلى سيدة وهى تقبل عليه وتجلس أمامه قائلة فى ضيق :

ــ وآخرتها يا عباس ؟

ورد عباس فى لهجة جادة :

ــ اسمعى يا سيدة .. لقد فكرت كثيرا .. نحن لبعضنا .. ولا يمكن لأحد منا أن يستغنى عن الآخر . إنى فى حاجة إليك .. وأنت فى حاجة إلى من يؤنس وحدتك .. ولقد عزمت على أن أتزوجك .. ما رأيك ؟

ورفعت سيدة حاجبيها فى ذهول قائلة :

— تتزوجنى أنا ؟
— أجل .
— أنت ؟ تتزوجنى ؟
— وماذا فى ذلك ؟
هذا عرض جديد مثير .. يشق طريقا جديدا فى حياتك .
هذا الرجل .. على كل ما به من سيئات .. قد جرؤ على أن يتقدم للزواج بك .. رغم كل ما يعرفه عنك .
عرض مثير .. يحتاج إلى تفكير يا سيدة .

(٣٧)

هبط الوليد

لمن يطل التفكير بسيدة فى عرض عباس ..
كان حلم الأسرة والأولاد .. وحياة الناس الطبيعية قد عاد يلح عليها .. واستمرأت الاستقرار فى ظل رجل واحد ، وكرهت أن تعود إلى حياة التشرد الجنسى ، الذى يحرمها من حق ملكية الذات ..
و لم يكن عباس غريبا عليها ..
كانت تعرف كل سيئاته .. التى تنبعث من رغبته فى أن يأخذ من الحياة دون أن يعطى .. أن يحصل على المتع دون أن يدفع ثمنها من جهده وعرقه . أن ينهب من لذات الحياة ما لا حق له فيه ، بطريق النصب والاحتيال والسرقة ، وبأى طريق غير طريق الكد والكدح ..
لم يحاول قط أن يزرع ليحصد .. لم يكن لديه الصبر على الزرع .. و لم يحتمل جهد الحرث والرى وانتظار النبت والطرح .. ولكنه راح يتعجل قطف الثمار .. بالسرقة والخطف والخداع ، واستمرأ جهد الغير .. يمنحه الثمرة بلا عرق !
ومات أبوه فخلف له رصيدا من الثمار ..
سيظل يلتهم منها بلا جهد حتى يستيقظ ذات يوم ليجد نفسه من جديد .. على الحديدة .. ويتحتم عليه حينذاك إما أن يزرع لنفسه .. أو يحتال ، أو يجوع ..
ومع ذلك فثمة تغيير قد طرأ عليه .
أو هكذا يبدو ..
إنه يقول أنه يريد أن يشترى ماكينة جديدة ويريد أن يبنى مكانا للمطبعة على

أرض درب الجماميز ، وهو يدعى أن الشغل يغرق المطبعة والماكينات تعمل ليل نهار ..

ومعنى ذلك أنه يعرف شيئا عن المطبعة !

ثم إنه قد كبر ولا بد أن يعمل .. على الأقل حتى يحافظ على هذا المظهر الذى وصل إليه بمال أبيه ..

هو إذن معروف السيئات ..

وصاحبك الذى تعرف سيئاته فتتقيها خير من صاحب الحسنات الذى يفاجئك بسيئات لا تعرف كيف تتقيها .

وهو بعد هذا كله يتقدم ليسألها الزواج ..

يسألها وقد خبرها جيدا ، منذ أن منحها القرش فى عشة الفراخ .. حتى منحها الجنيهات فى بيت دلال .. أن تصبح زوجته وربة بيته وأم أولاده !

إنه يأخذها بعبلها ، أو بطينها .

أمر ليس باليسير على أى إنسان ..

فالذى يقبل أن يؤويها إلى بيته ، إما مخدوع أو قواد ، وهى تعرف تماما أنه ليس مخدوعا !

وهو يعرف تماما أنها لم تقبل أن تجعل منه بلطجيا ، ولن تقبل أن تجعل منه قوادا ، لأنها تريد أن تستقر ، وأن تمارس حياتها الطبيعية الشرعية ، وأن تجرب مذاق الاستقرار فى حياة الأسرة .. حياة ربة البيت وأم الأولاد ، وأن تحاولها من جديد بعد أن فشلت أول تجربة مع علام ..

وهو يعرف أنها عندما تنوى أن تعاود سيرتها الأولى ، وتمارس التجارة بجسدها .. فلن تكون فى حاجة إلى وصى أو سمسار !

هذه فرصة عجيبة يا سيدة قد أتيحت لك ..

أتاحها لك هذا المخلوق العجيب .. المسمى عباس .. والذى يأبى .. إلا أن يقب ويغطس فى حياتك بين آونة وأخرى .. ليقوم فيها بدور ما .. ولو بدور

كومباس .. وهو الآن يظهر .. ليقوم بدور البطولة ..

أتيحى له الفرصة يا سيدة .. فقد يفلح .. وادخلى معه من الباب الذى يفتحه أمامك واسلكى معه .. الطريق الجديد ..

من يدرى .. ربما يهديه الله .. ويهديك ..

يبنى المطبعة فى درب الجماميز ، ويلتفت إلى عمله كما كان يفعل أبوه ، ويفتح الله عليه .. فتتسع أعمال المطبعة ، ويتسع معها رزقه .

وتنجبين أنت أولادا ، وتصبحين أما وست بيت محترمة ، وتسدلين الستار على ماضيك ، وتخرجين إلى الناس بوجه واضح كالنهار ..

جربى يا سيدة ، فماذا أنت خاسرة ؟

ماذا يمكن أن يفقدك المأذون بورقته الشرعية ؟

لقد كنت أى شىء لعباس .. فماذا يضيرك أن تكونى مرة زوجته ؟

ووافقت سيدة على عرض عباس ..

وبين عشية وضحاها .. ارتدت سيدة لباسها الجديد ، وأصبحت حرم عباس بك البرعى .. صاحب مطابع البرعى ..

وكان على عبس ، لكى يسير فى طريقه الطبيعى ، أن يقترض مائة جنيه .. فمائة جنيه .. مرة من شلهوب بائع الورق ، والثانية من الحاج مصطفى صاحب المصحف الذهبى !

وأخذ عباس يمارس الصرف بكرم على البيت ، أجرة الشقة ومصروفات الأكل والنور والتليفون ، وثياب سيدة ومصروف يدها ، كانت النقود تجرى فى يده بسهولة ويسر ..

وكان يبدو فى تصرفاته .. زوجا عاقلا ورزينا .. شىء آخر غير عباس ابن أم عباس .. الأهوج المطيور !

وبدا كأن المطبعة تشغل كل وقته ، يخرج فى الصباح ويعود فى الظهيرة ليتحدث عن العمل وزحمة العمل ، ومشاكل الماكينات والزبائن والعمال .. وإذا

سهر إلى وقت متأخر فالسبب هو المطبعة ، والعمل الدائب المستمر ، الذى يضطرهم إلى تشغيل الماكينات ٢٤ ساعة حتى ينتهى من كتب وزارة المعارف المطلوبة قبل بداية الموسم الدراسى القادم ..

وكان على عباس أن يقترض مائة أخرى ، ليسد خسائر القمار الذى بدأ يمارسه فى بيت وجدان التى عرفه بها الأستاذ عبد البر بأمل سد القروض التى اقترضها من شلهوب والحاج مصطفى ..

وازداد سهر عباس المزعوم فى المطبعة !

وخلال هذه الشهور التى أخذ عباس يجاهد فى أن يستر نفسه كعباس بك ، ويمارس مشروعاته الموهومة فى شراء الماكينة (الأوفست) ومقابلة المهندسين لمناقشة رسم المطبعة .. ثم الجلوس مع المقاولين لفرز العطاءات لعملية البناء !..

خلال كل هذه الأوهام التى كان يمارسها عباس .

مارست سيدة حقيقة كبرى ، وهى الحمل !

حملت سيدة ..

بدا الأمر بشكوك ، وما لبثت الشكوك أن كذبت ..

ونصحتها أم سيد فى الشهر التالى أن تذهب إلى الشيخة إحسان ، فوصفتها مجربة لا تخيب ولقد جربتها ابنة جارتها خديجة ، و لم تمض بضعة أيام حتى حملت بعد عقم دام سنتين !

وصهينت سيدة ذلك الشهر ، وقالت لنفسها الصبر طيب .. وغدا يفرجها ربنا ونوت فى نفسها أن تذهب إلى أحد الأطباء إن لم يفلح الحمل فى الشهر التالى ..

ولكن فى الشهر التالى لم يحتج الأمر إلى طبيب ، فقد كانت سيدة أحسن حظا ، وكان حملها مؤكدا ..

وبدأت سيدة تشغل بالحدث الكبير الذى أخذت تخوض غماره ..

أخيرا ستصبحين أما يا سيدة !

وملأها إحساس بالامتنان لعباس . شغلها عن أى شكوك يمكن أن تثيرها تصرفاته .

وفى يوم بعد أن تناول الغداء ، قال لها ببساطة :

ـــ تأخر علينا شيك وزارة المعارف واستحقت كمبيالات الورق ، ولا ندرى ماذا نفعل !

واسترخى على مقعده ، ومضى قائلا فى غير اكتراث :

ـــ موظفو وزارة المعارف كفرونا .. لكى نستخرج الشيك ، لا بد من عملية تسليك .. وتزييت ، فى كل مكتب . وأخيرا مرض الموظف المختص ، وقالوا إن دفتر الشيكات فى مكتبه وقد أغلق عليه .. وملعون أبونا نحن !

وأخذ عباس نفسا طويلا من السيجارة ، وأردف قائلا :

ـــ والمفروض أن نسدد الكمبيالات غدا .. وليس لنا من رصيد فى البنك ما يغطى المبلغ المطلوب ، ولا مفر من عمل البرتستو !

وهزت سيدة رأسها مستفسرة :

ـــ ماذا تعنى بالبرتستو ؟

ـــ يعنى حجز على المطبعة وبيعها بالمزاد سدادا للدين ..

وشد جسد سيدة وهى تسمع التهديد ببيع المطبعة وتساءلت فى جزع :

ـــ يحجزون على المطبعة ؟

ـــ أجل ..

ـــ ويبيعونها ؟!

ـــ المفروض أن يفعلوا هذا ..

ـــ وتقولها بمثل هذه البساطة ؟

وقال عباس مستسلما :

ـــ وماذا أفعل إذا لم أستطع أن أجمع المبلغ .. ليس هناك مفر من البرتستو ..

وأطلق عباس تنهيدة ، ثم قال :

— على أية حالة ، أرجو أن أفلح فى جمعه غدا .. لقد وعدنى الحاج مصطفى بتسديد ما تبقى عليه ، كما وعدنى الخواجه أنطون صاحب شركة الدخان بتسديد جزء من حسابه .. وعسى أن يصدقا !

وتساءلت سيدة فى قلق :

— وإذا لم يصدقا ؟

— يبقى عليه العوض !

ووثبت سيدة من مكانها صائحة :

— ما هذا الذى تقوله ؟.. تريد أن تضيع المطبعة فى شربة ماء ؟ أنت لم تعد تغامر بحياتك وحدك ، أنت أصبحت رب أسرة ، وستصبح غدا أبا لأبناء ، و لم تعد حياتك تحتمل هذه المغامرات .

ورد عليها عباس فى هدوء :

— وما ذنبى أنا فى هذا ؟ موظف وزارة المعارف مرض ، ودفتر الشيكات فى درجه !

— من أجل هذا تترك المطبعة تباع ؟

— وماذا أفعل ؟!

— لماذا لا يكون عندك احتياطى لهذه الأشياء ؟

— نحن داخلون فى مشروعات بناء ، وشراء مطابع .. أى احتياطى هذا الذى تريدينى الاحتفاظ به ؟!

وصمتت سيدة برهة تفكر ، ثم قالت فى حزم :

— كم تحتاج ؟

وأجاب عباس فى هدوء :

— أربعمائة جنيه !

ورددت سيدة فى ذهول :

— أربعمائة جنيه ؟!

— شيك الوزارة بخمسمائة جنيه ، وهو يغطى ببساطة كل مطالبنـا ، والمفروض أنه يصلنا بعد أسبوع أو أكثر ..

وردت سيدة بعد تفكير قصير :

— سأعطيك المبلغ ، على أن ترده بعد أن يصل شيك الوزارة ..

— من أين ستعطينه لى ؟

— من حسابى فى البنك ..

وهز عباس رأسه وقال فى صرامة :

— لا أريد من حسابك شيئا !

— لماذا ؟

— لا أريد أن أمس مالك ..

وسألته سيدة فى صبر نافد :

— قلت لك لماذا ؟

— لا أريد أن تصرف علىّ امرأة .. أنا لست محتاجا !

ونظرت إليه سيدة فى ذهول ..

أحقا يقول عباس هذا ؟!!

أيمكن أن يكون قد تغير إلى هذا الحد ؟

عباس الذى لطش منها البريزة فوق السطوح ..

والذى حاول أن يعمل عندها بلطجيا .. منذ أن عملت عند توحيدة ، حتى استقر بها الحال بعد دلال ..

هل يمكن أن يكون الرجل .. قد تحول بحيث يأنف أن يأخذ من مالها ما ينقذه .. وينقذ المطبعة التى هى مورد رزقه .. بل رزقهما معا ..

ثم إن مالها .. لم يعد مالها وحدها .

كما أن ماله لم يعد ماله وحده ..

واقتربت منه سيدة وقالت فى صوت رقيق :

— لماذا تقول هذا يا عباس ؟

— لأنى أنا هنا الرجل ، ولست فى حاجة إلى مالك .. بل إن مالك محرم على !

وزاد اقتراب سيدة من عباس ووضعت يدها على كتفه واستمرت تقول فى حنان :

— لا تقل هذا يا عباس .. عيب أنا زوجتك ، ومالى ومالك ، كما أن مالك مالى .. إن بيننا أولادا قادمين .. وسيصبح مالى ومالك لهم .. فلا تقل هذا أبدا ..

وعادت تربت ذراعه قائلة :

— هل أربعمائة جنية كل ما يلزمك ؟

ورد عباس فى إصرار :

— قلت لك لا أريد شيئا !

— هل تريد أن تباع المطبعة ؟

— سأتصرف غدا ..

— وإذا لم تعرف كيف تتصرف ؟

— يحلها ربنا !

— وإذا لم يحلها ؟

— وماذا أمامى أن أفعل ؟

— خذ النقود و اعقل !

— قلت لك لا أريد أن أمس مالك !

— اعتبرها دينا ..

وصمت عباس برهة ثم عادت سيدة تقول :

— اعقل يا عباس ولا تكن عنيدا !

وبدا على عباس كأنه يفكر ثم قال مستسلما :

— إذا كانت دينا فسأقبلها ، وسأردها بمجرد أن يصل الشيك من

الوزارة ..

— اتفقنا .. سأكتب لك الشيك بأربعمائة جنيه .. اصرفه غدا وسدد الكمبيالات .

برافو .. عباس ..

لطشت أول مبلغ .. وبرجاء من سيدة ..

لطشت الأربعمائة جنيه .. ورأسك مرفوع وكرامتك محفوظة ..

وفى الصباح صرف عباس الشيك ..

و لم يسدد ديونه كلها بالطبع .

سدد الشىء الضرورى الذى يحميه سداده من دخول السجن ..

أما الباقى .. فاندفع يلعب به فى بيت وجدان بحجة تعويض ما خسر ..

وأكد عباس إضافة سيئة جديدة إلى سيئاته ..

السيئة التى كانت تنقصه ..

سيئة القمار ..

ومن ذلك اليوم ..

بدأت عملية استنزاف النقود من سيدة ..

عملية متقنة ماهرة .. لم تثر أى شكوك .. أو تبعث أية مخاوف

وكانت سيدة سعيدة بحملها .. رغم كل ما صاحبه من قىء وغثيان ووحم .. كانت سعادتها به غالبة على كل شىء .

كان حملا يشدها إلى الحياة الطبيعية .. إلى الناس .. إلى النهار .

حملا يضعها فى الطريق السوى القويم .

حملا يرد اعتبارها كامرأة بعد طول مهانة وإذلال .

وهكذا شغلها الحمل عن كل ما عداه .. لم تعد تفكر كثيرا .. فى غيره ..

هذا الشهر بدأ يتحرك ..

هذا الشهر يجب أن ترقد فترة وإلا أضحت هناك خطورة على الجنين ..

مرة تحتاج إلى حقن كالسيوم .. ومرة تحتاج إلى حديد ..

وبين كل هذه المشاغل بالحمل والاستعداد لتلقى نتاجه .. طاح عباس فى مطالبه .. وازدادت مشروعاته الموهومة نموا وتعقيدا ..

وبدأ يعزف على وتر الأولاد القادمين ..

لم تعد مطالب الحياة مقصورة على سيدة وعبس .. وإنما تعدتها إلى القطيع القادم .. من آل عباس بن برعى .

أمن أجل هذا يجب أن ينمى عمله ويوسع نطاقه ؟..

أجل .. يجب أن يعمل شيئا للأولاد .. فهو لا يعلم ما تأتى به الحياة .. وهو لا يضمن عمره .

وترد عليه سيدة وهى تجلس على الأريكة وقد بدا بطنها منتفخا بحمله .

ـــ ربنا يعطيك طول العمر يا عباس .. ويخليك لهم .

ـــ لا أحد يضمن عمره فى هذه الحياة يا سيدة .. نحن فى الدنيا على كف عفريت .. ولا بد أن نضمن للأولاد شيئا يقيهم شر الحاجة .

ـــ أنت تعمل ما فى وسعك يا عباس .

ـــ ليس كفاية .. إنى أريد أن أشترى مطبعة أخرى روتوغرافور ..

ـــ غير الماكينة التى عرضوها عليكم ؟

ـــ هذه أوفست ولكن الأخرى روتوغرافور .. تطبع ستة ألوان مرة واحدة .. وتقص الفرخ وتطبقه ..

وأطلق عباس نفسا من السيجارة بين شفتيه وقال فى حماس :

ـــ ماكينة عجيبة .. كالوحش .. ممكن أن تبتلع السوق كله .

وصمت برهة ثم مصمص بشفتيه آسفا :

ـــ خسارة سيستنزف المبنى جزءا كبيرا من الرصيد .. وما زالت احتياجاتنا ملحة إلى أشياء كثيرة .. نريد ماكينة قص جديدة .. يبدو أن المشروع سيتوقف فى منتصفه ..

وكانت سيدة تفكر فى هذا المخلوق الذى بدأ يتحرك فى أحشائها ..

وبدأت تحس أن ثمة رابطة وثيقة قد عقدها المخلوق الذى لم ينزل بعد إلى الأرض .. بينها وبين هذا الرجل .

هذا الرجل أبوه .. وهى أمه ..

وهو يعمل ويكدح .. بعد عمر طويل من العبث واللهو .. من أجله ومن أجلها ..

وهى تشعر أنه لم يعد هناك من حجاب بينهما ..

هذا المخلوق المختفى فى باطنها .. قد أزال الحجب . وهتك الستر .. وضيع المخاوف وبدد الوساوس .

وإذا كان عباس يحاول أن يضمن الأمان له ولمن سيجىء من بعده .. ويقيهم شر الحاجة .. فإن عليها أن تشارك بكل ما تملك فى الضمان .

وعاد عباس يتمتم كأنه يحدث نفسه :

ـــ خسارة .. لو أن أحداً يقرضنى ولو بالفايظ ..

وردت سيدة فى احتجاج :

ـــ ولماذا بالفايظ ؟

ـــ لأنى أعرف أن المبلغ سيعوض بأرباحه أضعاف أضعاف الفائدة التى ستدفع له .

ونظرت إليه سيدة نظرة رقيقة حانية وقالت :

ـــ اسمع يا عباس .. إن لدى مبلغا محترما فى البنك .. خذ منه ما تشاء لتكمل المشروع ..

وهز عباس رأسه فى ضيق قائلا :

ـــ المفروض أن أسدد ما أخذته منك .. لا أن آخذ منك المزيد .

ـــ ليس بيننا ديون يا عباس .. كله باق لأولادنا ..

وصمت عباس برهة كأنه يفكر ثم قال فى لهجة حازمة :

— اسمعى يا سيدة .. سآخذ منك المبلغ .. بشرط ..

— ما هو ؟

— أن أكتب لك الأرض .. فيضحى كل ما عليها بعد ذلك من مبان ملكا لك ..

— ليس مهما يا عباس .. كله سيعود للأولاد .. سواء كان عندك أم عندى ..

— لا .. لا .. لكى أريح ضميرى .. لا بد أن أكتب لك الأرض التى سنقيم عليها المطبعة فى درب الجماميز .. وبهذا لا أصبح مدينا لك بشىء .. وتصبحين أنت صاحبة كل شىء ..

وفى اليوم التالى .. بعد أن صحبها عباس إلى الدكتور .. أخذها لتشاهد بنفسها قطعة الأرض .

وبالقرب من المدرسة الخديوية فى الشارع الضيق الموازى لشارع الخليج الذى يخترقه الترام رقم ٥ الواصل بين السيدة وغمره .. وقف عباس يشير إلى قطعة أرض فضاء على ناصيتها صندوق كازوزة . قائلا :

— هذه هى الأرض .. موقعها سقع .. فى مكان وسط بين باب الخلق والأزهر وشارع محمد على .

ووجدت سيدة قطعة الأرض تحاصر بأبنية خربة وتشرف على شارع قذر ضيق .. فقالت له :

— ولكن ألا تجد أن المكان لا يختلف كثيرا عن مكان المطبعة القديمة ؟

— يا عبيطة .. هذه المبانى التى أمامك كلها ستهدم .. وسيتصل هذا الشارع بشارع الخليج ويصبح شارعا عرضه مائة متر .. غدا سترين ما أفعله هنا .. سأجعل المطبعة تحفة .

— ولكن هذا الشارع مضى عليه عشرون عاما .. وهم يحاولون توسعته .. وما زال باقيا كما هو .. كل ما هدم هو بضعة مبان من نواحى السيدة .

— لا .. لا .. إن العمل سيسير فيه على قدم وساق .. لقد تأكدت من مصلحة التنظيم أنه لن يمر هذا العام حتى يكون قد اتسع .

ونظر عباس إلى كشك بائع الكازوزة وأشار إلى الرجل الجالس على الدكة أمامه قائلا :

— اسمع يا حاج .

وأقبل الرجل يحييه قائلا :

— أهلا وسهلا .

— سيأتى غدا .. المعلم عيد المقاول .. لكى يشون بعض المون .. قل له أن يأتى إلى فى المكتب .. قل له عباس بك وهو سيعرف .

وهز الرجل رأسه قائلا :

— حاضر .

وانصرفت سيدة وعباس .. ولم يثر فى نفسها أى شك فى عباس ومشروعاته لا سيما بعد أن أصر على أن يكتب لها قطعة الأرض .. كل ما شغلها — بعض الوقت — هو هل هذه الأرض هى أصلح مكان للمطبعة أم لا ؟.. وسرعان ما نفضت الأمر عن ذهنها تاركة مشكلته لعباس .. فهو أدرى منها — مهما بلغت عدم درايته أو سوء تقديره — بشئون المطابع ..

وهكذا وضعت سيدة رصيدها فى البنك تحت أمر عباس .. ليستكمل به مشروعاته فى إقامة المبانى وفى شراء المطبعة .. بعد أن أكد أنه سيكتب لها الأرض كشرط أساسى لقبول النقود .

كل ما اعترضت عليه .. هو ضرورة التأكد من أن الأرض هى أصلح الأماكن للمطبعة .. والتأكد من أن شارع الخليج سيتسع فعلا .

وشغلت سيدة بعد ذلك بحملها ..

حتى هبط الوليد ..

فزادت مشاغلها به ..

هبط الوليد فى ليلة صيف .

بدأ الصراخ منذ المغرب . وأتى الطبيب وفحصها ثم انصرف قائلا :

ـــ لسه بدرى ..

ثم نظر إلى الممرضة التى أحضرها معه قائلا :

ـــ ابقى معها .. وإذا جد الجد .. فاتصلى بى فى العيادة أو فى البيت وسآتى حالا .

وارتدى عباس ملابسه استعدادا للخروج .. وقالت له سيدة وهى مستلقية على ظهرها فى الفراش :

ـــ إلى أين ؟

ـــ هناك مطبوعات عاجلة لا بد أن تسلم للوزارة .. وسأمر على المهندس لأرى ماذا تم فى التعديل الذى طلبته .

ـــ ألم يبدأ العمل بعد ؟!

ـــ فى هذا الأسبوع سيبدأون .. لقد تعطل العمل من أجل الرخصة والتعديلات المطلوبة .

ـــ أمن الضرورى أن تخرج ؟

ـــ العمل لن يتم إلا إذا وجدت بنفسى فى المطبعة .

ـــ أنا أشعر أنى سألد الليلة .

ـــ مضى عليك أسبوع وأنت تقولين هذا .. لقد قال الدكتور لسه بدرى .

وصمتت سيدة ثم عادت تقول :

ـــ لا تتأخر .. فأنا أخشى أن يأتينى الطلق وسط صفارات الإنذار .

ـــ لا تخافى سأعود بسرعة ..

وانصرف عباس متجها إلى بيت وجدان .. وكانت المصابيح زرقاء والطرقات شبه مظلمة بعد أن تزايد ضرب الألمان للقاهرة .. وكانت صفارات الإنذار قد أصبحت من الأصوات المألوفة للآذان .

وصعد عباس إلى شقة وجدان .. وكانت الشلة قد اجتمعت حول المائدة الصغيرة .. وصاح عبد البر الموظف فى وزارة الأشغال :

ـــ تأخرت علينا يا عباس .. ظنناك مريضا .

وضحك عباس :

ـــ الجماعة سيضعون يابو عبده .

ـــ متى ؟

ـــ يبدو أن الأمر قد قرب .. وغدا سأصبح أبا .

ـــ أسعيد أنت ؟

ـــ كله محصل بعضه .. ولكن الولية تبدو سعيدة .. وبسلامته قد شغلها عنا .. هذه هى أكبر فائدة لى .

وقال عمر المخرج السينمائى :

ـــ الألمان قد اقتربوا ووصلوا إلى العلمين .. لقد ضحضحوا الإنجليز .

ورد آخر :

ـــ الإنجليز باين عليهم خيخة .

ـــ كلام فارغ .. بكره الألمان سيأكلونها ساخنة .

ـــ انت مع الألمان والا مع الإنجليز ؟

ـــ لست مع هذا ولا ذاك .. نحن ليس لنا فى الثور ولا فى الطحين .

ـــ هل سمعت عن المظاهرات التى هتفت اليوم لروميل ؟

ـــ ولماذا روميل ؟.. ما اسخم من سيدى الا ستى ..

ـــ الوزارة ستستقيل ..

ـــ تستقيل أم تبقى كله محصل بعضه .

واستمر اللعب ..

وفجأة ضربت صفارات الإنذار ..

وصاح صائح اطفوا النور .

وأنهت الجماعة اللعب ..

وتساءل أحدهم :

ـــ ننزل المخبأ ؟

ـــ ولا نروح ولا نيجي .. منجلس حتى تنتهى الغارة ونواصل اللعب ..

ونهض عباس من مجلسه فتساءل أحدهم :

ـــ إلى أين يا عبس ؟

ـــ سأذهب لأرى الوليه ..

ـــ ومالها الوليه ..

ـــ أخشى أن تكون الولادة قد فاجأتها خلال الغارة ..

وهبط عباس يتحسس طريقه فى الظلام حتى وصل إلى الشارع .

وتعالى صوت (الدوىّ) ولاحت شعل القنابل المضادة للطائرات فى السماء

وواصل عباس سيره حتى وصل إلى البيت .

ووقف أمام باب الشقة يدق الجرس .. وبعد لحظة أقبلت أم سيد تفتح الباب

وقد أمسكت بيدها لمبة جاز و لم تكد تبصر وجهه حتى هتفت به :

ـــ مبروك يا سيدى .. مبروك عليك جابر .

وتساءل عباس فى دهشة :

ـــ جابر ؟

ـــ أجل سيدتى .. ولدت ولدا .. سمته جابر .

وقال عباس ضاحكا :

ـــ طيب يا ستى .. جابر .. جابر .. الحمد لله .

ولقيته الممرضة على باب الحجرة قائلة :

ـــ مبروك يا بيه .. ولى العهد .

وضحك عباس ..

أصبح لك ولى عهد يا عبس ..

ولى عهد .. للديون .. والنصب .. والاحتيال ..

ولو تعرف المسكينة ما تعبت نفسها لحظة فى الإنجاب ..

وأقبل عباس على سيدة يهتف بها فى فرحة :

ـــ مبروك يا سيدة .. حمد الله على سلامتك ..

ـــ هل رأيته .. إنه ولد .. يقولون إنه يشبهك .

ـــ يشبهنى أنا ؟.

وأردف يقول مقهقها :

ـــ تبقى مصيبة .. هى البلد ناقصة .. ألا يكفيها عباس واحد .

وردت سيدة فى صوت ضعيف :

ـــ سميته جابر على اسم المرحوم أبى .

ـــ فيكى الخير يا سيدة .. كان رجلا طيبا وأميرا ..

وتلفت حوله متسائلا :

ـــ أين الدكتور ؟

وقالت الممرضة :

ـــ لم يأت بعد .. لقد أتاها المخاض .. ونزل الولد والضرب شغال .. وقبل أن نتمكن من طلب الدكتور فى التليفون .. ولكنه لا بد أن يكون الآن فى الطريق ..

ونظر عباس إلى المخلوقة الراقدة فى ضعف وإلى قطعة اللحم الراقدة بجوارها وساءل نفسه :

ـــ ماذا فعلت يا عبس ..

أكان ينقصك هذا المخلوق ..

ألم يكفك كل ما حولك من مشاكل ومتاعب ؟..

(٣٨)

من جحر .. مرتين !!

نما المخلوق الجديد الذى أضاف كائنا إلى أسرة عباس البرعى وسيدة جابر .. وازداد تعلق سيدة به مع الأيام .

بدأت تبصر فى الحياة شيئا جديدا .

لم تعد مطالبها من الحياة تقتصر على ذاتها . ولا عادت تتساءل كثيرا عما تريده من الدنيا .

وإنما تركز كل اهتمامها فى الحياة ومطالبها منها فى هذا المخلوق الصغير الذى بدا أول الأمر كأنه قطعة منها عاجزة بلا حول ولا قوة .. لا يملك قدرة التعبير عما يريد إلا البكاء ..

وأحست أنها بهذا المخلوق العاجز الذى لا حول له ولا قوة .. إلا بها .. قد أضحت شيئا هاما .. وأنها باتت قادرة على أن تثبت فى هذه الحياة نبتا حيا .. سيصبح قادرا على مر الأيام . وبدأت ترسم له صورة مختلفة فى سنى أدوار عمره ..

غدا سيحبو يا سيدة ثم ينطق ..

سيقول ألفاظا مختلطة لا معنى لها .. ثم ينطق كلمات مهتزة الحروف مضحكة النطق ..

وسيميزك وحدك عن بقية المخلوقات .. سيرفع ذراعيه إليك ويرتمى نحوك .. ثم يصلب عوده .. ويسير .. يمسك فى ذيل ثوبك ويتبعك كالظل أينما كنت ..

متى يفعل هذا يا سيدة ..

متى يسير .. ويناديك .. ويطلب بشفتيه ما يريد ..

و لم يطل به الأمر حتى فعل ..

الأيام تسير يا سيدة ..

وما ترسمينه فى خيالك صورا .. يضحى غدا حقائق ..

ونطق جابر وسار .. وأمسك فى ذيلك كما كنت تتوقعين و لم يبد عباس إقبالا كثيرا عليه ..

قد يكون ذلك لأن عباس أشد إقبالا على ذاته واهتماما بها من أى إنسان آخر .. وقد يكون لأنه .. مشغول ليله ونهاره بالمطبعة ومبانيها .. وماكيناتها وصفقاتها .

و لم يتوقف عباس عن طلباته طوال تلك المدة ..

وكان اجرأ عليها .. لأنه يأخذ منها ليضيف إليها .. إن ما يأخذه ليس منحة أو قرضا .. وإنما هو نقود تحت الحساب .. حساب المطبعة الجديدة التى ستصبح ملكا لها فى درب الجماميز .

وفى يوم قبيل المغرب .. وجابر الصغير يشب على المنضدة ليجذب شيئا مما فوقها وأمه تصيح به ناهرة ..

ــ وبعدين يا جابر .. وآخرتها معاك ..

وجذبته إليها ثم رفعته من ذراعيه وضمته فى شوق قائلة ..

ــ أعمل فيك إيه .. مغلبنى من شقاوتك .. طالع لمين بس ؟..

وردت عليها أم سيد :

ــ لأبيه يا ستى .. حايجيبه من بره ؟!!

ولقد بدا جابر خليطا من أبيه وأمه .. فى جسد سمين وخدود ممتلئة ..

ودق جرس الباب وفتحت أم سيد ودار بينها وبين الطارق حديث أتت بعده إلى سيدة تقول :

ــ واحد يقول إنه الأسطى عبده من المطبعة .

ــ الأسطى عبده ؟.

وفكرت برهة ثم صاحت :

— آه .. عبده بتاع المطبعة .. سنوات طويلة لم أره .. دعيه يدخل .
وأقبل عبده .. هدت السنون قواه .. وبيضت رأسه .. وأحنت جسده .
ومدت سيدة يدها إليه مرحبة .

— عبده .. أهلا وسهلا .. ازيك يا عبده .. اتفضل ..

وأخذت سيدة مكانها على أحد المقاعد ، وجلس الرجل قبالتها وهو يقول :

— ازيك يا ست . الحمد لله أن رأيتك بعد هذا العمر الطويل واطمأننت عليك .. لقد علمت أنك تزوجت من سى عباس ولكنى لم أكن أعرف البيت حتى آتى لزيارتك .. و لم تأت أنت لزيارتنا فى المطبعة ..

— الدنيا مشاغل يا عبده .. وسى عباس كان يطمئننى دائما عليكم وعلى المطبعة ويقول لى إن الشغل على ما يرام والأشيا رضا ..

ورفع إليها عبده حاجبيه الأشيبين وتساءل فى دهشة مستنكرة ..

— الأشيا رضا ؟

— أجل وأرانى أرض المطبعة الجديدة فى درب الجماميز . وأخبرنى أنه تعاقد فعلا على الماكينات الجديدة ..

وعاد الرجل العجوز يتساءل فى ذهول :

— ماكينات جديدة ؟

— أجل .

— هو قال لك هذا ؟..

— لقد دفعنا فى العملية حتى الآن ما يربو على ألف وخمسمائة جنيه .

واستمر الرجل يرد كالأبله :

— ألف وخمسمائة إيه ؟

— جنيه ..

وضرب الرجل كفا بكف وهو يقول :

— يا ست سيدة .. قولى شيئا غير هذا .

وردت سيدة فى جزع .

— لماذا يا عم عبده ؟

— لأن المطبعة محجوز عليها .. نظير ديون مستحقة لشلهوب .. والحاج مصطفى .. والخواجة أنطون .. وعدد آخر من الديانة .

ودفعت سيدة ابنها الذى وقف يتمسح فى ركبتها جانبا ووثبت من مقعدها كقطة تنشب أظافرها .. وتقوس ظهرها .. وصاحت كالمجنونة :

— المطبعة محجوز عليها .. انت اتجننت ؟

وتنهد الرجل فى حزن وهو يقول :

— الله يسامحك يا ست .. أنا الذى جننت .. كتر خيرك .

وحاولت سيدة أن تتمالك وجذبت الرجل الذى وقف أمامها وهو يوشك أن ينصرف وقالت له وهى تعود إلى مقعدها وأنفاسها تتلاحق :

— اجلس يا عم عبده .. اجلس .

وبعد أن التقطت أنفاسها .. تساءلت فى لهجة أكثر هدوءا :

— تقول إن المطبعة محجوز عليها ؟..

— أجل .

— أواثق أنت من هذا ؟

— أجل .

— منذ متى ؟

— منذ شهور عديدة .. وهو يحاول تأجيل الكمبيالات .. ولقد حاولنا أن نحجز الإيراد لنسدد بعض ما علينا من كمبيالات .. ولكنه .. كان كالبالوعة .. يشفط كل ما نحصل عليه ..

وأخذت سيدة تهز رأسها كالفرخة الذبيحة وعادت تقول محاولة أن تريح نفسها :

— ربما كان يأخذ .. للعمليات الجديدة .

— أى عمليات ؟

— الماكينات الجديدة . والبناء فى درب الجماميز .

— ماكينات جديدة .. عباس يشترى ماكينات جديدة ؟..

— لقد أكد لى هذا .

— طيب يخلص الحجز على الماكينات القديمة أولا ..

— والبناء فى درب الجماميز ؟

— أى بناء ؟

— على الأرض التى تركها له أبوه .

— أبوه ترك أرضا فى درب الجماميز ؟

— لقد أراها لى بنفسه .

— جائز .. لقد مضى بى أربعون سنة أعمل عندهم .. لم أسمع أن لهم أرضا فى درب الجماميز .. ولكن من يدرى .. إن سى عباس .. على كل شىء قدير .

وأحست سيدة أن أطرافها تبرد وأن جسدها ينمل وأمسكت جانبى المقعد بكلتا يديها حتى لا تتهاوى .. وأخذت تردد كالمشدوهة ..

— إذن ليس هناك أرض ولا مطبعة .. والنقود قد لطشها عباس .

ورفعت يديها تلطم خديها قائلة :

— يا خراب بيتك يا سيدة .. ضحك عليك عباس ..

سرقك عباس يا سيدة .. كما سرقك علام ..

والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .. ولكنك لست مؤمنة بدليل إنك لدغت من نفس الجحر .

ومن يدرى قد يكون تزوج عليك .

هذا السهر والغياب عن البيت .. والنقود التى شفطها كالبالوعة .

يا وقعتك المنيلة .. بنيلة .. يا سيدة .

ضاعت كل فلوسك .

سرقها .. الكلب .. ابن الكلب ..

ولكن كيف يسرقك ؟.. وهو زوجك .. وأبو ابنك .. كيف يسرق مال ابنه ؟..

ولكن من يلومه ؟..

ومهنته النصب على خلق الله .

من يلوم الذى زور البونات على توحيدة ؟..

الملوم هو أنت ..

أنت التى تستحقين كل ما جرى لك ..

أنت تعرفينه من أخمص قدميه إلى قمة رأسه .. لقد خبزته وعجنته .. عرفت ألاعيبه طوال عمرك ..

ومع ذلك وقعت فى شراكه .. كالبلهاء .. جرك على ملا وجهك .. وانطلت عليك خدعته .

ولكن كيف لا تصدقينه ؟..

وقد أقبل يعرض عليك الزواج .. وتزوجك فعلا .

واستمر يصرف عليك فى كرم وبحبحة .. خلال الشهور الطويلة ..

لم يكن أكرم منه رب بيت .. يعرف قدر نفسه وقدر امرأته ..

وأنجب منك يا سيدة ..

ارتضى بأن يكون أبا لابنك .. شرعا .. وأن يرتبط بك مدى الحياة .. بهذا المخلوق الذى سيشدك وإياه حتى لو حدثت الفرقة ووقع الطلاق ..

فعل كل هذا يا سيدة .. دون أن يطلب منك شيئا ..

وهو حتى الآن .. لم يسألك مليما واحدا .

أنت التى رجوته أن يأخذ .

لم يفعل أكثر من مجرد عرض حالته ..

سرد مشاكله .. وشرح مشروعاته ..

وصمت ..

لم يطلب منك حتى المشاركة فى حاله .

أنت التى تطوعت .. قلت له إن مالك ماله .. وأن المال كله باق للأولاد ورجوته أن يأخذ المال مرة كقرض .

ومرة ثانية رفض حتى أن يأخذه كقرض ..

وأصر على أن يكتب الأرض لك .. ويضع مالك فيها .

ما شاء الله !! ماذا تريدين أكثر من هذا ؟.. وأى مخلوق على ظهر الأرض لا تنطلى عليه الخدعة ..

يا عباس ؟!! يا ابن أم عباس ؟!!

ماذا أفعل بك ؟..

أأقتلك ؟!! ولكن ما الفائدة ؟. ماذا يمكن أن آخذ من قتلك ؟..

أذهب إلى السجن . وأيتم الولد من أبيه وأمه ..

أطلب الطلاق ؟!

وماذا يفيد ؟..

المهم كيف أسترجع النقود ؟

بل وأين النقود ..؟! لو أن شيئا منها قد بقى .. لأنقذ به المطبعة من الحجز والضياع .

مصيبة يا سيدة ؟

ولو أنها وقعت على رأسك وحدك .. لهان الأمر ..

ولكن هذا الصغير .. ما ذنبه ؟..

تحضرينه إلى هذه الحياة .. وأنت لا تملكين قوته .. ومن أب .. لا يستطيع أن يسأل عن نفسه .. بل لا يستطيع أن يترك الناس فى حالها .. ويأبى ألا يسطو عليها ويجردها من كل ما تملك .. فى سبيل شهواته ولذاته ..

ماذا تعملين يا سيدة فى هذه المصيبة ؟

ونظر إليها الرجل بعد طول صمت قائلا :

ــ ما العمل الآن يا ست سيدة .. لقد صممت على أن أعرف العنوان حتى أحضر إليك وأستغيث بك . لم أكن أدرى أنك لا تعرفين .. و لم أكن أدرى أنه قد فعل ما فعل .. والآن ماذا يمكننا أن نفعل فى هذا الخراب الذى ينتظرنا جميعا .. كلنا سنشرد يا ست سيدة ؟

وانصرف الرجل بعد أن ألقى قنبلته فى وجه سيدة .. ليتركها شظايا ..

هل يمكن أن يكون الرجل حقا قد فعل كل هذا ؟..

وعاد عباس إلى البيت .. بعد أن أمضى سهرته .

ودار حوار طويل عاصف بينه وبين سيدة .. لف وحاور وكذب .. وأكد أن الماكينات فى الطريق .. ورخصة البناء قد أوشكت أن تنتهى .. إلخ ..

ولكن شيئا واحدا لم يستطع أن ينكره .. وهو أن الحجز سيوقع بعد بضعة أيام على الماكينات ..

وادعى أنه سيدبر المبلغ لكى يدفع الكمبيالات .

وأصرت سيدة أن تأخذ كل ما دفعته له على داير مليم ..

وبعد بضعة أيام التقت بدلال .. وعرفت منها أن عباس يقضى سهرته فى بيت وجدان .. وأنه يلعب القمار .. وأنه لم يتزوج ..

ولكن قلقها على مصيرها ومصير الصغير .. أخذ يتزايد .. وهى تعرف أن عائلهما قد انتهى .. وأن همها فى عباس .. وفى إمكان إصلاحه وحمله للمسئولية قد تبدد نهائيا ..

وأزعجها .. أن طريق الرزق قد بات مغلقا أمامها .. فهى لا تستطيع أن تعاود طريقها الأول .. ليس من أجل نفسها وضيقها بهذا الطريق .. بل من أجل هذا المخلوق الذى تشعر بمسئوليتها الكبرى أمامه .. والذى يتحتم أن تتخير طريقها جيدا من أجله .

والذى ستحمله مع الأيام كل أوزارها .

ووقع الحجز على المطبعة وبيعت ..

وفى اليوم التالى أقبل المحضر .. يريد أن يحجز على أثاث المنزل ..

وصاحت فيه سيدة أن الأثاث ملكها .. وأنه ليس لعباس فى البيت كرسى واحد ..

وفى عصر ذلك اليوم حملت سيدة مصاغها .. وذهبت إلى روض الفرج .

هذا المصاغ هو كل ما تبقى لها .. ولم يعد هناك مكان آمن من بيت ستّ فاطمة للاحتفاظ بالمصاغ ..

واقبلت سيدة على الحى ..

هبطت من ترام رقم ٨ فى محطة المحامى .

وكان مظهرها قد تغير تغيرا واضحا خلال الأعوام الثلاثة التى أمضتها مع عباس .. ذهبت عنها أناقة المهنة المصنوعة .. مكياج الوجه الثقيل الواضح الخطوط الفاقع الألوان .. لا كحل ولا ريميل ولا خطوط ولا خال ولا أحمر فوق الخدود والشفاه .. ولا مشدات تبرز معالم الجسد ..

كل هذا لم تعد تحتاج إليه .. وعاد وجهها بملامحه البسيطة الأولى .. سمرة باصفرار وفم متسع .. ولم يبق لها من معالم الجمال سوى أنفها الصغير وعينيها الواسعتين .. والغمازة على جانب فمها ..

وغير الحمل والولادة معالم جسدها .. لم يعد ذلك الجسد الممتلىء المرسوم .. تهدل صدرها .. وكبر بطنها .. وامتلأ خصرها .. وترهلت أطرافها .. وأضحت أقرب إلى أن تكون أما .. منها إلى غانية .

ولم تعد لها القدرة أو الحرص على أن تتابع مودات الثياب .. وقدم العهد بما لديها .. فأصبح ما ترتديه لا يلفت ولا يثير .

نضحت عليها السنوات الثلاث التى قضتها .. ما بين الحمل والولادة والرضاعة وتربية جابر .. فجعلت مظهرها عاديا .. بغير جاذبية سوى ما تبقى من مظاهر فتنتها الأولى .. التى جارت عليها .. لهفة على الأمومة .. ورغبة

فيها .. بعد طول فقدان للذات وامتهان للنفس .

سارت سيدة فى شارع بكتمر المؤدى إلى البيت فى روض الفرج .

وتذكرت أول رحلة لها فى الحى فوق الأثاث المحمل على العربة الكارو ..

تغيرت معالم الحى كله .. تزاحمت الدور على أرضه .. واختفت الرقعة الفسيحة المخضرة التى كانت تمتد على مدى البصر فى حديقة طوسون والحقول المحيطة بها .. قسمت حقول القصب والخبيزة إلى أراض .. ونبتت البيوت فى الأراضى كالعيدان الجافة .. وأحاط بها الصغار كالنمل .. وانتشرت أكوام القمامة وحوانيت البقالة على النواصى .

الناس يتزاحمون فى كل مكان .. والأولاد يتكاثرون يا سيدة .. وسيكبرون ومن بينهم جابر .. والقنابل تهبط من السماء لتدمر ما على الأرض من عمار .. ولا بد لهم من مدارس يتعلمون فيها .. ووظائف يعملون بها .. وبيوت يتزوجون فيها ليأتوا بمزيد من الأولاد يرغبون فى مزيد من المدارس .. والأعمال والبيوت .. بدلا من أن تضيف إليها .. ما يؤوى هذه القطعان المتزايدة على الأرض ويفى بحاجاتها .. أم ترى القنابل تهوى لتقضى على القطعان نفسها .. ليتحول الإنسان إلى نوع من الحيوان ينجب ذريته ليأكلها ..

ووصلت سيدة إلى البيت ..

هدم سور طوسون العالى الذى كان يتسلقه اللوف بأوراقه الخضراء الداكنة وزهوره الصفراء وكيزانه الطويلة .. ونفذ الشارع من خلاله يمتد بالمبانى على جانبيه حتى سور المدرسة ..

ولاح لها البيت وقد بدت عليه معالم البلى والقدم .. وضاق الشارع أمامه .. وكتبت اللافتات العابثة على جدرانه .. ومن بينها لافتات انتخابات قديمة « انتخبوا عبد العال برهوم بطل الجلاء ووحدة وادى النيل » .

وصعدت سيدة بضع الدرجات التى تمتد وراء الباب الحديدى الخارجى الذى تحطم زجاجه .. وعلاه التراب . ووقفت أمام باب الشقة تدق الجرس .. ومضت برهة دون أن يرد أحد . وتذكرت سيدة أن جرس الباب كان عاطلا

فى معظم الأوقات وبدأت تطرق الباب بيدها .

وسمعت صوت الست فاطمة يصيح من الداخل :

— افتحى يا كوثر .. افتحى يا حبيبتى أصل البنت نعيمة طرشت .

وتذكرت سيدة كيف كانت تتصامم عن سماع طرقات الباب أو النداءات التى تلاحقها وكيف كانت الست فاطمة تصيح بسميحة نفس الصيحة « افتحى يا سميحة يا اختى .. أصل البنت سيدة طرشت » .

و لم تستطع أن تمنع ابتسامة من أن تعلو شفتيها على كل ما تحمله من هموم ..

وفتح الباب وأبصرت أمامها فتاة حلوة ناضجة لم تصدق أنها كوثر وهتفت بها فى فرحة :

— ستى كوثر .

وكانت كوثر تحب سيدة ..

كانت تحملها على كتفها وهى صغيرة .. وكانت تشترى لها المصاصة .. وتأخذها معها إلى السوق .

وهتفت بها كوثر مرحبة :

— سيدة !!..

وصاحت فاطمة تتساءل من الداخل :

— من يا كوثر ؟

— سيدة يا خالتى .

— سيدة مين ؟

وأفسحت كوثر الطريق إلى الداخل لسيدة وهى تقول مرحبة :

— أهلا وسهلا .. ازيك يا سيدة . ما هذه الغيبة الطويلة ؟

ثم ردت على خالتها قائلة :

— دى سيدة يا خالتى .. سيدة بتاعتنا .

ومضت فترة صمت لم تسمع خلالها ردا من السيدة الكبيرة .. و لم تعرف

كيف كان وقع قدومها عليها .. وسماعها لاسمها .

ترى هل أخبرها حمدى ؟

قطعا لا .. إنها تعرف حمدى جيدا .

لم يتعود قط أن يقول شيئا عن الناس .. يبدو دائما وكأنه لا يعرف سوءا عن أحد .. ومع ذلك فهو يعرف كل شىء .

ولكن هل يعنى عدم بوح حمدى بشىء عنها . أنها لا تعرف شيئا ؟ وألسنة الناس الطويلة ؟

ولكن من يمكن أن يعرف فى الحى عن هذه الأشياء ؟

من يمكن من هؤلاء الذين تلتقى بهم الست فاطمة ؟..

من يدرى .. أحد من الباعة .. أو الخدم .. أو زملاء حمدى .. يروى من باب الدردشة عن أن البنت التى كانت تعمل عندكم .. أصبحت تعمل الآن فى « الحتت البطالة » .

معقول جدا أن يقول إنسان للست فاطمة هذا .. ولو من باب التفكهة ..

تصورى يا ست فاطمة .. البنت الساهية .. التى كانت تعمل عندكم .. أصبحت تعمل فى وجه البركة .

وترد أخرى معقبة :

— ساهية ازاى .. دى من يومها مقطعة السمكة وذيلها ..

ترى كيف يكون رد فعل هذا على الست فاطمة ؟..

وترددت سيدة برهة فى مكانها . ولكنها ما لبثت أن خطت إلى الداخل ..

لم يعد يجدى التردد الآن يا سيدة .. ادخلى .. وليكن ما يكون .. لقد كانت الست فاطمة دائما ملجأك وملاذك .. ما أحسست بالطمأنينة إلى مخلوق .. أكثر مما أحسست لها .. فادخلى .

وأقبلت سيدة على الست فاطمة ..

كانت تجلس على الأريكة كعادتها . ونهضت لتحيتها ..

هزلت كثيرا .. وخف شعرها وسرى فيه البياض .. وترهل لحم ذراعيها المكتنزتين ..

وزاد النمش على ظاهر كفها .. الذى نفرت فيه العروق الخضراء بعد أن كان الشحم يكسوها ..

وكانت تحيتها عطوفا حانية .. لم تنم عن شيء مما كانت سيدة تخشاه وربتت ظهرها فى حنان وهى تقول :

— سلامات يا سيدة .. فينك كل ده .. ولا سؤال .. ولا كلمة .. تخونك العشرة .

وجلست سيدة بغير وعى منها على حشية على الأرض أمام .. الست فاطمة ..

وجذبتها كوثر من يدها قائلة وهى تشير إلى المقعد ..

— اجلسى هنا يا سيدة ..

— معلهش .. هنا .. أفضل .

وقالت الست فاطمة :

— اجلسى كما يريحك يا سيدة .. أنت فى بيتك ..

وجلست كوثر على مقعد قبالتها وهى تقول ضاحكة :

— سمنت يا سيدة .

— وانت كبرت واحلويت .. هل تصدقين أنى لم أعرفك ؟.

وقالت الست فاطمة معلقة :

— بنت حلال .. وأميرة .. ربنا يجعل لحمدى قسمة فيها .

وفوجئت سيدة بقول الست فاطمة . ونظرت إلى كوثر فإذا بها شابة .. وإذا بأمنية الأم جائزة التحقيق .

أهذا معقول ؟!

هذه الطفلة التى طالما حملتها على كتفيها .. واشترت لها المصاصة .. تفوز

بالورقة الرابحة .. دون غيرها من المخلوقات .

ليست صفاء .. ذات الوجه الملائكى والشعر المسترسل والعينين الصافيتين .

وليست هى .. صاحبة الحب المستعر الذى لا ينطفىء له لهب .

وليس أحد فى هذه الدنيا ..

ولكنها هذه الطفلة .. الطيبة .

حكم ..

ونظرت سيدة إلى الأم ورددت أمنيتها بغير وعى ..

— ربنا يوفقهما ويهدى سرهما .

وضحكت كوثر قائلة وقد علا وجهها حمرة الخجل :

— ما هذا يا خالتى .. لسه بدرى .. على كل هذا .. أنا سأبقى معك على طول .

وقالت سيدة :

— ومن أجل هذا .. تدعو أن يكون لحمدى نصيب فيك .. ولا أظن أن الله يمكن أن يوفقه إلى عروس أفضل منك .. المهم ما هى أخباره وأخبار الست سميحة ؟

وقالت الأم :

— أخبار سميحة على ما يرام .. أنجبت بنتا وولدا ..

وتساءلت سيدة فى دهشة :

— حقيقة ؟.

ثم أردفت ضاحكة :

— إنها أشطر منى .. لقد أنجبت أنا ولدا .

والتفتت إليها الأم متسائلة فى دهشة :

— هل تزوجت ثانية ؟

— أجل ..

— أجل .. تزوجت عباس ابن صاحب المطبعة الذى كنت أعيش عندهم قبل أن أحضر إليكم ..

وبدا الارتياح على وجه الست فاطمة . كأنها كانت تحمل هما وانزاح عن كاهلها .

وقالت فى رضا :

— الحمد لله الذى وفقك إلى الزواج .. الزواج .. الزواج سترة يا سيدة .

وصمتت برهة ثم تساءلت :

— وكيف حالك مع زوجك ؟

وأفلتت سيدة تنهيدة حارة ثم قالت :

— لا أريد أن أحملك همى .. لا أظن أحدا مستريحا فى هذه الدنيا .

وردت السيدة متسائلة :

— خير ؟

— أبدا .. يبدو أنه ليس لى حظ فى الزواج .. لقد أرانى المر .

— كيف ؟

— أمضى عامين وهو يوهمنى أنه يبنى مطبعة على قطعة أرض كتبها لى وأخذ منى كل ما لدى من نقود .. وأخيرا اتضح أنه ليس هناك أرض ولا بناء .. وأنه قامر بكل ما أخذ منى .

— مسكينة .. شر الأزواج المقامر يا سيدة .. ليس له علاج ... وماذا فعلت ؟

— أتيت إليك لأحفظ عندك ما لدى من مصاغ حتى لا يأخذه .. وأجد نفسى غدا بلا مأوى وبلا مليم يقينى أنا وابنى غائلة الجوع .

وهزت فاطمة رأسها فى حزن وقالت فى أسى :

— لماذا لا يستقيم الناس ؟.. لماذا لا يستريحون ويريحون ؟.

ومدت سيدة يدها إلى صدرها ثم أخرجت لفافة وضعت بها المصاغ وسلمتها

إلى الست فاطمة .

وتناولتها الست فاطمة قائلة :

— سأحفظها كما هى .. أى وقت تحضرين ستجدينها فى الدرج الذى تعودت أن أضع فيه مصاغك ..

ثم هزت رأسها فى أسى وتمتمت قائلة :

— ربنا يهديه ..

ومضت برهة صمت ثم تساءلت سيدة بطريقة عابرة ..

— وما هى أخبار حمدى ؟

وتطوعت كوثر بالإجابة قائلة :

— ترك جريدة الوفد التى كان يعمل بها .. بعد دخول الوفد الوزارة على دبابات الإنجليز .. وعمل مجلة هو وصاحباه رءوف وصلاح . واستأجروا دارا فى شارع الإنشا .. واشتروا منذ بضعة أيام ماكينة طباعة بالمزاد من شارع السد . ماكينة قديمة فى مطبعة اسمها مطبعة برعى ..

وفغرت سيدة فاها وتساءلت فى ذهول :

— حمدى اشترى مطبعة برعى ؟

وردت كوثر قائلة :

— أجل .. إنها مطبعة قديمة ولكنه قال إنها يمكن أن تقضى .

وصمتت سيدة .

هذه الدنيا .. ضيقة .. ضيقة ..

باع عباس المطبعة .. واشتراها حمدى ..

ثم ماذا ؟!!

(٣٩)

إلى السطح ..

عادت سيدة إلى بيتها بعد أن حفظت مصاغها عند أم حمدى .

عادت لتبدأ مرحلة من الصراع مع عباس .

كان ينتظرها عند عودتها وقد بدا على وجهه التجهم . و لم تكد تتجاوز باب الشقة حتى صاح بها :

— أين كنت ؟

ونظرت إليه سيدة وأجابته فى تحد :

— كنت فى داهية .

— لا داعى لقلة الأدب . قولى أين كانت غيبتك ؟

— كنت فى روض الفرج عند الست أم حمدى .. هل يهمك حقا أن تعرف ؟

— ألست زوجك .. ورجل البيت ؟

— رجل البيت يصرف على البيت .. والزوج لا يحتال على زوجته ويأخذ مالها .

— اقصرى لسانك يا سيدة .. أنت تعرفين أنى رجل البيت وتعرفين كم صرفت على هذا البيت ..

— بالدين .

— الدين لا يعيب الرجل .

— ماذا يعيب الرجل إذن ؟

— يعيبه شرفه .

— وإذا ترك زوجته وابنه بلا نقود .. من أين ينتظر أن تحصل على ما تحتاج

إليه .. أينتظر أن تبيع شرفها حتى تأكل وتطعم ابنها ؟

— اخرسى .. أنا لم أقصر فى حقك .

— كل هذا و لم تقصر فى حقى ؟

— أزمة .. ويفرجها الله .. كل الرجال يتعرض للأزمات .

— كيف يفرجها إذا كنت لا تعمل ؟

— مين قال لك إنى لا أعمل ؟

— تعمل عند وجدان .

— القمار ليس عيبا .

— ليس هناك عيب شر من القمار .. أنت رجل نذل وجبان .. لأنك استبحت مال غيرك .. مال ولدك .. المفروض أن تكد من أجله لتؤمن حياته ومستقبله .. رحت تبعثر ماله على مائدة القمار من أجل أن ترضى نزواتك ، سرقتنى وحرقت قلبى .. روح الله يحرق قلبك ولا يبارك لك .. فى مالك ولا عافيتك .. إلى يوم القيامة .

وتمتمت أم سيد التى وقفت تنصت إلى المناقشة من بعيد وهى تحدث نفسها فى غيظ :

— يه يمكن أن يصيبه الله شرا من هذا .. إن شر الدعوات لن تصيبه بأسوأ مما أصاب به نفسه .. لم يعد له من مال حتى يبارك الله له فيه . وعافيته بلا جدوى .. لأنه لم يعمل عملا طيبا فى حياته .

وبدت علامات الهم على وجه عباس ورد فى صوت خافت :

— سوء حظ .. لو أنى ربحت لتغير الأمر .. لسددت ديونى .. واشتريت المطبعة .

— أية مطبعة هذه التى تشتريها ؟. إنك لم تحاول مرة واحدة .. أن تعرف كيف يجرى العمل فى المطبعة من يوم أن مات أبوك .. تركت الناس ينهبونك .. و لم يكن لك من هم سوى أن تحصل على الفتات الذى يتركونه لك .. لو أنك

ذهبت إلى المطبعة وجلست فيها .. مجرد جلوس .. لاستطعت أن تدير العمل كما كان أبوك يديره .. ولأصبح لك مورد .. تعولنا به .. ولما تركتنا هكذا لا نعرف من أين نأكل غدا .

وتنهد عباس وأطرق برأسه فى صمت وعادت سيدة تقول فى مرارة :

ـــ لو أنك رجل ، لما احتلت على ولية .. وأخذت مالها .. وأنت تعرف كيف جمعته .. وتعرف ماذا يكلفنى أن أحاول جمع مثله .. يكلفنى شرفك الذى تدعى الحرص عليه .. شرف ابنك الذى يحمل اسمك .. الذى لم تحترمه مرة واحدة .

وصمتت سيدة لتلتقط أنفاسها .

ومضت برهة صمت موجعة .. قطعها عباس بقوله فى لهجة يشوبها اليأس :

ـــ لست أدرى ماذا أقول لك .. ولكنى أؤكد لك أنى سأعمل .. سأذهب إلى المطبعة .. ما زالت بها ورشة التجليد .. وبعض الماكينات الصغيرة .. وسأحاول أن أواصل العمل فيها .. فقط أريد .. مبلغا .. مبلغا .. أسدد به بقية الكمبيالات .. حتى لا يضيع ما تبقى فى المطبعة ..

ونظرت إليه سيدة فى دهشة كأنها تنظر إلى حيوان غريب :

ـــ مبلغا من المال .. من أين ؟

ـــ من عندك .

ـــ لم يعد عندى مليم واحد .

وصمت عباس برهة ثم تساءل :

ـــ والمصاغ ؟

ـــ أى مصاغ ؟

ـــ مصاغك .

وتذكرت سيدة علام .. وأحست بالدم يغلى فى عروقها وقالت له فى تحد :

ـــ ليس عندى مصاغ .

وهز عباس رأسه وقال وهو يزفر فى ضيق :

ـــ انتهينا .. ربنا يفرجها . ولا يحوجنا إلى أحد .

وغادر عباس الدار .. ولم يحاول بعد ذلك أن يدخل وإياها فى مناقشة .. كان يحضر إلى البيت لينام .. وفى الصباح يغادره ولا يعود إلا ليلا ..

ولم تأبه له سيدة .. كانت قد يئست منه .. لقد اعتبرته مجرد شكل لرجل البيت .. ولم تحاول أن تحمله أية مطالب ـــ فقد كانت تعرف أنه أعجز من أن يلبى لها مطلبا ..

كل ما كانت ترجوه .. هو أن تتقى شره ..

وكان عليها أن تدبر أمر معيشتها هى وابنها .. وكان قد تبقى لها مبلغ من المال يمكن أن يكفيها لفترة ما .. ولكنها كانت تعرف أن مصيره إلى النفاد . وحاولت أن تضغط مصروفاتها .. استغنت عن محمد السفرجى .. وأخبرت أم سيد .. أنها لن تستطيع أن تدبر أجرها .. وقالت لها العجوز ودموعها تترقرق فى عينيها :

ـــ يا ستى .. ليس لى مكان سوى بيتك .. ولم يعد لى من عافية .. أستطيع بها أن أواصل العمل فى بيوت أخرى .. سأبقى معك .. وليدبر الله أمرنا سويا ..

وبدأت سيدة عملية بيع أشياء مكدسة فى الدار لا لزوم لها .. تماثيل وزهريات .. وسجاجيد .. للخواجه جورجى صاحب محل المزادات أسفل الدار ..

وكانت تحس بشبح الحاجة .. يهدد أمنها .. ومصيرها ..

كان يقف بعيدا .. ما زال يحول بينه وبينها .. بقايا الرصيد فى البنك .. وبقايا أشياء .. فى الدار .. يمكن أن تباع .. وأخيرا المصاغ المحفوظ عند الست فاطمة .. ومع ذلك .. ورغم كل هذه الأشياء كان شبح الحاجة موجودا .. وفى يوم من الأيام .. سيصل إليها .. أو ستصل إليه .

لو أن فى قدرتها .. أن تعمل عملا .. تدبر به أمرها ..

ولكن أى عمل يمكن أن تقوم به ؟..

لقد كان لها فى حياتها عملان ..

خادمة .. وبغى .

أما البغى .. فقد انتهى أمرها .. منذ أن هبط هذا الإنسان العزيز الذى .. يهون وجوده معها .. كل صعب .. والذى تمسح ابتسامته كل حزن .. وتمحو ضمته بذراعيه الصغيرتين كل متاعب الدنيا ..

ثم إنها لم تعد تصلح ، لهذا الأمر .. طال العهد بينه وبينها .. وذهب الاستقرار والحمل والولادة بطل ما تملك من قدرة عليه . ومواهب فى أدائه . لن تكون لها القدرة ــ بهذا الشكل الذى انتهت إليه ــ على إرضاء الغرباء وإغرائهم .

ولقد باتت تكره كل ما يذكرها به .. تكره أن تكون بماضيها فيه .. سببا لألم هذا الصغير .. أو خدش كبريائه وجرح كرامته ..

أما الخدمة .. فماذا يمكن أن تقوم به ؟.. وأين يمكن أن تؤديه .

بعد كل هذا العز يا سيدة .. والسيادة والأبهة .. تدور بك الأيام إلى الخدمة مرة أخرى ..

ولكن هل تستطيعينها ؟

هل .. يمكن ن تحنى جذعك لمسح البلاط ؟.. وتثنى ركبتيك القرفصاء .. أمام طشت الغسيل .

شاقة هذه الحياة يا سيدة .

ولكنها مع ذلك .. مقبولة .. إن لم يكن لها بديل ..

أى شىء .. من أجل جابر .. مقبول ..

من أجل ..أمنه .. وسلامته .. ومستقبله .. وكرامته .

من أجل أن تجنبيه مشقة الحياة وعذابها .. من أجل أن تنزعى الشوك من طريقه .

إنها تحس بمدى حاجته إليها ..

ليس له فى الدنيا غيرها ..

هذا الأب .. الذى لا يشغله سوى نفسه .. ومشاكله .. ومتعاته ونزواته .. يبدو كأنه أب شكلى .. كما هو زوج شكلى .. ومع ذلك فوجوده خير من عدمه .. فهو يشكل كيانا فى حياة الولد لا غنى عنه ..

إنه أب شرعى .. لا بد منه فى إجراءات كثيرة لحياة الطفل .. يسأل الناس دائما .. عن أبيه .. جابر ابن من .. ولو لم يكن لعباس وجود .. لتعقدت أمور كثيرة أمام الطفل ..

استمارات التقديم إلى المدرسة .. والتطعيم .. وشهادة الميلاد .. وكل طبيب تذهب به إليه ويكتب له روشتة .. يسأل عن اسمه .. جابر .. جابر إيه ؟..

وهو يحمله أحيانا .. ويضمه ويقبله ..

والصبى يناديه بابا ..

سد عباس خانة فى حياة الطفل .. كما سد خانة فى حياتها ..

منح الاثنين .. وجودا شرعيا .. أمام المجتمع .. الشرعى .

أمر عجيب ..

هذا المخلوق الذى لم ينجح فى شىء . نجح فى أن يكون عماد هذه الأسرة .. عمادا وهميا .. يشكله بمجرد وجوده .. دون أن يجهد نفسه فيه .

من أجل هذا سلمت سيدة ببقائه .. ينام عندما يعود .. ويأكل عندما يريد .

من أجل أن يظل أبا لهذا المخلوق العزيز .. الذى يواجه الحياة بلا عائل سواها .

ومضت الأيام وهى تحاول أن تبعد عنها شبح الحاجة بمزيد من الوفر فى المصروفات .. وفر فى الثياب .. وفى كل شىء .. إلا احتياجات الصغير ..

وفى ذات ليلة أقبلت عليه تضمه إلى صدرها ..

عزيز .. عزيز .. هذا المخلوق ..

ليتها تستطيع أن تمنحه حياة سعيدة هانئة .

ليتها تستطيع أن تجنبه ما لاقته من عذاب فى دنياها ..

وأحست . بصفحة وجهه ساخنة على وجهها .

وأخذت تتحسس جبينه ويديه

ثم هتفت به فى قلق :

— جابر .. هل تشعر بشىء ؟

وهز الصغير رأسه وقال لها :

— لا شىء .. فقط أريد أن أنام .

وأصبح الصباح على الصغير .. فلم يقفز من فراشه .. ولم يرتكب خطاياه الصغيرة التى تعود ارتكابها .. لم يشب من سور الشرفة .. ولا نادى الباعة من النافذة .. ولم يهبط من الدرج ليجدوه فى الشارع .. ولا اختفى عند الجيران .

وأقبلت أمه تتحسسه فى قلق .. وقالت لأم سيد :

— ما زال الولد ساخنا يا أم سيد ..

وبدأ صوته مزكوما .. وأخذ يسعل سعالا خفيفا .

وقالت أم سيد :

— برد الولد .. ندفىء جرنالا .. ونضعه على صدره .

ولم يعجبْ قول أم سيد سيدة ؛. وقالت :

— من أين أتى له البرد ؟

— من يدرى .. طول النهار يذهب إلى الجيران .. ويخرج إلى الشرفات .

وهزت سيدة رأسها وردت فى قلق :

— ليس بردا يا أم سيّد .. أفضل أن أحضر له الطبيب .

ونظرت إليها أم سيد قائلة :

— يا ستى .. نحن أولى بالنقود .

وقالت سيدة فى خوف :

— أنا قلقة على الولد يا أم سيد .

— إذن نذهب به إلى الدكتور عبد الرحيم .. جارنا فى العمارة .. إن جودة التومرجى الذى يعمل عنده ابن حلال .. ويمكن أن يخدمنا .

وعرفت أم سيد من جودة التومرجى موعد العيادة . وقبل الظهيرة هبطت سيدة تحمل جابر إلى الدور السفلى حيث عيادة الدكتور عبد الرحيم .. دكتور الأطفال .

واستطاع جودة أن يلف بها من باب جانبى ليجنبها الانتظار وحاول ألا يأخذ نقود التذكرة ولكن سيدة أصرت على الدفع .

وأقبلت سيدة على حجرة الطبيب .. ولم يكن شكله غريبا عليها . سبق أن رأته بضع مرات فى المصعد . بشعره الأشيب ووجهه الأسمر وجسده النحيل . وقدمها جودة قائلا :

— الست نرجس . جارتنا .

وأقبل الرجل يحييها فى مودة قائلا بابتسامة باشة :

— أهلا وسهلا .. لقد سبق أن التقينا مرارا .. تفضلى يا ستى .. خير إن شاء الله .

وردت سيدة تحيته ثم جلست أمامه وجابر على حجرها .. وقالت فى لهجة قلقة :

— منذ أمس والولد سخن .. ويبدو صوته مزكوما .. ويسعل سعالا قصيرا متقطعا .. وهو ضعيف متهالك .. لا يكاد يقوى على صلب جسده .

وأقبل الطبيب يربت الطفل فى مودة وهو يقول :

— بسيطة إن شاء الله ..

وحمله بين يديه ووضعه على فراش الفحص وهو يقول :

— نحن معرفة قديمة .. طالما التقينا على السلم .

واستلقى جابر فى هدوء على الفراش ونظره معلق بعينى أمه وقد أطبق بكفه على كفها .

ولم يطل فحص الطبيب له حتى تساءل فى هدوء :

— هل سبق أن أصيب بالحصبة ؟

وهزت سيدة رأسها بالنفى قائلة :

ـــ لا يا دكتور .

ـــ أعتقد أنه محصب .

وبدا الجزع على وجه سيدة فقال الطبيب وهو يطمئنها بابتسامة رقيقة :

ـــ لا مفر له من الحصبة فليأخذها ويريحنا ..

ثم انهمك فى كتابة بضعة سطور على إحدى الروشتات وهو يسأل مازحا :

ـــ اسم القرد الصغير ؟

وردت سيدة شاردة الذهن :

ـــ جابر .

ـــ جابر إيه ؟

ـــ جابر عباس البرعى .

وسلمها الورقة قائلا :

ـــ لا يخرج من الحجرة .. ولا يأكل سوى الأطعمة التى كتبتها فى الروشتة فى كل وجبة .. ويأخذ الأدوية حسب التعليمات المكتوبة أمامها . مفهوم ؟!.

وحملت سيدة جابر على كتفها وهى تقول :

ـــ مفهوم يا دكتور .. متى أحضره لك ثانية ؟

ـــ لا تحضريه .. سأمر عليكم لرؤيته .

ـــ تعب عليك يا دكتور .

ورد الدكتور ضاحكا :

ـــ تعب على زيارة الجيران .. سأمر لأشرب فنجانا من القهوة .

ـــ تشرف يا دكتور .

وقبل أن تستدير متجهة إلى باب الغرفة . مد كفه إليها مغلقة وهو يقول :

ـــ خذى يا ست نرجس .. فى المرة القادمة لا تفعليها ثانية .

وأمسكت سيدة بنقود التذكرة التى أعادها إليها الدكتور وهتفت فى تأثر :

ـــ لماذا يا دكتور ؟

ـــ يا ستى نحن جيران .. والنبى أوصى على سابع جار .

وتنهدت سيدة قائلة :

ـــ متشكرة يا دكتور .. كتر خيرك .. ربنا يبارك لك فى مالك وفى عافيتك .

وغادرت سيدة عيادة الطبيب صاعدة إلى شقتها .

ومرت أيام المرض .. ثقيلة مزعجة .. وسيدة تحت أقدام الصغير .

ارتفعت حرارته أكثر .. وازداد به الضعف .

وحضر الطبيب أكثر من مرة فطمأنها .

ولقى أباه فى إحدى زياراته .. وبدا له كالغريب فى الدار .. وشكره الأب بعد أن أخبرته الأم عما أسداه الطبيب من خدمات وما قدمه من جمائله .. وكأنه لم يعرف من قبل .

وتماثل جابر إلى الشفاء .

وأحضرت له أمه بعض اللعب .

وزاره أبوه بضع مرات .. وكأنه يزور ابن الجيران .. لم يحمل له هدية واحدة .. وعندما طلب منه ذات مرة مسدسا قال له وهو يوليه ظهره متجها إلى باب الحجرة .

ـــ أمك ستحضره لك ..

ثم نادى أمه وجرها إلى غرفته قائلا :

ـــ أريد نقودا .

ونظرت إليه سيدة فى ذهول وتساءلت :

ـــ تريد نقودا .. منى أنا ؟

ـــ ليس فى جيبى مليم واحد .

ولأول مرة حاولت سيدة أن تفحص شكله ..

بدا طربوشه المائل على حاجبه مزيتا .. وبدت ياقة الجاكتة وقد علتها طبقة سوداء من الوساخة .. ظهرت من خلالها البطانة بعد أن تآكلت ثنيتها .. وتناثرت البقع المزيتة على الجاكتة وانتفخ البنطلون عند الركبتين وبدا مفتوحا وقد سقطت معظم أزراره .

وتنهدت سيدة وحاولت أن تتمالك أعصابها وأجابت فى هدوء :

ــ اذهب يا عباس .. واخلع هذه البدلة .. والبس الجلباب كما كان يفعل أبوك .. أو البس العفريتة التى يرتديها عمال المطبعة .. ابق بينهم .. واعمل .. كما يعملون .. اعمل أى شىء .. تعلم صف الحروف أو زيت الماكينات .. أو ذوب النشا .. أو سيح الغرا .. أو اكنس الأرض أو احرس المطبعة .. افعل أى شىء يا عباس .. إذا كنت تريد نقودا .. كفى تطفلا على مخلوقات الله .. افعل أى شىء بعقلك .. أو بيدك إذا أردت أن تدخل النقود جيبك ..

ونظر عباس إليها فى ملل وضيق وقال متبرما :

ــ شبعنا نصائح يا سيدة .. أريد نقودا .

وضغطت سيدة على ضروسها محاولة أن تكتم غضبها وأمسكت به من ذراعه تهزه فى عنف :

ــ اصطبح يا عباس وقول يا صبح .. اصطبح لأفرج عليك العمارة .. أنا ساايباك لأنى رميت طوبتك .. فسيبنى فى حالى .

ورد عباس عليها فى تحد :

ــ ساايبانى فى حالى .. يعنى حاتعملى إيه ؟..

ــ يا عباس اقصر الشر .. وخلى الطابق مستور .. ابنك مريض .. ولا تعرف كيف دفعت أجر الطبيب .. ولا من أين اشتريت الدواء .. تجد بيتا مفتوحا لك على البهلى .. تنام وتأكل .. ولا على بالك.. لا تعرف .. من أين اشترينا الأكل .. ولا كيف دفعنا أجرة البيت .

وهز عباس رأسه فى سخرية :

ــ من النقود التى تخبئينها تحت البلاطة .

وعادت سيدة ترمقه فى حقد مكبوت وقالت له وبنفس لهجته الساخرة :

ــ هكذا يا عباس ؟ .. عندى نقودى مخبآها تحت البلاطة .. ثم تساءلت فى كراهية :

ــ وإلى متى ستظل النقود تحت البلاطة ؟.. لو أنى أصرف من تل .. لاختل .. أم تظننى أجلس على كنز ؟..

وهز عباس رأسه كأنه ينذرها :

ــ مختصر القول .. لن تعطينى نقودا ؟

وعادت سيدة فهزته من ذراعه فى حنق قائلة :

ــ اخفيها سيرة يا عباس . ولا تذكر سيرة النقود على لسانك .. يكفى أننى تاركة إياك فى حالك .. تاكل فى قتة محلولة .. دعنى فى حالى أحسن لك .. ويكفى الهم الذى أنا فيه .. فلم يعد ينقصنى همك ..

ورد عليها عباس فى مرارة قائلا :

ــ هكذا .. أنا أصبحت هما يا سيدة ؟.. معلش .. أنا وانت والزمان طويل .. لك يوم .

وانصرف عباس .

وأوت سيدة إلى حيث يرقد الصغير و لم تجد سوى الدموع تفرج بها عن كربها .

رضيت يا سيدة بالهم .. و لم يرض الهم بك .

لم تكفك مشقة .. تدبير حياتك أنت والصغير . حتى أصبح عليك أن تدبرى النقود لعباس ليقامر .. ويلهو ..

هل تذهبين إلى المطبعة لتديريها ؟..

ولكن كيف ؟..

ومن يأبه لك هناك ؟

هل تذهبين إلى أنور ؟

ماذا تقولين له .. تطلبين منه نقودا ..

وهبه منحك بعضها .. فماذا تفعلين بعد ذلك ؟..

هل يمكن أن يجرى لك راتبا شهريا ؟.

نظير أى شيء ..

نفقة ؟!!.. أو معاش ؟ أو حسنة ؟

سيكرمك مرة .. وقد يكرمك مرة أخرى .. ولكنه سيضيق بك بعد ذلك .. وسيتهرب منك .. وينكر وجوده .. وقد يطردك .

هل يستطيع أن يدبر لك عملا ؟

ولكن لماذا هو .. بالذات ؟

أية رابطة يمكن أن تربطه بك .. سوى أنك كنت عشيقته .. وهو بغير جدال .. لا يحب أن يحيى ذكرياته معك .

ولا أنت أيضا تحبين أن تحييها .. من أجل هذا الصغير .. الطيب .. الحنون .. الذى يتمسح فيك .. ويتلهف عليك .. ويحتاج إليك .. والذى لم يعد هناك ما يضيء إلى الحياة سواه .

تذهبين إلى حمدى ؟

ماذا تطلبين منه ؟..

ماذا يمكن أن يؤديه لك ؟..

يجد لك عملا ..

ربما استطاع أن يساعدك ..

وبغير جدال . ستذهبين إليه وإلى أمه .. عندما تضيق أمامك السبل .. ويتعذر العيش .

ولكنها لم تضق بعد ..

مازال هناك بقايا من نقود .. وبقايا من أثاث .. وما زال هناك المصاغ .

ولكن المصروفات قد ازدادت .. والغلاء تضاعف .. مع ورود سنى الحرب التى لا تريد أن تنتهى .

وعليها أن تلم نفسها .. وتضغط مصروفاتها أكثر وأكثر ..

لم يعد هناك لزوم لهذه الشقة الطويلة العريضة .. ولا لكل ما بها من أثاث .. تستطيع أن توفر بضعة جنيهات من أجر الشقة .. وتستطيع أن تبيع معظم هذا الأثاث فلا يبقى غير ما تحتاج إليه لنومها هى والصغير وأم سيد .. أما عباس فعليه أن يجد لنفسه مكانا يأوى إليه .

وأقبلت عليها أم سيد تهدئها .. وتطيب خاطرها قائلة :

ــ يا ستى .. كله يهون .. ما دام جابر قد شفى وقام بالسلامة .

وتنهدت سيدة قائلة :

ــ أخشى المستقبل يا أم سيد .. لا بد من أن نلم أنفسنا أكثر .

ــ أنت على حق يا حبيبتى .. وأنا معك فى كل ما تقررين .

وفكرت سيدة برهة ثم قالت :

ــ هذه الشقة باتت كبيرة علينا .

ــ حقيقة .. وقد باتت نظافتها تحتاج إلى جهد .

ــ يجب أن نبحث عن مكان يلمنا بأجر نقدر عليه .

وتنهدت أم سيد وشرد ذهنها ثم هتفت فجأة :

ــ اسمعى يا ستى .. عندى فكرة .

ــ ما هى يام سيد ؟

ــ توجد شقتان صغيرتان فوق السطح .. فضيت إحداهما .. التى كان يشغلها أحد الطليان الذين اعتقلوا خلال الحرب وقد ظلت مغلقة .. حتى أخلاها صاحبها بعد أن خرج من المعتقل . وقال لى عم إبراهيم البواب إنها معروضة للإيجار وهى لا تزيد على حجرتين .

ــ وكم إيجارها ؟

ـــ أسأل عم إبراهيم .. وإن كنت أعتقد أنها رخيصة .

ولم تحل نهاية الشهر حتى كانت سيدة قد أخلت شقتها .. بعد أن تخلصت من معظم ما تملك من أثاث .. فلم يبق إلا ما تحتاج إليه مما يمكن أن تحتمله الحجرتان الصغيرتان اللتان أخذتهما فوق سطح العمارة .. واستقرت فيهما هى وجابر وأم سيد .

(٤٠)

قضية خاسرة ..

أقبل عباس ليجد سيدة انتقلت إلى السطح .

وعندما حاول أن يناقشها قالت له ببساطة :

ـــ إذا كنت تريد الاحتفاظ بالشقة .. فحل كيسك وادفع إيجارها .. الشقة أمامك خالية .

وبرطم عباس .. ثم غادر الشقة .

وغاب يومين ثم عاد .

عاد ليطلب نقودا .

وفى هذه المرة كان ثملا .. لا تكاد قدماه تقويان على حمله .

وعندما ردت عليه سيدة تنهره ..

رفع يده وهوى على صدغها بكل ما يملك من قوة صائحا فى غل :

ـــ هاتى النقود أحسن لك .. أنا أعرف أن معك نقودا .. أعرف أين تخفين المصاغ .

وصرخت سيدة وردت عليه اللطمة بأقسى منها ..

وتعالى بكاء جابر وصراخ أم سيد .

وصعد الجيران .. وحاولوا أن يفضوا المعركة .

وأقسمت سيدة أن تطرد عباس .. صارخة فيه :

ـــ لم يعد لك وجود فى هذا البيت .. اخرج بره ..

وصاح عباس بنبراته المتقطعة من السكر :

ـــ هذا بيتى .. وأنا حر فيه .

— ليس لك فى هذا البيت قشة واحدة .

— أنت امرأتى .. وهذا بيتى .. لا يستطيع أحد أن يطردنى منه .

— لست امرأتك .. طلقنى .. لا أريد أن أبقى معك ثانية واحدة .

وحاول الجيران أن يجروا عباس بعيدا .. ولكنه عاود التهجم عليها ورفع مقعداً فحطم به زجاج النافذة .

وصرخت سيدة وهى تمسك بعنقه :

— لن أتركه إلا فى البوليس ..

ورد عليها عباس :

— أنا أستاهل .. الحق على .. لمتك من الدوارة .. وجعلتك ست بيت .

— أنا التى آويتك من التسكع والتشرد .. يا نصاب يا ضلالى .

وصاح أحد الجيران :

— لا داعى يا جماعة .. عيب .. الظفر لا يخرج من اللحم .

وصاح آخر :

— من أجل هذا الولد .. على الأقل ..

وصاحت سيدة :

— متى كان يحس به أو يعرفه ؟.. من الآن لن يقرب هذا البيت ..

ونجح الجيران فى إخراج عباس من الشقة .. وهبط الدرج معهم وهو يصيح وقدماه لا تقويان على حمله .

— سأعرف كيف أربيك يا سيدة .. تطردينى .. يا رد المواخير يا لمامة اللمامة .

وهتف به عم إبراهيم البواب :

— عيب يا سى عباس .. عيب .. إنها حرمك .. وأم ابنك .

— لا بد أن أربيها .. سأمشيها على العجين ما تلخبطوش .

وهدأ المكان حول سيدة بعد أن انفضت المعركة وأخذت أم سيد تلم زجاج

النافذة المكسور .

وجلست سيدة تضم جابر إليها وقد بدا عليه الخوف .

وتساءل جابر :

— لماذا يصرخ أبى هكذا .. ولماذا يضربك ؟

وصمتت سيدة و لم تعرف بماذا تجيبه .. إن الأمر يحتاج إلى شرح طويل . و لم تملك سوى أن تتنهد قائلة :

— دعنا منه يا جابر .. ربنا يغنينا عنه .

ومد جابر ذراعيه الصغيرتين يضمها إليه وقال ببساطة :

— أنا أحبك .

— وأنا أيضا أحبك .

— واستقر الصغير بين ذراعيها .. وكأنها تقيه شرا مجهولا يوشك أن يحيق به .

وكان الوقت فى آخر الصيف ونسمات الخريف تهب من النافذة المطلة على فسحة صغيرة على السطح تفصل بين الشقتين وتمتد بعدها بقية السطح تبدو من ورائه قمم الدور وأطراف المآذن ومن ورائها يبدو جبل المقطم وكأنه جدار عال يحيط بالقاهرة .

ومن الناحية الأخرى بدا سور الشرفة مطلا على الجانب الآخر من القاهرة .. النيل .. ومن ورائه المزارع الخضراء .

وأخذت الشمس تميل نحو المغيب ..

وأحست سيدة بطارق يتسلل إلى الشقة المقابلة . ودفع المفتاح فى الباب .. وأداره دورتين ثم فتح الباب وتسلل إلى الداخل .

وبعد برهة أبصرت شبح امرأة يتسلل نحو الباب ويدق الجرس ثم يدلف إلى الداخل فى هدوء .

وكانت سيدة تشعر أن الشقة المقابلة بلا سكان .. سوى هؤلاء الذين

يتسللون إليها متتابعين خفية .. فى ساعات مختلفة من الليل أو النهار . ويغلق الباب عليهم . وتبدو الشقة من فرط تكتمها على من فيها وكأنها خاوية .

وتذكرت أياما لها فى أمثال هذه الشقق .

تقبل خلسة وتدخل خلسة .. وتقوم بمهمتها ثم تقبض الثمن وتخرج .

كانت وقتذاك صاحبة مهنة .. مهما كانت ذليلة .. فقد كانت تبحث بها عن السيادة والحرية .. كانت تريد أن تمتلك ذاتها المبيعة .. وتستعيد كرامتها المهيضة .. بعد أن تتحرر من المهنة وتصبح ذات مال .. يمنحها الحرية .. ويهبى لها السيادة .

كلام فارغ يا سيدة ..

لا سيادة .. ولا حرية .. فى هذه الحياة .

بعد أن تحررت من مذلة الجسد .. بت عبدة المشاعر ..

أنت الآن عبدة مشاعرك لهذا الصغير .. المنكمش فى أحضانك .. أنت على استعداد لأن تبيعى حريتك .. وتتخلى عن سيادتك من أجله .

بل حتى كرامتك وشرفك .. لو كان فى بيعهما إرضاء له لفعلت .. ولكن للأسف .. باتت كرامتك من كرامته .. شرفك من شرفه .. وتحتم عليك أن تجمديهما من أجله .. وأن توقفى التعامل بهما من أجل هذا الصغير .. الذى قد لا يدرى الآن عنهما شيئا .

وشتان يا سيدة بين جلستك فى مثل تلك الشقة الصامتة .. وبين جلستك الآن ..

فرق كبير فى كل شيء .. إلا فى شيء واحد ..

هو أنه .. كما قالت لك توحيدة فى أول لقاء لكما .. كله هم .

ومع ذلك فيبدو أن هم الأمس دائما أقل من هم اليوم .. فكل يوم يحمل معه هما جديدا .. وما يغرينا بحمل الهم عنا .. هو فى ذاته هم جديد .. ونحن وحدنا نجزع من الوحدة .. ومع الناس نضيق بالضجيج والزحام ..

كنت بالأمس تحملين همك وحدك .. ومهما ثقل عليك كنت قادرة على حمله .. ولكنك اليوم تحملين هم هذا الصغير العزيز .. وتشعرين أنك تنوئين به .. كنت مع نفسك أشجع فى مواجهة القدر .. ولكنك مع هذا الصغير تحسين بالجبن .. كان لك بالأمس مقتل .. فأصبح لك اليوم مقتلان .. ومقتلك فى هذا الصبى مفرط الحساسية .. تخشين من عجزك عن حمايته وأنت حية .. وتفزعين إن مت ألا يجد من يحميه .

وأقبل الليل .. وهدأت حركة الطريق .. وتضاءلت الأصوات المنبعثة من أسفل وأخذت أم سيد الصغير تطعمه .. وتوسده الفراش .

وقالت سيدة لها محذرة :

ـــ أغلقى باب السكة جيدا يا أم سيد .. فلست أستبعد أن يعود عباس ليقتحم علينا الشقة مرة أخرى ..

ثم تمتمت بصوت خافت :

ـــ وعلينا أن نحرص على جابر .. فلست أستبعد منه شيئا ..

وبعد فترة أقبلت أم سيد تحمل إليها صينية عليها قطعة جبن وطبق به زيتون وقالت لسيدة :

ـــ كلى لقمة ..

ـــ ليس لى نفس يا أم سيد .

ـــ لن تنامى دون عشاء .. كلى قدر نفسك .

وجلست أم سيد تتناول العشاء مع سيدة .. وازدردت سيدة لقمة وأخذت تلوكها ثم زفرت قائلة :

ـــ لم يعد لنا عيش معه ..

ـــ يمكن ربنا يهديه .. قادر وكريم .. وهو بعد كل هذا أبو جابر .

ـــ لا فائدة يا أم سيد .. أنا أعرفه منذ سنين طويلة .. كنت حمقاء عندما خدعت فيه .

وتنهدت سيدة ثم أردفت قائلة :

ــ غلطة .. كلفتنى شقا العمر وجهده ..

ــ لا تندمى .. يا ابنتى على شيء .. كل الذى يعطيه لنا الله مقبول ومحمود لا تنسى أنك أنجبت منه جابر .. ألا يساوى جابر فى نظرك شيئا ؟

ــ يساوى كل شيء ..

ــ إذن احتمليه من أجله .

ــ لا يا أم سيد .. من أجله يجب أن أتركه .. إنه لم يترك لنا شيئا .. وسيظل يستنزف منا كل ما يمكننا الحصول عليه .. والأيام المقبلة قاسية .. وتربية جابر لا تكون بالساهل ..

ــ يا ستى لنبتعد عنه ونتركه فى حاله ..

ــ ولكنه لا يريد أن يتركنا فى حالنا .. سيأتى كل يوم .. ليطلب نقودا وأنا لا أجلس على كنز .. إن علىّ أن أدبر عملا أعمله ..

ــ تعملين ماذا ؟

ــ أى شيء .. حتى خادمة .. لا بد من العمل يا أم سيد .. وأنا قادرة عليه .. طول عمرى أعمل خادمة .. وأستطيع أن أشتغل فى أى شيء .. فى محل تجارى .. داده .. أى شيء .. والسنة القادمة سيذهب جابر إلى المدرسة وسيخف عبؤه علينا .. طوال اليوم ..

وصمتت سيدة برهة ثم واصلت الحديث قائلة :

ــ كل شيء يمكن تدبيره .. ولكن المهم هو كيف نخلص من هذه المصيبة التى تهددنا كل يوم .. كيف نتقى شر عباس ؟

وقالت أم سيد فى بساطة :

ــ افترقا .. ربنا قال .. أو سرحوهن بمعروف .

ــ عباس لا يعرف ربنا .. لقد طلبت منه الطلاق اليوم فأبىَ ..

ــ وما العمل ؟

ــ سأذهب إلى محام .. وأرفع قضية طلاق ..

ــ هدديه أولا .. فقد يجدى معه التهديد .

وفى اليوم التالى أقبل عباس .. و لم يكن ثملا هذه المرة .. أقبل فى الظهيرة وطرق الباب .

وفتحت أم سيد الشراعة وعندما أبصرته بدا عليها الجزع وهتفت لسيدة قائلة :

ــ سيدى عباس .

ووثبت سيدة من مقعدها منحفزة وأقبلت على الباب متسائلة من وراء الشراعة :

ــ ماذا تريد ؟

وتساءل عباس فى دهشة :

ــ ماذا تريد ؟

ثم هز رأسه وتمتم :

ــ كأن على أن أريد شيئا لكى أدخل إلى البيت .

ــ هذا لم يعد بيتك .

وبهدوء رد عباس :

ــ لم يعد بيتى ؟!! منذ متى ؟..

ــ منذ اليوم .

ــ وأنت ؟

ــ لم أعد زوجتك .

ــ وجابر ؟

ــ لم يعد ابنك .

ــ ولكنكما زوجتى وابنى بحكم الشرع .. ولى عليك أمر الطاعة بحكم القانون .

— سأطلب الطلاق .
— لن أطلقك .
— سأرفع قضية نفقة .
— وسأطلبك بيت الطاعة .
— بل سيحكمون لى بالطلاق لأنك عاجز عن الصرف على وعلى ابنك .
وأخذ صوتها يحتد وهى تصيح به :
— ولأنك نصاب سرقت مالى .
و لم يثر عباس بل رد عليها فى هدوء :
— اعقلى يا سيدة .. ولا تتركينى هكذا أمام الباب .. عاملينى على الأقل كضيف .. سأشرب فنجان قهوة وأنصرف .. أليس لى هذا الحق بحكم العشرة القديمة ؟
وتنهدت سيدة ثم قالت لأم سيد :
— افتحى يا أم سيد .. لنرى آخرة كل هذا .
ودخل عباس يحمل فى يده لفافة وتساءل قائلا :
— أين جابر ؟
وقالت أم سيد :
— ذهب عند الجارة التى تقطن تحتنا .
— ناديه حتى أعطيه هذه الحلوى .
وردت سيدة ببرود :
— وفرها على نفسك .. الذى يفرقه العويل يسفه .
وتجاهل عباس ردها وعاد ليقول لأم سيد :
— ناديه يا أم سيد .. لقد أوحشنى .
— منذ متى ؟
— إنه ابنى .

— الحمد لله أنك اكتشفت أخيرا أن لك ابنا .
وهبطت أم سيدى تنادى جابر .
وجلس عباس على أحد المقاعد وقال لسيدة :
— اجلسى يا سيدة ودعينا نتفاهم .
— على ماذا ؟
— أيعجبك ما حدث بالأمس ؟
— كنت السبب فى كل ما حدث .
— لماذا ؟
— لعلك نسيت .
— كنت أحتاج إلى نقود .. أهذه جريمة ؟
— أنت تعرف أنه لم يعد معى نقود .
— كيف تعيشين إذن ؟
— كان يجب أن تخجل من سؤالك .. لأنه كان يجب أن توفر لنا النقود التى نحتاج إليها .
— أنا فى أزمة .
— منذ متى لم تكن فى أزمة ؟
— هل تنكرين أننا عندما تزوجنا وفيت بكل حاجاتك ؟
— ثم لهفت بعد ذلك كل ما كان معى .
— احتجت إلى بعض مالك .. وأنت زوجتى .. ماذا فى ذلك ؟
— اسمع يا عباس .. لقد عدنا وزدنا فى هذا الحديث ولا داعى للف والدوران . قصر الحديث ماذا تريد ؟
— أهو عيب أن أحتاج إلى مبلغ منك .. لسد مطلب ضرورى ؟..
— مللت من هذا الطلب .. ولن أعطيك مليما واحدا .
— وممن أطلب إذا لم يكن من أقرب الناس إلى ؟

— اعمل .
— أعطيني .. وسأعدك بأن أعمل ..
— اذهب واعمل .. وستحصل على ما تريد .
— أعطيني إياه كقرض .
وردت سيدة فى حزم وإصرار :
— لن أعطيك مليما واحدا .. وقلت لك بالأمس إنه من الخير أن نفترق .
— كيف ؟
— طلقنى .
— وإذا لم أطلقك ؟
— خير لك أن تطلقنى .. لأنك لا تستطيع أن تكون مسؤولا عن أسرة ..
وأقبلت أم سيد وفى يدها جابر .. واتجه الصغير إلى أمه وقد بدا عليه الخوف من أبيه .
ومد عباس يده يجذبه إليه ولكنه شد ذراعه منه وصاح باكيا :
— ماما ..
ونظر عباس إلى سيدة قائلا :
— علمته كيف يخشانى .
— لم أعلمه شيئا .. أنت الذى علمته كيف يكرهك .
ومد عباس يده باللفافة إلى جابر قائلا :
— خذ يا جابر .. هذه شيكولاتة من التى تحبها .
وعزف جابر عنها ورفض أن يمد يده لأخذها .
وطرق عباس المنضدة بأصابعه ثم نهض قائلا :
— فكرى يا سيدة .. واعقلى .. لا داعى لإثارة الخصومة بيننا ..
وردت سيدة قائلة بقدر ما تملك من هدوء واتزان :
— حياتنا أصبحت مستحيلة يا عباس .. أنت تريد نقودا .. وأنا لا

أملكها .. فاتركنا فى حالنا ودعنى أربى الولد .. واتق الله فينا ..
ولكن عباس لم يتركهم فى حالهم .. ولم يتق الله فيهم .
انصرف عنهم يومها .. وأمضى بضعة أيام .. كيفما كان .. ثم عادت حاجته إلى النقود تلح عليه ثانية .. ولم يجد أمامه إلا باب سيدة يطرقه .
وهذه المرة كان ثملا ..
لم تفتح أم سيد ..
صاح بها :
— افتحى يامرة .
وصرخت فيه سيدة :
— اذهب .. وانصرف .
وصاح عباس :
— افتحى وإلا دشدشته على رأسك .
وضرب زجاج الباب بكلتا يديه فتحطم الزجاج وأدمى يديه ..
وصرخت سيدة ودفع الباب بكتفه وساقه فانفتح أمامه .. وهجم على سيدة يضربها بقسوة .. وهجمت عليه فأنشبت أظافرها فى وجهه .
وتعالى الصراخ وتكأكأ الناس على الزوج ..
وذهبوا إلى قسم البوليس .. وشهد الشهود بإصرار عباس على التهجم عليها ومحاولة ابتزاز النقود منها ..
وحررت له مذكرة بذلك ونبه عليه الضابط بعدم معاودة التهجم على سيدة مرة أخرى .
وصرخ عباس :
— هذا بيتى يا ناس .. هذه الولية زوجتى بحكم الشرع .. والولد ابنى بحكم القانون .
وخرج عباس من القسم بعد أن ربطوا له يده وضمدوا جراحه ونصحوه بأن

يكف عن السكر وأن يعقل .. وألا يعود إلى مثل هذه الفضائح .

وفى اليوم التالى ذهبت سيدة إلى محام شرعى .. دلتها عليه إحدى الجارات ..
ورفعت قضية طلاق ..

وبدأت مرحلة القضايا ..

وتعددت الجلسات .. والقضية تؤجل مرة بعد مرة ..

و لم يكف عباس خلال هذه الفترة عن التهجم على البيت .. واستمر فى مطالب
سيدة بالنقود .. والتهديد بخطف جابر .

وأخيرا حكم القضاء برفض الطلاق .. وخسرت سيدة القضية .

لم يصعب على عباس إثبات ماضى سيدة .. وكيف انتشلها من حياة الفجو
وهيأ لها المأوى ومنحها حياة شريفة .. وأنجب منها ابنا وكيف طلبت الطلاق
عندما ضاق به الحال .

والتقى عباس بسيدة بعد النطق بالحكم فقال ساخرا :

— سآتى الليلة يا سيدة .. أعدى لى الحمام .. وجهزى العشاء .. لن أتأخ
عليك ..

وأحست سيدة بالدنيا تظلم فى وجهها ..

كرهت الحياة وضاقت بها .. غير معقول أن تستمر أيامها على هذا المنوال .
إن ما تملكه قد استنفد فعلا .. وبات عليها أن تبيع قطع المصاغ واحدة بعد
أخرى .. وهى تستطيع أن تعمل لتعول نفسها وابنها .. أما أن تعمل لتصرف على
عباس .. وعلى مباذله ونزواته .. فهذا يحتاج إلى أطيان أو عمارة .. أو .. يحتاج
إلى أن تعود لتعمل .. بجسدها .

وتملكها اليأس ..

لماذا لا يسهل لك القدر حياتك الشريفة ؟..

أحتم عليك أن تعودى مرة أخرى .. إلى المهنة المذلة .. أحتم عليك أن تعرضى
جسدك للبيع .. بعد أن أصبح مستهلكا .. وذهب عنه إغراؤه وفتنته ؟

حرام .. والله حرام ..

ماذا تفعل ؟.. تنتظر هذا النذل حتى يأتى إليها لكى تعد له الحمام والعشاء ..
وتمنحه جسدها .. ثم تمنحه بعد ذلك .. رزق ابنها ؟..

أهذا معقول ؟..

لن تفعل .. لا بحكم القضاء .. ولا بحكم الشرع .

هذا القانون الذى يلزمها بذلك .. قانون أحمق ..

هذا القانون مستبد .. يحرم الإنسان من أبسط مظاهر الحرية .. حرية
الشركة فى الحياة ..

ليكن عباس .. من كان فى نظر القاضى الكيس العاقل المحترم
ولتكن هى من كانت .

ولكنها لا تستطيع أن تعاشره .. إنها ترفض شركته ..

ألا تملك حرية الانفصال عنه ؟.

وهو .. بمجرد كلمة ينطق بها .. يملك الخلاص منها .. يملك القذف بها فى
الطريق .. مهما كانت حاجتها إليه .

هذا هو قانون الرجل يا سيدة .. هو واضعه وهو المستفيد به ومع ذلك فأيا
كان الحكم .. وأيا كانت القوة المنفذة له ..

فهى لن تخضع له ..

إنها أدرى من القاضى بحالتها ..

استمع القاضى إلى الشهادات .. وقرأ المذكرات .. وأصدر حكمه
ولكنه .. لم يأت ليعيش معها .. ليرى .. أى مخلوق .. قد حكم لها بأن
تعاشره .. بأن تعد له العشاء .. وتسخن الحمام .. وترقد بجواره .

وأقبلت سيدة على البيت .. متجهمة شاردة .

وسألتها أم سيد :

— خير يا ست ؟

— لم يعد هناك فى الدنيا خير يا أم سيد .. خسرت القضية .. ورفض القاضى الطلاق .

— وماذا ستفعلين ؟

— سآخذ جابر .. وأترك الشقة وأختفى .

— أين ؟

— فى أى داهية .

— هدى نفسك يا ستى .. وفكرى جيدا .

— ليس هناك وقت للتفكير .. سأترك الشقة فورا وآخذ جابر معى ..

— تتركينه وتهيمين على وجهك فى الطرقات ؟

— سأذهب إلى الست فاطمة .

— هل ستقبلك الست فاطمة ؟

— سأبقى عندها حتى تطردنى .

— وماذا أفعل أنا ؟

— ابقى فى الشقة .

— أهذا معقول ؟.. أبقى حتى يتهجم على .. أو يأتى ويستقر معى فى الشقة .. سأغلقها وأذهب إلى ابنتى فى ميت عقبة .. أبقى عندها حتى يفرجها ربنا .

ولم تمض ساعة حتى كانت سيدة قد حزمت ملابسها وملابس جابر فى حقيبة وأغلقت الشقة بالمفتاح والقفل وغادرت المنزل هى وأم سيد قائلة للبواب :

— إذا سأل على أحد يا عم إبراهيم فقل له إنى سافرت .

ومدت له يدها بورقة نقدية قائلة :

— خذ هذه يا عم إبراهيم .. وخذ بالك من الشقة جيدا .. احذر أن يأتى سى عباس فى غيابى ويكسرها .. قل له إنى تركت الشقة وأن سكانا آخرين قد سكنوها ..

وودعت سيدة أم سيد وأخذت عنوانها عند ابنتها وأعطتها عنوان روض الفرج .. ثم نادت إحدى عربات الأجرة ووضعت الحقيبة بجوار السائق وحملت جابر واستقرت فى داخلها وقالت للسائق :

— روض الفرج يا اسطى .

وقبيل المغرب أبصرت كوثر وهى تطل من الشرفة فى بيت حمدى فى روض الفرج عربة تقف بالباب ثم تنزل منها سيدة ومعها طفل . وبيدها حقيبة .

وتساءلت كوثر فى مزيج من الفرحة والدهشة :

— سيدة .. ماذا أحضرك ؟

ودخلت سيدة الشقة تحمل حقيبتها فى يدها وتجر جابر فى اليد الأخرى وأقبلت عليها الست فاطمة تسألها فى دهشة :

— سيدة .. خير يا سيدة .. ماذا بك ؟

وقبل أن تنطق سيدة بالإجابة انهمر الدمع من عينيها واندفعت فى نوبة من البكاء .

وأجلستها الست فاطمة وأخذت كوثر تربت ظهرها وهى تحاول تهدئتها .

وقالت الست فاطمة بعد أن تركتها تفرغ ما فى مقلتيها من دموع وما فى قلبها من انفعال :

— اهدئى يا سيدة .. اهدئى ..

ونادت الخادمة الصغيرة قائلة :

— كوب ماء يا بت .

ثم قالت لسيدة :

— اشربى يا سيدة وهدى نفسك .. واحكى لى ماذا حدث ..

وأخذت سيدة شهقة طويلة ثم أخلفتها زفرة حارة وأجابت فى صوت متقطع :

— لم أكن أود أن آتى لأضايقكم .. أنا أعرف أنه لا تنقصكم همومى ..

ولكن ليس لى أحد سواكم .. ضاقت بى الدنيا كلها .. فلم أجد غيركم .. فتحملونى يا ست فاطمة .

وسألتها فاطمة فى دهشة :

ــ لماذا تقولين هذا يا سيدة .. هذا بيتك .. ونحن أهلك .. إذا لم نتحملك نحن .. فمن يتحملك ؟.

ونظرت سيدة إلى ابنها وعادت الدموع تنهمر من عينيها .

ــ ولم يكف أن أضايقكم بنفسى .. فأتيت بابنى .. ولكن ليس له غيرى يا ست فاطمة .

وأحست فاطمة بالدمع يطفر إلى عينيها وقالت :

ــ عيب يا سيدة تقولين هذا .. ابنك ابننا يا سيدة .. اهدئ .. وقومى .. اغسلى وجهك .. واستريحى .

وأمسكت كوثر بجابر تضمه إليها قائلة :

ــ اسمك إيه يا حبيبى ؟

ــ اسمى جابر .. جابر عباس البرعى .

وقامت سيدة إلى الحمام فغسلت وجهها .. ثم عادت لتستقر على الأرض أمام الست فاطمة .. وحاولت كوثر أن ترفعها إلى الكرسى ولكنها أصرت على أن تبقى على الحشية قائلة :

ــ اتركينى على راحتى يا ست كوثر .

وقصت سيدة على الست فاطمة قصة زواجها بعباس وقصت باختصار ما سبقها من أحداث فى حياتها وفى النهاية اختتمت حديثها قائلة :

ــ كل ما أريده هو أن أبقى فى حالى .. وأعمل لأربى ابنى ..

وتمتمت الست فاطمة وهى تتنهد فى أسى :

ــ ابقى يا سيدة عندنا كما شئت .. وربنا يوفقك ويسترك .. ويفتحها فى وجهك .. اعتبرى بيتنا بيتك ..

.. لقد كنت دائما واحدة منا ..

(٤١)

بالبوليس ..

مرت بضعة أيام بسيدة فى بيت حمدى .. وهى تحاول جهدها أن تقوم بعمل نافع وألا تثقل على أحد .. ومع ذلك كانت دائمة الإحساس بالقلق .. فهى تعلم آن وجودها لا يمكن أن يكون إلا وضعا مؤقتا حتى تستقر على حال.. وأن عليها أن تدبر أمرها بطريقة تضمن لها حياة منتظمة مستقرة تهيئ لها تربية ابنها ورعايته .

وكانت تتجنب نظرات حمدى .. وتحس دائما أنها تود الفرار من وجهه .

فهى لا تنسى آخر لقاء لها به .. متى وأين وكيف ..

وكان حمدى يلقاها ويحدثها وكأنه لم يلقها من قبل فى بيت دعارة .. نشوى تترنح ..

عجيب هذا المخلوق .. لا يدرى الإنسان ما فى باطنه العميق .

هل نسى ؟..

غير معقول !!..

ومع ذلك يبدو وكأنها لم تترك دارهم منذ أن كانت شغالة لديهم يعاملها ببساطة .. ورفق .. ويربت ابنها برقة .. ويمنحه من آن لآخر قرشا يبتاع به حلوى ..

وكانت الأم ترفق بها وتحذر أن يسيء إليها أحد .. وتعاملها بحساسية الدموع التى ذرفتها عندما عبرت باب الشقة واعتذرت عن مجيئها إليهم .

ومع ذلك كانت سيدة تخشاها .. وتحس أنها تعرف عنها أكثر مما تبدى .. وأنها تترفق بها .. لأن هذا هو خلقها ولأنها تشعر أن إيواءها واجب عليها .

الوحيدة التى كانت تأنس إليها بغير قلق .. هى كوثر .

كانت قد استقرت فى بيت خالها خلال الصيف لسفر أمها إلى قنا عند أختها الكبرى .

وكانت كوثر تقبل عليها بصداقة خالصة .. وتستمع لها وتشكو إليها .

اشتكت إليها من أن الست فاطمة أصبحت عصبية بعد أن أصيبت بالسكر .. وأنها دائمة البكاء .

واشتكت إليها من أن حمدى يعمل كثيرا وأن حياته كلها ليس بها غير المجلة والمطبعة والسياسة والأحزاب والوفد والسراى والإنجليز .

وأحست سيدة أن شعورا ما يختبئ وراء شكوى كوثر من حمدى .. شعورا يجد له صدى فى نفسها .

شعورا يشابه ذلك الشعور الضامر المنطوى .. الذى تراكمت عليه أتربة الهموم والمتاعب ومشاكل الحياة ..

أحست سيدة أن ثمة خيطا من الشعور يشد قلب كليهما .. إلى مخلوق واحد ..

وبدأت أحاديث المساء المشتركة بين الاثنتين .. فى جلسات الشرفة التى كان يستذكر بها حمدى ورفاقه دروسهم .. وأهل البيت نيام .. والشارع قد هدأ زحامه وسكن ضجيجه .. إلا من تلاميذ الحى يسيرون كما كان يسير حمدى وأصحابه .. ووسطهم صاحب صوت جميل يطربهم .. أو يتبادلون النكات أو المناقشات السياسية .. وصوت بائع الجوزية .. يبدو وكأن الزمان لا يروح عليه ولا يجيء .. يعلو منشدا « لذيذة يا عال الجوزية يا عال الملبن ».

وكوثر ترنو من بين آونة وأخرى إلى آخر الشارع تتبع بعينيها خطى إنسان مقبل وتقول فى ضيق :

— ليس .. دائما يتأخر .

وتقول سيدة مهدئة :

— لا بد أن العمل أخره .

وفى ضيق تتمتم كوثر :

— دائما العمل .. ليس لديه اهتمام بغيره .

— وماذا لديه سواه يا كوثر ؟

— لديه أهله .. لديه أمه .. إنه لا يعيش فى فندق .. يأكل وينام .

— ولكنه يقضى بعض الوقت معنا وهو لطيف رقيق .

— بعض الوقت ؟!! يحدثنا عن البروفات .. وعن المطبعة التى توقفت .. وعن الحفار الذى أخر الأكلشيهات .

وضحكت سيدة وقالت :

— وفيم تريدينه أن يتحدث .. فى التقلية ؟

ورفعت كوثر رأسها وردت غاضبة :

— يسألنا عن أحوالنا .. وعن مطالبنا .

— ألا يعطيكم نقودا ؟

— يعطى خالتى أكثر مما نحتاج .. ولكن النقود ليست كل شيء ..

وأطرقت سيدة تفكر .

النقود ليست كل شيء ؟!!

لا يا كوثر .. فى النهاية تصبح هى كل شيء ...

منها ينبع رضا الناس عنك .. وتقويمهم لك ..

كل شيء يا كوثر يمكن أن ينبع من النقود .. ويترجم إلى نقود ..

فى ساعات التجلى .. والشبع .. والاستغناء .. نقول إن المادة ليست كل شيء ..

ولكن عندما نرتطم بالتزاماتنا فى الحياة .. نحو أنفسنا أو نحو الغير .. نجد أن لا شيء يؤديها .. سوى المادة ..

أنت كريم لأنك قادر .. ورحيم لأن لديك من المادة ما تزيل به أسباب العذاب عن سواك ..

ألفاظ الحنان لا تكفى .. يجب أن يصحبها القدرة على تقديم الدواء ..

لا حنية .. بغير بز ..

والذى يقول لك لاقينى .. ولا تغدينى .. إنسان شبعان .. ولكن الجائع .. لا يهمه تلاقيه أو لا تلاقيه .. المهم أن تغديه ..

الحرمان من المشاعر .. يعذبنا .. ويؤرقنا .

ولكن الحرمان من الطعام .. يقتلنا ..

إن بقلبى يا صغيرتى مثل ما بقلبك ..

كان مثيرا فيما مضى .. لأنه كان يبرز حادا وسط حاجات الحياة المسطحة .. ولكنه اليوم يتضاءل ويضمر .. لأن مشاكل الحياة أصبحت أكثر حدة ..

عندما يكون لك ابن .. قد يمرض فلا تجدين له الدواء ..

لن تقولى أبدا إن النقود ليست كل شىء .. ومع ذلك يا كوثر نحن لا نملك أن نفرض على الغير أسلوبنا فى التفكير الذى تفرضه علينا ظروف حياتنا ..

ما دمت ترين أن النقود ليست كل شىء .. فليكن لك ما تريدينه .

وقالت سيدة :

— غدا سيفرغ من كل هذه الزحمة .. وسيجلس معك .. ويسألك عن كل شىء .

ويلوح شبح حمدى مقبلا فى الظلمة فتهتف كوثر قائلة :

— لقد أتى .. سأعد له العشاء ..

وهكذا كانت تمر الأيام والليالى بسيدة والقلق يزداد بها يوما بعد يوم ..

وفى ذات صباح .. عزمت سيدة على أن تفعل شيئا ما .. تخرج لتطمئن على شقتها .. وتسأل ماذا فعل عباس .. ثم تحاول بعد ذلك أن تبحث عن عمل ..

وارتدت ملابسها .. وقبل أن تهم بالخروج .. وقفت عربة بوكس للبوليس بالباب وسمعت سيدة سائقها يقول :

— أجل .. هو نفس الرقم .

ووقفت سيدة فى الشرفة وقد أحست بقلق من وقوف العربة . ورأت عسكرى يهبط منها ويسأل محمود البقال الذى يقف أمام حانوته فى البيت المقابل :

— اسمع وحياة والدك ..

وأطل محمود متسائلا :

— نعم ؟.

— هل يوجد هنا فى هذا البيت واحدة باسم سيدة جابر .. الشهيرة بنرجس ؟

وقال محمود ببساطة :

— يوجد هنا واحدة اسمها سيدة فقط .. ولا أعرف لها اسما سوى سيدة .

وأقبل الجندى على باب الشقة .

وخرجت إليه سيدة متسائلة :

— نعم يا شاويش .

— هل لديكم أحد باسم سيدة جابر الشهيرة بنرجس ؟

ونظرت إليه سيدة وقلبها تتزايد دقاته وقد ازداد بها الجزع .. ولكنها لم تجد هناك فائدة من التهرب والإنكار فقالت باختصار :

— أنا سيدة .

وعاد العسكرى يتساءل :

— حضرتك الست سيدة ؟

— أجل .

— الشهيرة بنرجس ؟

وضايقها إصرار الغبى على اسم الشهرة وقالت له فى حدة :

— قلت لك أنا .

و لم يأبه العسكرى للهجتها الحادة وعاد يتساءل فى لهجته الملحة :

— زوجة المدعو عباس البرعى ؟

— أجل يا شاويش .. أنا .. والله العظيم أنا .

— صبرك بالله يا سيدة ..

— ماذا تريد ؟

— تفضلى معنا .

— إلى أين ؟

— معنا أمر من المحكمة واجب النفاذ .

— أمر بماذا ؟

— بأخذك إلى بيت الطاعة .

وكانت كوثر قد أقبلت على صوت المناقشة فأطلت برأسها من وراء سيدة وسألت العسكرى :

— فيه إيه يا شاويش ؟

— نريد المدعوة سيدة جابر الشهيرة بنرجس .. زوجة المدعو عباس البرعى .. مطلوبة لبيت الطاعة ..

وتساءلت كوثر فى دهشة وهى لا تفهم المطلوب ..

— بيت من ؟

— بيت الطاعة ..

وكانت الست فاطمة قد أقبلت هى الأخرى فالتفتت إليها كوثر وهى تقول فى دهشة :

— الشاويش يقول .. إن سيدة مطلوبة فى بيت الطاعة .

وتنهدت فاطمة وقالت فى استسلام :

— استصدر زوجك عليك حكما بأنك ناشز .. وأخذ حكما عليك بالذهاب إلى بيت الطاعة .

وتساءلت كوثر فى دهشة :

— هل تعنى أنهم سيصحبونها إلى زوجها بالبوليس ؟

— أجل .

— وستبقى فى بيته بالبوليس ؟

— أجل .

— وإذا هربت ؟..

— يعيدها البوليس .

— معنى هذا أنها عملية أسر ؟..

ونظرت كوثر إلى الشاويش وتسلطت فى دهشة :

— هل حقيقة ستسجنونها فى بيت زوجها ؟

وهز العسكرى رأسه وقال بغير تفكير :

— أمر المحكمة .

— أن تسجن الزوجة فى بيت الزوجية ؟

وبدأ العسكرى يضيق بالمناقشة فقال :

— خلصونا بقى .. يسجن والا أسر .. هذا حكم محكمة .. فوقى يا حرمة أمامنا .. ليس عندنا وقت نضيعه فى سين وجيم .

وسألت كوثر سيدة :

— هل ستذهبين حقيقة ؟.. هذا غير معقول .

وقالت الست فاطمة فى حزم :

— ادخلى يا كوثر .. لا مفر من أن تذهب سيدة ..

وصدق العسكرى على قولها :

— أمر المحكمة واجب النفاذ .. حكم بأن تعود سيدة جابر الشهيرة ..

وقاطعته سيدة فى ضيق قائلة :

— انتهينا سأذهب معك .

واستمر العسكرى يقرأ دون أن يعبأ بمقاطعتها :

— الشهيرة بنرجس .. إلى المسكن الشرعى بشارع السد البرانى زقاق البرعى .

وبهتت سيدة ورددت فى ذهول :

— أين ؟

— زقاق البرعى شارع السد البرانى .

وأطلقت سيدة زفرة حارة وتمتمت فى حقد :

— زقاق البرعى .. معلهش يا عباس .. أنا وانت والزمان طويل .

واستدارت متجهة إلى الداخل وهى تقول :

— عن إذنك يا شاويش .. سأعود بعد لحظة .

واتجهت إلى الممر المؤدى إلى الحمام حيث وضعت حقيبتها .. ولمت فيها بقية ملابسها وملابس جابر ونادت جابر الذى وقف فى الشرفة يشاهد عربة البوليس والصبية الذين تجمعوا حولها وهم يسألون السائق :

— فى إيه يا شاويش ؟

وصاح السائق بهم :

— ابعد يا واد منك له ..

ووقفت سيدة وبجوارها جابر يرفع بصره إليها متسائلا :

— إحنا خارجين ؟

— أجل .

— إلى أين ؟

و لم تجبه سيدة بل مدت يدها إلى الست فاطمة مودعة وقد اغرورقت عيناها بالدموع وشدت فاطمة على يدها قائلة :

— مع السلامة يا سيدة .. ربنا يهديه .. ويوفقكم .. سايسيه يا سيدة ولا تشدى معه .. الرجال كالأطفال يحتاجون إلى مسايسة ..

وهزت سيدة رأسها وهى تتمتم :

— لا فائدة يا سيدتى .. هذا ليس كبقية الرجال ..

— ربنا يساعدك .. هل تريدين شيئا من الأمانة ؟

— ليس الآن .. عندما أحتاج إلى شىء سأحضر لك .

— ألا تحتاجين إلى نقود ؟

— كتر خيرك يا ستى .. لست أعرف كيف أفى بجمائلك .

— لاتقولى هذا يا سيدة .. أنت فى مقام ابنتى سميحة ..

— ربنا يخليكى يا ستى .. ويسترك ويهدى سرك .. ربنا يفرحك بأولادك .. ولا يوريك فيهم سوء أبدا ..

ومدت سيدة يدها إلى كوثر التى بدا التأثر على وجهها وهزت رأسها وهى تشد على يد سيدة فى أسى وحزن :

— تذهبين إلى بيت زوجك بالبوليس يا سيدة ؟..وفى زمن تدرس فى المدارس حقوق المرأة ومساواتها بالرجل .. هذا مجتمع عجيب ياسيدة .. لقد بت أبغض هذا الزواج .. الذى قد يشدنى إلى زوجى **ذات يوم** بالبوليس ».

وزفرت سيدة زفرة حارة ..

— ليس كل الزواج ياست كوثر .. الزواج توفيق بين قلبين .. وشركة بين رفيقين .. الزواج نعمة للذين **يوفقهم الله** .. ولكن بعض الناس .. كما يقول المثل .. يجدون العضم فى الكرشة .. بعض الناس يتحول الذهب فى يدهم إلى تراب .. ويقبضون الزهر .. **فيضحى** بين أصابعهم شوكا .. وقاك الله سوء البخت يا ستى كوثر .. **وحقق الله كل أمانيك** ..

وهبطت سيدة درجات **الفناء** إلى الباب الخارجى وكوثر وراءها وقبل أن تعبر الباب التفتت إليها هامسة :

— لا تظلمى سى **حمدى** .. لا تلوميه لأنه يعمل .. **لأنى** جربت الرجل الذى لا يعمل .. وقاك الله **شره** .. وثقى به .. إنه يحبك .. ويميزك عن بقية المخلوقات .. أنا أعرف سى حمدى جيدا .. إنه يجامل كل الناس .. ولا يخذل

أحدا .. ولكن معك أنت يفعل أكثر من هذا .. يفعل شيئا أكثر من المجاملة وعدم الخذلان .. إنه يعاملك كقطعة منه .. وإنك تستحقين كل الأشياء الطيبة التى فى هذه الحياة .. وعلى رأسها حمدى .. وفقكما الله .. وجنبكما سوء حظى .. فليس هناك شر من سوء الحظ فى هذه الدنيا .

ولم تستطع كوثر أن تمنع عبرات تترقرق فى عينيها وعادت تشد على يد سيدة قائلة :

— شدى حيلك يا سيدة .. ربنا معاك .

وخرجت وتناول العسكرى الحقيبة منها ثم قذف بها داخل البوكس وساعدها على الصعود ثم رفع إليها جابر وصعد وراءه قائلا للسائق :

— اطلع يا عبد الحميد .. ع السيدة .

وجلست سيدة ترقب الطريق من فتحة البوكس الخلفية .. ووصلت العربة إلى شارع روض الفرج ثم لفت يمينا حتى وصلت إلى شارع شبرا .. تشق طريقها وسط الترام والعربات المتزاحمة .. حتى وصلت إلى المحطة وظلت تشق طريقها من المحطة إلى عابدين إلى السيدة ثم انحدرت فى شارع الخليج حتى أول سكة المدبح ثم استدارت فى أول شارع السد البرانى وتوقفت أمام زقاق البرعى .

وصاح السائق :

— انزلوا .. لا أستطيع دخول الزقاق بالعربة .

وهبط العسكرى ثم تلقف جابر من سيدة .. وتناول الحقيبة فوضعها على الأرض .. وساعد سيدة على النزول ..

وحملت سيدة الحقيبة فى يدها وأمسكت جابر باليد الأخرى .. واتجهت إلى الزقاق .

وتساءل العسكرى :

— أتعرفين البيت ؟

— أجل أعرفه .

ووصلت إلى باب بيت أم عباس ..

وبدا مدخل المطبعة كما كان منذ عشرين عاما .. زاد المبنى قدما وزادت الأتربة وأكوام القمامة من حوله .. ولكن شكل المدخل بدا كما هو .. والمقعد الذى كان يجلس عليه أبوها وأمامه طاولة التجليد .. وجردل النشا .. وأكوام القصاصات ما زالت كما هى .

وبدت المطبعة خاوية .. ساكنة .. لا طرقات .. ولا صيحات . وأقبل من داخلها شبح محنى ثقيل الخطى .. عرفت فيه سيدة عبده .. وعندما ميزها هتف بها :

— سيدة .. أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة ماذا أتى بك إلينا أخيرا ؟..

وتجاهلت سيدة سؤاله وردت عليه متسائلة :

— كيف حالكم أنتم ؟

— كما ترين .. اقتصر عملنا على طبع الإعلانات والبطاقات .. وتجليد الكتب القديمة .. نكاد نحصل على لقمتنا بالعافية .. رحم الله أيام الحاج .. كانت أيامه ندية .

— وهل يأتى سى عباس ؟

— يأتى ليبيت سواد الليل .. ويأخذ ما تجمع فى الصباح ثم ينصرف .

ونظر عبده إلى أعلى ثم قال :

— أظنه ما زال موجودا .. فهو لم يمر علينا ..

وخطت سيدة وابنها إلى الداخل . ووقف العسكرى فى الفناء يصفق بكفيه صائحا :

— عباس البرعى .. عباس أفندى ..

وبعد لحظة أطل وجه عباس من بير السلم وقد ارتدى الفانلة واللباس وتساءل صائحا :

— فى إيه ؟

ومد الشاويش عنقه من أسفل وصاح :
— حضرتك عباس البرعى ؟
— أجل أنا .
— الحرمة حضرت .
وصاح عباس فى لهجة شامتة :
— حضرت .. حمد الله على سلامتها .
وعاد العسكرى يصيح من أسفل :
— نريد إمضاء على هذه الورقة .. بأن الحرمة حضرت ..
ورد عباس فى نبراته الشامتة :
— حالا .. دقيقة واحدة ..
وارتدى جلبابه ثم هبط السلم حافيا .. والتقى خلال نزوله بسيدة فهتف قائلا :
— أهلا وسهلا .. شرفت وآنست .. يا ست الحسن ..
و لم تجبه سيدة واستمرت فى الصعود ..
وهبط إلى العسكرى الذى ناوله ورقة وقلما قائلا :
— هنا .. امض هنا ..
وأمضى عباس على الورقة ثم أعادها له .
وتوقف العسكرى برهة .. وأدرك عباس أنه يريد الحلاوة فمد يده إلى جيب الجلباب فأخرج علبة سجائر ثم مد يده إلى العسكرى قائلا :
— خذ .. ليس معى غيرها .
وتناول العسكرى العلبة قائلا :
— كتر خيرك ..
وخرج إلى الزقاق .. ليجد أهل الزقاق يتطلعون فى لهفة .. السيدات أطللن من النوافذ والبنات والأولاد تجمعوا حول الباب .

وتطاير التعليق من النوافذ :
— مرات عباس جابوها بالبوليس .
— لازم حايوريها اللضا .
— أصله سكرى وقمارتى .
— هى كان بيقولوا عليها ماشية على كيفها .
— دى كانت بتشتغل فى الوسعة .
— اللهم احفظنا .. وايه اللى لمه عليها ؟
— ماهو كان خباص وهلاس ..
وشق العسكرى طريقه وسط زحام الصبية قائلا :
— ياواد شوف شغلك منك له .. هو انتم إيه .. صيَّع ؟
وصعد عباس إلى الشقة ليجد سيدة تقف فى وسط الصالة الخالية وقد وضعت الحقيبة على الأرض وأمسكت جابر فى يدهاوأخذت تنظر إليه نظرات يتطاير منهاالشرر .
وقال عباس فى سخرية :
— عدت يا سيدة .
وأطلقت سيدة زفرة قصيرة وهى تتمتم لنفسها :
— اللهم طولك يا روح .
ثم أردفت قائلة بصوت أعلى :
— أجل يا عباس .. عدت ..
وأشار عباس إلى الأريكة المتهالكة التى كانت تجلس عليها أم عباس قائلا :
— تفضلى .. أظنك لست غريبة عن البيت .
ثم هز رأسه وقال متهكما :
— بلاطه .. أخذ من يديك راقات .
أجل يا سيدة .. لست غريبة عنه ..

أول مواطن استعبادك .. ومذلتك .. وتعذيبك ..

تعرفين أرضه بلاطة بلاطة .. انحنيت عليها بالفرشة حتى تشققت ركبتاك ..

لم تعرفى فيه اليقظة كما يعرفها الناس .. تمط وتثاؤب .. بل كنت تستيقظين لتجدى نفسك واقفة على قدميك بعد جذبة من يد أم عباس من شعرك لتنفضك بها كما تنفضين الحصير أو قطعة الغسيل .

لست غريبة عن البيت يا سيدة ..

دار الزمان بك .. ولف .. ثم أعادك إلى أرضه وبلاطه ومطبخه الأسود وحمامه المظلم ..

غادرته خادمة .. وعدت إليه سيدة .. ويا بئس السيادة ..

اشتراك عباس فيه أول مرة بقرشه ..

واشتراك فيه ثانية .. بحكم المحكمة ..

وما أشبه الليلة يا سيدة بالبارحة ..

بعت نفسك بالأمس .. وباعتك المحكمة اليوم ..

حكم عليك بأن تكونى سلعة ..

ولكن هذه المرة .. كانت شروتك بلا خيار ..

بالبوليس يا سيدة ..

كل مرة .. بعت فيها نفسك .. كانت بخاطرك .. كانت معاملتك حرة .. أخذا وعطاء .. بيعا وشراء ..

إلا هذه المرة .. لقد كانت بالإكراه .. بحكم المحكمة .. حكم رسمى ..

الدولة كلها .. بكل أجهزتها التشريعية والتنفيذية .. بقضائها .. وبوليسها .. ساهمت فى تقديمك .. لعبس .

اشتركت كل هذه السلطات فى العدوان عليك .. وفى تقديمك .. بالإكراه وبرغم إرادتك .. لهذا المخلوق ..

ماذا تفعلين يا سيدة ؟..

قدموك إلى بيت الطاعة .. فعليك أن تطيعى ..

وتقدمت سيدة خطوة تجاه عباس الذى جلس على الأريكة متربعا وقد تهللت أساريره وعاد يردد فى شماتة :

— عدت يا سيدة !

وتساءلت سيدة فى هدوء :

— أهذا هو بيت الطاعة يا عباس ؟

— أجل يا سيدة .. مسكن شرعى .. كما أمر به القانون يحوى فراشا .. ومحل أدب ..

— أهذا هو البيت الذى ستأوينى فيه مع ولدك ؟

— أجل يا سيدة .

ثم بسط يديه فى عجز وقال فى مسكنة :

— قدرتى .. ولا يقدر على القدرة إلا ربنا .

وصمت برهة ثم نظر إليها نظرة ذات معنى وأردف قائلا :

— على أيه حال إذا لم يعجبك ولم تجديه قدر المقام فاستأجرى لنا غيره .. أنا تحت أمرك ..

وأدركت سيدة ما يعنى فهزت رأسها وقالت فى هدوء :

— بل يعجبنى ونصف .. لا أظن أننى سأجد خيرا منه .

وهز عباس ركبته فى حركة عصبية ثم قال :

— انتهينا .. تفضلى خذى راحتك .

ثم قال فى لهجة منذرة :

— ليس مسموحا لك بالخروج منه .. أوامرى مطاعة هنا ..

وصمت برهة ثم استرسل يقول :

— ولعلك عرفت .. أن الطريقة لإعادتك ليست متعذرة .

ونظرت إليه نظرة قاسية ملؤها الحقد وقالت :

— لن أغادره يا عباس .. أنا وانت والزمان طويل .

وكان جابر قد أفلت منها وعدا يعبث هنا وهناك . ثم عاد إليها ليتساءل :

— لماذا حضرنا هنا ؟

وجذبه عباس من يده يحاول احتضانه :

— هنا بيتك يا جابر .. بيت أبيك .. وجدك ..

— لا أريد أن أبقى هنا .

— لا تكن عبيطا .. سأحضر لك شكولاتة .. وملبن .

— لا أريد منك شيئا .. أنت تضرب أمي .

— أنا .. مظلوم والله ..

ثم نظر إليها قائلا :

— لو أنها تعقل .. وتضع ذهنها فى رأسها .. لسار كل شيء بيننا على ما يرام .. ولأصبحنا سمنا على عسل .. ولكنها تبخل على يا جابر .. أنا زوجها الذى انتشلها من الأوحال ..

وصمت برهة ثم مصمص بشفتيه ..

— ولكن معلهش .. ربك كريم .. يهديها .. بكره تروق .. وتحلى ..

وجذب الطفل نحوه قائلا :

— تعال يا جابر تعال .. أنا أبوك برضه ..

وقالت سيدة فى أسى :

— لو يهديك الله .. وتعمل .. وترزق .. لما تركته هكذا يتيما بالحيا .. ولكن لا فائدة .. كتب الله عليك الشقاء ..

(٤٢)

خلاص بثمن ..

أمضت سيدة بضعة أيام فى سجن الطاعة ..

كان عباس يتركها طوال اليوم . وفى جوف الليل يعود ثملا .. ليوقظها ويطلب منها أداء واجباتها نحوه .. إعداد العشاء وغيره ..

وصممت سيدة على أن تروض نفسها على الصبر عليه .

كانت تعرف أن معركتها معه .. معركة صبر ..

وذات ليلة أقبل عليها وقد بدت عليه علامات الشر والتحدى .. قائلا لها فى لهجة منذرة :

— وآخرتها يا سيدة ؟

— آخرة ماذا ؟

— آخرة هذا العيش .

— لست أفهم ما تقصد .

— بالعربى .. أريد نقودا .

— ليس معى نقود .

— أنا أعرف أن عندك نقودا .

— النقود التى معى لا تكاد تكفى اللقمة التى تأكلها .. وغدا ستنفد .. وسنجلس على باب السيدة للتسول أنا وابنك ما دام هذا يرضيك .

— لا داعى للف والدوران .. أنت لن تتسولى أبدا لأن معك نقودا .

— هب أن معى نقودا .

— إذن أعطينى شيئا .. إنى حقيقة فى أشد الحاجة إلى المال .

— أعطيك نظير ماذا ؟

— نظير ماذا ؟.. نظير أنى زوجك ..

— إذا كنت زوجى .. فأنت الذى يجب أن تعطينى .

— أنا ليس معى نقود .. ولو أن معى لأعطيتك .

— ولكن هذا واجبك .

— لا داعى لهذه المناقشة التى تفور الدم إنى أريد نقودا .

— قلت لك .. نظير ماذا ؟

— لست أفهم ما تقصدين .

— الإنسان دائما لا يدفع إلا إذا أخذ .. كل شىء بالثمن يا عباس ..

— ماذا أستطيع أن أعطيه لك نظير النقود .. قولى وأريحينى .

— الطلاق .

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أنى على استعداد لأن أعطيك النقود بشرط أن تحل عنى .. أن تطلق سراحى .

— هكذا !!

— أجل !!

— وبغير هذا لن آخذ النقود ؟

— ولا مليم واحد .. وسأظل معك فى هذا السجن حتى يفنى أحدنا الآخر .. يا أنا يا انت .

— لن تقدرى علىّ يا سيدة .

— بل أقدر عليك وعلى أبيك .. لا تظن أنى سهلة يا عباس .. أناأستطيع أن أمرمط بك الأرض واجعلك أمام الناس فرجة .. أستطيع أن ألم عليك الشارع وأبهدلك .. وافضحك واجعلك لا تساوى بصلة .. أنا لا أخشاك .. ولكنى فقط أصبر عليك .. وعندما ينفد صبرى .. سأقتلك وأشرب من دمك . ولا

يهمنى أحد .. حتى الولد .. له رب يرعاه .. فضع عقلك فى رأسك واعقل ..

وصمت عباس يزن تهديدها فى رأسه .. ثم تنهد قائلا :

— وماذا ستعطيننى إذا طلقتك ؟

— الذى يقدرنى عليه ربنا .

— قولى كم ؟

— قل أنت ماذا تريد ؟

وأخذ عباس يهز ركبته مفكرا ثم قال :

— خمسمائة جنيه .

وشهقت سيدة وقالت صارخة :

— خمسمائه إيه ؟

— جنيه !!

— يا أخى خمسمائة عفريت لما ينطلوك ..

ووثبت نحوه تهزه من ذراعه بعنف قائلة :

— لماذا .. أتظننى أجلس على كنز ؟

— تجلسين على كنز أم على طشت .. لن آخذ أقل من خمسمائة جنيه .

— يتحتم على إذن أن أعود للشغل عند دلال حتى أدبر لك المبلغ ..

— عند دلال .. عند توحيدة .. عند الجن الأزرق . هذا شأنك .. المهم عندى الخمسمائة جنيه ..

— هكذا !!

— أجل هكذا .

— طيب يا عباس .

ثم أمسكت طرف شعرها وأردفت منذرة :

— آدى مقصوصى .. إن طلت مليما واحد .

وأمسك عباس شاربه وقال بنفس اللهجة :

— وآدى شنبى .. إن قدرتى تتركى هذا البيت .

— ومن قال لك إنى أريد أن أتركه .. سأجلس هنا على قلبك حتى أطلع روحك .. وسأذهب كل يوم إلى القسم لأقدم فيك بلاغا لأنك تتركنى أنا والولد بدون طعام .

— افعلى ما بدا لك .. لاتهمنى المحافظة بأكملها ..

— هكذا .. منذ متى شممت نفسك ؟

— طول عمرى يا سيدة وأنا شامم نفسى .

وجذبها من ذراعها ودفعها إلى حجرة النوم قائلا :

— فوق ادخلى أمامى على الحجرة .

وجذبت سيدة ذراعها بشدة صائحة :

— لا لن أدخل ..

ودفعها عباس دفعة كادت تلقى بها على الأرض فهجمت عليه تنشب مخالبها فى عنقه وجذبته من الفانلة فمزقتها إلى آخرها ..

واستمرت المعارك بينهما ليلة بعد ليلة .

وأحست سيدة أن حياتها باتت لا تطاق .. وأن الأمر سينتهى بأحدهما إلى أن يقتل الآخر .. والصغير بينهما كل ليلة يهرع إلى ذراعيها فى هلع .. وهو يرى زجاج النوافذ يتهشم والكراسى تتحطم .

واستيقظت سيدة ذات صباح فوجدت الصبى ساخنا وهو لا يستطيع أن يرفع رأسه .

وأصابها الجزع وذهبت توقظ عباس قائلة :

— الولد سخن وسأذهب به إلى الطبيب .

وأجابها عباس فى عناد وإصرار :

— لا تتركى البيت . وإلا أعدتك بالبوليس .

— الله .. انت اتجننت .. أقول لك الولد سخن وسأذهب به إلى الدكتور

تقول لى لا تتركى الدار .. إذن اذهب به أنت !!

— ليس عندى نقود .

— إذن دعنى أذهب أنا .

— هاتى النقود وأنا أذهب به .

— لكى تصرفها على نفسك ؟

— هبى أنى صرفتها .. أخسارة فى .. جنيه أو جنيهان ..

— ليس معى ما أعطيه لك تضيعه فى المسخرة .

— ولكن معك ما تصرفينه على الفارغ والمليان .

— أتعتبر الذهاب بالولد وهو مريض إلى دكتور« شىء فارغ »؟

— إذا كان ساخنا فأعطيه برشامة وخلصينا .

ونظرت إليه سيدة فى حنق ثم قالت :

— اسمع .. سأذهب بالولد إلى الدكتور .. وافعل ما تشاء .

— قلت لك لا تخرجى .

— اضرب رأسك فى الحائط .. سأفعل كل ما أريد .. ولن يهمنى أى شىء .. لا أنت ولا البوليس ولا المحكمة .. وبل الحكم الذى فى يدك .. واشرب ميته ..

وقفز عباس ليطبق عليها . ولكنها أفلتت منه نحو المطبخ وصرخت منذرة :

— قسما بالله العظيم يا عباس يا ابن برعى .. لأشعل النار فى البيت وأطربقها على نافوخك .. كلب ابن كلب .

ووثب عباس من مكانه ووقف فى الصالة بالفانلة واللباس وصاح بها :

— اسمعى يا سيدة .. لا فائدة من حياتنا هكذا .. انتهينا تعالى نتفاهم بالذوق .

— ليس بيننا تفاهم .

— سأطلقك .

— لا أريد الطلاق .

— اعقلى يا سيدة .. وتعالى نتفاهم .. كم تريدين أن تدفعى ؟

— ولا مليم .

— الله يخرب بيتك .. ألم تقولى إنك على استعداد لأن تدفعى مبلغا نظير الطلاق ؟.

— لن أدفع مليما واحدا .. وسأعرف كيف أربك .

— تعالى ربنا يهديكى .. تعالى اجلسى نتفاهم .. وليذهب كل منا إلى سبيله .. وكفى مهاترة .. إن العمر لم يعد يحتمل .

وخرجت سيدة من المطبخ وهى تمسك بزجاجة الجاز وعلبة الكبريت وقالت وأنفاسها تتلاحق من الغضب :

— ماذا تريد ؟

— سأطلقك .. أيريحك هذا ؟

— أنت كذاب .

— أقسم بالله العظيم سأفعل .

— لا أصدقك أبدا .

— سأحضر المأذون وأطلقك أمامه .. ألا يكفيك هذا ؟

وأحست سيدة بأن باب الخلاص يوشك أن يفتح أمامها فقالت له :

— نظير ماذا ؟

— الذى تدفعينه ..

فكرت سيدة برهة .

هذه فرصة تشترين بها حريتك يا سيدة ..

حريتك التى أضعت عمرك فى محاولة استخلاصها بكل ما يمكن من وسائل .

فرصة تخلصين فيها من هذا السجن الذى أسرك العدل بين جدرانه .. وحكم عليك القانون بالمذلة وراء قضبانه .. وصنع لك منه فراشا .. ومكانا لقضاء الحاجة .. وجعله بذلك مسكنا شرعيا .. بصرف النظر عما يمكن أن يصيبك فيه

من إذلال .

تستطيعين أن تبيعى قطعة من المصاغ .. وتستردى بها نفسك .. وتنطلقى بابنك إلى الهواء الطلق .. تعملين عملا شريفا .. تربين به الصغير العزيز .

ونظرت سيدة إلى عباس ..

هذا المخلوق .. لا يستحق شيئا .. ولا يساوى مليما واحدا ..

ولكن الخلاص منه .. من أجل رعاية الولد وراحته .. يستحق الكثير ويساوى الكثير ..

وأطلقت سيدة تنهيدة طويلة كأنها تزيح عن كاهلها عبئا أثقله ثم قالت :

— سأعطيك مائة جنيه .

ووزن عباس المبلغ فى ذهنه ..

مائة جنيه ستدخل جيبك يا عباس .. بعد طول حاجة وفقر .. مائة جنيه والطوفان من بعدى .

ولكنه يستطيع أن يأخذ أكثر ..

لا يجب أن يسلم بسرعة .. المسألة تحتاج إلى مهارة فى المساومة .

وقال عباس فى استخفاف :

— مائة جنيه يا سيدة .. أهذا كل ما يساويه خلاصك ؟

وقالت سيدة فى حزم :

— مائة جنيه .. هى كل ما أستطيع إعطاءه لك .. بعد أن تطلقنى ثلاثا وآخذ ورقتى أمام المأذون ..

— كل هذا بمائة جنيه ؟

ثم صمت برهة واسترسل يقول :

— اجعليها ثلاثمائة .

وهزت سيدة رأسها فى يأس وقالت :

— لا فائدة منك يا عباس .. ما كان يجب أن أناقشك ثانية .

— طيب مائتين .

وتركته سيدة واتجهت نحو فراش الصغير قائلة :

— انتهينا .. لن أعطيك مليما واحدا .. وسأفعل ما أريد .. وافعل أنت ما تريد .. ناد البوليس .. ناد المحكمة .. سأريك كيف أتخلص منك ..

وصاح بها عباس وهو يحس أن الصفقة توشك أن تضيع :

— طيب تعالى .. انتهينا .. أين المائة جنيه ؟

والتفتت سيدة إليه فى دهشة قائلة :

— عندما تطلقنى سأعطيها لك على يد المحامى .

— أعطينى شيئا تحت الحساب .

— ولا مليم واحد .. خلصنى .. وخد النقود .

وقفز عباس من فوق الأريكة وأخذ يرتدى ملابسه بسرعة قائلا :

— اليوم سأخلصك .. حضرى النقود .

— سأذهب بالولد إلى الدكتور .. وسألقاك بعد الظهر فى مكتب الأستاذ عبد العاطى المحامى .. أنت تعرف مكتبه فى شارع عدلى ... اذهب إلى المأذون وخلص كل شىء وتعال إلى المحامى .. لننتهى اليوم معا .. ولنفترق بسلام ..

وخرج عباس بسرعة .. متجها إلى المأذون ..

هذه الليلة سيكون معه مائة جنيه .. بمجرد أن طلق البت سيدة ..

زمن العجائب !!

سيدة تدفع له مائة جنيه لكى يطلقها ؟!!

من يصدق هذا .

اشتراها بقرش فوق السطح .

وباعها بمائة جنيه .. فى الشقة .

ما شاء الله .. صفقة . غير معقولة .

ولكنها حدثت .

فى المساء التقى الاثنان فى مكتب المحامى ..

وتمت الصفقة ..

قبض عباس المائة جنيه ..

وتم خلاص سيدة ..

وانطلق عباس يرتع .. طليقا سعيدا .

جعلته المائة جنيه .. يطير .. محلقا .. فى سماء من المتعة .

بدأ بمانولى فخطف كأسين . ثم مر بدلال .. فسألها عن (حاجة جديدة) .. فقدمت له .. سمراء .. ساخنة .. طرية .. كالملبن .. وانطلق بعد ذلك إلى بيت وجدان ..

سعادة ما بعدها سعادة ..

ولكل كأس مذاقها .. ولكل مذاق .. اللسان الذى يهواه .

وذاقت سيدة طعم الاستقرار والحرية هذه الليلة ..

ذهبت فى الصباح بابنها إلى الرجل الطيب الدكتور عبد الرحيم .

لقيها جودة مرحبا .. وأدخلها إلى الدكتور .. وأقبل عليها الرجل العجوز فملأها طمأنينة بإحساس الأب الرحيم .

وقال لها فى نبراته الهادئة :

— يا ستى لا تنزعجى .. مجرد التهاب فى اللوزتين يحتاج إلى سلفا .. لدى زجاجة سأعطيها لك .. أين كنت هذه المدة ؟.

وتمتمت سيدة وهى تحمل الصبى على كتفها :

— مشاغل الدنيا يا دكتور .

— أيه مشاغل لديك ؟

وصمتت برهة ثم أردفت فى صوت خفيض :

— مشاغل الحياة كثيرة .. الدنيا لاتترك أحدا فى حاله .

وسألها الرجل :

— وكيف حال زوجك .. سمعت أنكما على خلاف .

وردت سيدة فى كلمات مقتضبة :

— افترقنا .. وذهب كل إلى سبيله .

وتركت عيادة الطبيب وقد أحست بالطمأنينة على ابنها .

وكان على سيدة أن تدبر بعد ذلك نقود الخلاص .

ولم يستغرق منها ذلك وقتا طويلا .

استطاعت الست فاطمة أن تدبر لها مبلغ المائة جنيه .. حتى تبيع إحدى قطع المصاغ ..

وفى المساء كانت سيدة تستقر فى شقتها فوق السطح .. بعد أن تم لها الخلاص نهائيا من سجن عباس .. فى زقاق البرعى .. بشارع السد البرانى .

نامت سيدة ليلتها .. وجابر فى أحضانها .. وهى تحس لأول مرة بنعمة الأمان والاستقرار .

نامت وهى لا تتوقع .. أن يهجم عليها عباس ثملا فى منتصف الليل .. ليحطم زجاج النافذة فوقها بأحد المقاعد .. أو يجرها من عنقها لتعطيه نقودا .. أو لتجهز له العشاء .. أو لتؤدى له واجب الزوجية .

ولم تخل أحلامها من الكوابيس المثيرة المزعجة .

أم عباس تجذبها من شعرها لتلقى بها من فوق السطح .. ونعش أبيها يهبط من الدرج وهى تعدو وراءه لتلحق به .. ثم تجد نفسها حافية .. ثم عارية .. ولا تعرف أين تخفى نفسها .. وتجد حمدى فى إحدى الشرفات وأكوام الصحف من حوله .. ولا يلتفت إليها فى أول الأمر .. فتصرخ مستنجدة به ، فيقذف إليها بكوم من الصحف بجواره .. وتطايرت الجرائد فى الطريق .. وتعدو تمسك بإحداها تستر بها جسدها .. فتدفعها الريح أمامها .. ثم تهوى إلى جـرف عميق .. لتصرخ مستيقظة وهى تضم جابر إلى أحضانها ..

واستيقظت فى الصباح ..

نسمات صباح أكتوبر تهب رطبة ندية من النافذة ..

وسحب الخريف تتلاحق على صفحة السماء الزرقاء .

وإحساس بالأمان والسكينة يملأ نفس سيدة .

واستيقظ ابنها ليفتح عينيه ويسأل فى خوف وحذر :

— بابا خرج ؟.

وقالت له سيدة وهى تطلق تنهيدة ارتياح :

— خرج ولن يعود .

ونهض جابر بجذعه الأعلى وهو يتلفت حوله متسائلا :

— لن يضربك بعد ذلك .. ولن يحطم الزجاج والكراسى ؟

— لا يا جابر .. انتهينا من كل ذلك .

— ولن يأخذنا إلى بيته بعد ذلك ؟

— أبدا .

— وإذا حضر العسكرى ؟.

— لن يحضر العسكرى أبدا .. سنبقى هنا على طول .. هذا بيتنا .. أنا وانت .

— ألن نذهب إلى كوثر والست فاطمة ؟

— طبعا سنذهب لزيارتهما .

— وهل ستحضر إلينا أم سيد ؟

— سنرسل عم إبراهيم ليحضرها .

— وستبقى معنا ؟

— إذا أرادت .

— إنى أحبها .

— وهى أيضا تحبك .

— وأكره أبى عباس .

وأطلقت سيدة زفرة أسى .. ثم قالت للصبى :

ــ منه لله .. قل الله يسامحه .. ولا تكرهه .. لا تكره أحدا يا جابر فالله كفيل بأولئك الذين يستحقون منا الكراهية .

وفى هذا الصباح بدأت الأفكار تتزاحم فى رأس سيدة ..

ليس استقرارك هنا هو خاتمة المطاف يا سيدة .

ولا هو نهاية المتاعب ..

إنه بدايه متاعب من نوع جديد .. متاعب الكفاح من أجل الحياة الجديدة .. حياة يحدد معالمها .. هذا الصغير الجالس أمامك ..

حياة مستقيمة .. ليس لك فيها خيار ..

وأول ما عليك هو أن تسددى المائة جنيه التى أخذتها من الست فاطمة .

وليس هذا بالأمر العسير .

يحتاج إلى مشوار سريع إلى روض الفرج .. تأخذين المصاغ لتبيعى ما يلزمك لسداد مصروفاتك العاجلة .. سداد دين الست فاطمة وغيره من الديون الصغيرة ودفع الأجر المتخلف على الشقة .وشراء بعض ما يلزم من ملابس وخزين للطعام . وتجهيز ما يلزم لإدخال جابر المدرسة ..

أشياء كثيرة تلزمك من أجل الاستعداد لهذه الحياة الجديدة المستقرة .. المستقلة .. التى عليك وحدك يقع عبء مسئوليتها .

وبعد هذا تنبت المشكلة الكبرى ..

مشكلة الإيراد الدائم الذى يواجه مصروفاتك الدائمة ..

ستعيشين يا سيدة عيشة مختصرة على قدرك .. ولكنها مع ذلك .. ستستنفد فى يوم ما .. رصيدك المدخر .. من المصاغ ومن غيره .. ومهما كان الرصيد الثابت فمصيره إذا أخذنا منه دون أن نضيف إليه .. إلى زوال محتم .. وخذ من التل يختل .. وهى لا تملك تلا .. ولا حتى كوما :

ومن أجل هذا يتحتم أن تعمل ..

وعملا .. يحدده وجود هذا الصغير .. فى مجال معين .. لا تدخل فيه خبرتها السابقة .. ولا تجربتها الأولى .

أهم عنصر يا سيدة .. لضمان استقرارك فى حياتك الجديدة .. حياة الحرية والسيادة .. فى منطقة النفوذ الجديد .. التى لا تتعدى ابنك جابر ..

أهم عنصر يا سيدة .. هو العمل ..

والعمل .. الشريف ..

أنت على استعداد له .. بقدر ما تملكين من جهد ومعرفة ..

انسى يا سيدة كل ما كان من أمرك ..

انسى حياة الترف .. التى عشتها يا سيدة .. فى مرحلة من مراحل حياتك البراقة ..فلقد كان ترفا زائفا .. وكانت سيادتك نفسها .. موهومة .. باطلة ..

واسلكى طريقك الجديد .. بشجاعة .. وحزم .

ولكن أين هو العمل ؟..

وسألت السؤال لأول من صادفته فى صباحها الجديد :

عم إبراهيم بواب العمارة .

أقبل الرجل يحمل إليها وصولات الإيجار والنور المتأخرة .

وقالت له سيدة وهى تتناول الوريقات منه :

ــ اجلس يا عم إبراهيم .. تفضل .

ــ كتر خيرك يا ست سيدة .

ــ تشرب القهوة مضبوط .. والاعلى الريحة ؟

ــ زيادة يا ست سيدة .

ــ من عينىَّ يا عم إبراهيم .

ــ تسلم عينيكى يا ست .

وبعد لحظات أحضرت له القهوة .

وجلس الرجل يحتسى رشفات من الفنجان بصوت مسموع وهو يقول :
— من يد ما نعدمها يا ست سيدة .
ووضع الفنجان على المنضدة ثم تساءل :
— وكيف الحال يا ست سيدة ؟.
— الحمد لله يا عم إبراهيم .. خلصنا .. ربنا تاب علينا من مى عباس ..
— ربنا يهديه .
وارتشف عم إبراهيم رشفة طويلة أخرى وعاد يتساءل :
— وأنت .. ماذا ستفعلين ؟
— أريد أن أعمل يا عم إبراهيم .
ورفع عم إبراهيم حاجبيه فى تساؤل يشوبه الانزعاج :
— أين يا ست سيدة ؟
— أى عمل يا عم إبراهيم .. إن شالله شغالة .
— ياسلام يا ست سيدة .. هى حصلت .
— العمل الشريف ليس عيبا .. ولكى أعيش لا بد أن أعمل .
— لماذا لا تتزوجين ؟
وردت عليه فى فزع :
— أتزوج .. فال الله ولا فالك .. كفايانا يا عم إبراهيم .. ما أريده من دنياى هو أن أربى جابر .. من أجل هذا .. سأبحث عن عمل .
وصمت عم إبراهيم مفكرا ثم قال :
— اسمعى يا ست سيدة .. الدكتور عبد الرحيم .. يحتاج إلى أحد يعاون جودة . فقد خرجت سعدية التومرجية من عنده .. وازداد العمل على جودة .
— وماذا أستطيع أن أعمل عندهم ؟
— تساعدينه فى استقبال المرضى . وفى التنظيف والغسيل .. ومع الوقت يمكنك أن تتعلمى إعطاء الحقن .. وغيره من أعمال التمريض .

وصمتت سيدة وأخذت تزن العرض فى ذهنها .
هذا عمل ممتاز لو تيسر لها الالتحاق به .
إنه لا يستغرق كل الوقت .. وهو فى نفس البيت .. وتستطيع بسهولة أن ترعى جابر .. وأن تقضى معه جزءا من اليوم وتبيت معه ..
لو أمكنها الحصول عليه .. ولو كان أجره معقولا .
وتساءلت سيدة فى صوت منخفض :
— ألديك فكرة يا عم إبراهيم عن الأجر الذى كانوا يدفعونه لسعدية ؟
— أعتقد أنه أجر مجز .. والدكتور عبد الرحيم رجل طيب وأمير .. وربنا فتحها عليه .
— هل تستطيع أن تجس نبضهم .. عما إذا كان هناك احتمال .. أن ألتحق بهذا العمل عندهم ؟
— طبعا يا ست سيدة .. بمجرد أن يأتى جودة سأخبره .
و لم تبت سيدة ليلتها التالية إلا وقد تأكدت لديها سبل الاستقرار فى حياتها الجديدة ..
قبل الدكتور عبد الرحيم التحاقها بالعمل فى عيادته ..
واستطاعت أن تبيع بعض مصاغها .. لتسدد به ما عليها من الديون .. ولتقدم جابر فى المدرسة الكائنة بالقرب من معروف .
وبدأت خطواتها الأولى فى طريقها الجديد .. وملء نفسها الشعور بالسكينة والأمان .

(٤٣)

زيارة مفاجئة

واصلت سيدة حياتها الجديدة .. البسيطة المستقيمة .. تقطن فى شقتها ذات الحجرتين فوق سطح العمارة .. وتعمل تومرجية فى عيادة الدكتور عبد الرحيم طبيب الأطفال .

كانت تستيقظ فى ساعة مبكرة لتعد ابنها للمدرسة .. وتطعمه ثم تصحبه حتى باب المدرسة وتعود إلى البيت لتنظيفه وإعداد الطعام إذا كانت تنوى الطبخ . ثم تهبط بعد ذلك إلى العيادة .. تنظفها . و تغسل ما يحتاج إلى غسيل . حتى يحين موعد العيادة فتشارك جودة فى استقبال المرضى والمعاونة فى بعض ما يحتاجه الدكتور .

ولا يكاد ينتهى موعد عيادة الصباح حتى تسرع الخطى إلى المدرسة لتحضر جابر . وتصعد معه إلى الشقة ليتناولا الغداء معا .. ثم تقوم بعملية التشطيب من تنظيف المنضدة الصغيرة وغسل الأطباق . وإعادة ترتيب الشقة ثم تستريح حتى موعد عيادة المساء وقد يهبط جابر معها إلى العيادة . أو يلعب مع بعض الأولاد فى الفناء الخلفى للعمارة . أو يذهب عند إحدى الجارات .

ولا تكاد العيادة تنتهى حتى تصطحبه سيدة إلى الشقة .. وتعشيه .. وتتحدث معه حتى ينام .

حياة لا تتوافر فيها كثيرا ساعات الاسترخاء .. أو ظروف المتعة واللهو .. ولكن سيدة .. لم تفتقد فيها شيئا ينقصها .

لم يضنها الجهد الجسمانى الذى تقوم به .. كانت قادرة عليه .. قادرة ببساطة على أن تقوم بنظافة الشقتين .. شقتها والعيادة .. وعلى أن تقوم بخدمة ابنها وأداء واجبها فى العيادة على أتم وجه .

كانت تحس بإرهاق فى آخر يومها .. وعندما كانت تأوى إلى مضجعها . لم يكن يأخذ منها الاستغراق فى النوم أكثر من لحظات تروح بعدها فى إغفاءة طويلة لا تستيقظ منها حتى الفجر .

ومع الجهد الشاق الذى كانت تبذله .. ومع خلو حياتها من مظاهر المتعة المألوفة .. كان ثمة شىء يجعل لحياتها طعما .. ولجهدها معنى .

و لم يخطر ببالها قط فى حياتها الطويلة الماضية .. كيف يمكن أن يكون للصغار فى حياة الأمهات بهجة ..

كانت تألف بعض الصغار فى بعض الأحيان .. وكانت تحنو عليهم .. ولكنها لم تعرف قط ماذا يمكن أن يكون طعم الأمومة .. عند الأمهات .

لم تشعر من قبل كيف يمكن أن تقع لمسة الجبين الساخن على كف الأم .. ولا تخيلت من قبل كيف يمكن أن توجع آهة الصغير قلبها .

لم تحاول أن تعطى اهتماما لطفل يعبر الطريق .. حتى نما جابر .. وأصبح قادرا على أن يعبر الطريق .. وأضحت ترى فى كل طفل يعبره .. ابنها جابر .. وتكاد تصرخ .. وهى ترى عربة تقبل نحوه .. وتهم بأن تعدو لتحمله بين ذراعيها .

لا يعرف معنى الأمومة يا سيدة إلا من يمارسها .

وهى جميلة .. رغم كل ما بها من مشقة وجهد ..

ابنك يا سيدة أجمل الأطفال .. وأخفهم دما ..

يقول الناس إن به اتساع عينيك وجاذبية ابتسامتك .. ولقد أخذ عن أبيه شيئا ما .. قد يكون جبينه وشعره المجعد .. أو أنفه العريض ولكنه قطعا لم يأخذ عنه خلقه ..

لا استهتاره .. ولا أنانيته .. ولا مخاتلته .. إنه أقرب إلى جده جابر ..

فهو على صغره .. حمال للمسئولية .. عطوف .. حنون .. أمين .. يأبى إلا أن يساعدها فى كل ما تعمل .. وهو يجزع إن أصابها سوء .. وإذا أعطاه أحد بعض الحلوى فلا بد أن يتقاسمها معها .

وعملك فى العيادة يا سيدة على مشقته .. به شيء جميل .. فبانتهائه .. إيذان بلقاء جابر .. تهبطين الدرج بسرعة .. وتستحثين الخطى على الرصيف .. وفى نهاية الشارع تعبرين إلى الناصية الأخرى . وبعد دقائق تجدين نفسك أمام باب المدرسة ..

ويدق الجرس .. ويتزاحم الصبية على الباب يتدافعون بالمناكب والأيدى للخروج وتستطلع عيناك الوجوه .. قد يكون فيها وجوه جميلة .. وجـوه بيضاء .. لها عيون خضر .. أو زرق .. ولكنها قطعا ليست لها جمال المخلوق الذى تبحثين عنه .. ولاجاذبيته.إن به شيئا يملأ نفسك بهجة .. ويشيع فى قلبك الانشراح .

ويبدو وجه الصغير يتطلع بعينيه إلى أعلى .. باحثا عنها بين الوجوه المنتظرة ..

وتحس سيدة فرحة .. وتلوح له صائحة :« جابر .. جابر » ويسرع الصغير نحوها فيمد لها يده ..

وتسير وإياه فى الطريق وبنفسها إحساس المتعة والتفاخر والكبرياء .. الذى يملؤها لو أنها سارت مع أكبر الرجال قدرا .. وأجملهم شكلا .

ويتبادلان الحديث .. حديث الند للند ..

يخبرها ماذا قال له عبد القادر أفندى .. وماذا فعل مع زكى .. ومع عمر .. وهى تعرف مدرسيه وزملاءه بالاسم .

ويمد يدة فى جيب مريلته ويخرج لها قطعة شيكولاتة ويخبرها أنه اشترى واحدة أكل نصفها وأبقى لها النصف .. وفى منتصف الطريق .. تحس بوحشة له .. فترفعه من يديه ثم تضمه وتقبله وتعيده إلى الأرض ثانية وتواصل السير .

ومن متع الحياة أن تراه يأكل بشهيه ..

وكانت تتباطأ فى الأكل حتى ينتقى هو ما يحلو له .. ثم تأكل ما تبقى ..

ومن متعها أن تحميه.. وأن تضمه إلى صدرها وتحكى له الأقاصيص حتى ينام.

ما طاف بذهنك يا سيدة أن يدفع إليك مثل هذا المخلوق .. هذا القدر من

البهجة ..

فى كل مرحلة من مراحل حياته له بهجة ..

عندما بدأ يتحدث كان ممتعا .. طريقة نطقه .. وفهمه الذكى .. وعندما سار كان حدثا مبهجا ..

وفى كل يوم ينمو .. وكأنه نبتة زرعتها .. وتزداد اخضرارا وإيناعا ويشيع فى الدار من حولها بهجة وظلا وأنسا ..

كل شيء يفعله مسل .. مبهج .

إلا أن يمرض .

ياساتر يا رب .

موجع مرض الأبناء .. وأوجع ما فيه أننا لا نستطيع أن نحمل عنهم آلامه .. ننظر إليهم فى عجز .. وترسب آلامهم فى أعماقنا مضاعفة .

وأسوأ ما فى أمراضهم .. أننا لسنا أطباء .. ولا آلهة .. ولا نملك إلا أن ننظر إليهم فى عجز ووجيعة .. نتسول الشفاء من الأطباء ونرجوه مـن الله ... ليحل .. أو لا يحل وقتما يشاء .

و لم يمرض جابر ــ والحمد لله كثيرا ــ وعندما كان يمرض الأمراض العادية للأطفال .. كانت تحمله على كتفيها .. وتهبط إلى الدكتور .. ليتفحصه ويعطيه الدواء .. ويخبرها بالتعليمات اللازمة .

ومع الوقت تعلمت سيدة ماذا تفعل عندما يصيبه عرض مـن أعـراض المرض ..

تعلمت بذكائها .. وبدافع من حرصها على جابر وخوفها عليه .. الكثير من تعليمات الدكتور .

تعلمت كيف تعطى الحقن .. وتربط الضمادات .. وتضع الكمادات .. تعلمت متى تعطى الشربة .. ومتى يعطى الأسبريـن .. والسلفـا .. والأنتروفيفورم .. وتعلمت أى المراهم تضع على الجلد ..

وضحك الدكتور عبد الرحيم وهى تصف له ماذا فعلت عندما ارتفعت حرارة جابر وفحصت زوره وأبصرت عنده التهابا فى اللوز .

قال الرجل :

— صرت يا سيدة نصف طبيبة .. وبت منافسة خطيرة لى .

ثم أردف محذرا :

— ومع ذلك .. عندما يسخن جابر مرة أخرى .. أحضريه إلى .

— لم أرد أن أزعجك يا دكتور .. وأنا أرى كل هذا الازدحام فى العيادة ..

— لاتقولى هذا مرة ثانية يا سيدة .. إذا لم أعالج ابنك .. فمن أعالج ؟.. عيب أسمع منك هذا مرة أخرى .. اللهم إلا إذا صممت على أن تصبحى دكتورة ..

ومرت الأيام بسيدة .. وهى راضية عن حياتها .. راضية عما فيها من جهد ومشقة ..

وزارتها أم سيد بعد أن علمت أنها عادت إلى الشقة ..

ومكثت معها يومها .. تغدت معها .. ثم بقيت مع جابر حتى انتهت عيادة المساء .. وتعشت معهما ونامت ليلتها وفى الصباح التفت بملاءتها .. واستأذنت فى العودة إلى ابنتها فى ميت عقبة .

وقالت سيدة :

— لماذا لا تبقين معنا يا أم سيد ؟

وتنهدت أم سيد قائلة :

— لا أريد أن أحملك حملى يا ست سيدة .. يكفيك ما عندك .

— ليس لك هم يا أم سيد .. إنى دائما فى حاجة إليك .

— كتر خيرك .. إن زكية بنتى تنتظرنى .. وزوجها لديه خفرات ليلية وتحتاج إلى من يبقى معها ليؤنس وحشتها فى الليل . سأذهب . وسأعود إليك بين آونة وأخرى .

— البيت بيتك يا أم سيد .. هناك بيت ابنتك وهنا أيضا بيت ابنتك .. لا

تغيبى علينا .

وتكررت زيارات أم سيد من أسبوع لآخر ..

وفى ذات يوم أتت إليها قبيل الظهر .

وجلس الاثنان للغداء والطفل بينهما .

وجرى الحديث ببساطة فقالت أم سيد فيما قالته :

— ما أخبار الجماعة ؟..

— أى جماعة ؟

— جماعة روض الفرج .

— مضت بضعة أشهر لم أذهب إليهم .. المشاغل كثيرة يا أم سيد .. وأحس دائما عندما أذهب إليهم أنى أثقل عليهم .. ولكن السؤال واجب .. لا سيما أن الست الكبيرة كانت متعبة آخر مرة ..

وفى اليوم التالى جلس جودة يقلب الأهرام قبل أن يبدأ ورود الزبائن للعيادة ..

وقلب الصفحات الأولى وتمتم فى ضيق :

— أوقف القتال .. بعد أن وصل اليهود إلى العريش .. لو تركنا أول مرة لوصلنا إلى تل أبيب ..

واستمر فى تقليب الجريدة وهو يقول :

— سيؤلف إبراهيم عبد الهادى الوزارة .. بعد أن قتل الإخوان النقراشى .

واستمر يقلب الصفحات وهو يقول :

— لنر الوفيات الخاصة .. بعد أن أبصرنا الوفيات العمومية ..

وأخذ جودة يتمتم بضعة أسماء ثم توقف برهة وهو يقول :

— ما هذا ؟.. أليست هذه هى جماعة روض الفرج ؟.. أحبابك الذين تزورينهم ؟.

وهتفت به سيدة متسائلة فى فزع :

— ما لهم ؟

— حرم المرحوم محمد السمادونى .. ووالدة الأستاذ حمدى السمادونى رئيس تحرير مجلة الكفاح .

وعادت سيدة تصيح بجودة :

— ما لهًا .. انطق .

— البقية فى حياتك .. يا ست سيدة .

— توفيت .. الست فاطمة ؟

— توفيت بالأمس .. وشيعت الجنازة .

وأحست بالدموع تملأ مآقيها .. وبصدرها يضيق ووجهها يتشنج وانتابتها نوبة مفاجئة من البكاء .

ماتت الست فاطمة يا سيدة .

القلب العطوف الذى رعاك فى القرب وعلى البعد .

اخص عليكى يا سيدة .

شغلتك نفسك وابنك ومشاكلك عن أبر الناس وأعطفهم عليك ..

كانت لك الجدار الذى تأوين إليه كلما عصفت بك ريح الحياة ..

وآوتك ثانية .. وأنت مذنبة بغى .

كانت تعرف يا سيدة .. وإن بدا أنها لا تعرف .

بدليل راحتها عندما عرفت أنك تزوجت وأنجبت ابنا وقالت لك :

— الزواج سترة يا سيدة .

كانت لك الجدار الذى تأوين إليه كلما عصفت بك ريح الحيـــاة ..

ونسيتها عندما أمنت واستقررت .. وهدأت من حولك الريح .

اخص عليكى يا سيدة ..

واستمرت سيدة تشهق بالبكاء .

وحاول جودة تهدئتها عبثا ..

فلم يجد بدا من أن يصعد بها إلى الشقة .

وقالت سيدة والدموع تهمر من عينيها :

— أخبر الدكتور يا جودة أنى استأذنت اليوم .. وخذ بالك يا جودة من جابر .. عندما يحين وقت المدرسة اذهب وأحضره وأبقه معك حتى أعود فى المساء .

— عينيه يا ست سيدة .. اطمئنى عليه .. كأنه معك .

وذهبت سيدة إلى روض الفرج .

كان اليوم التالى للوفاة .. والسيدات قد اصطففن فى الصالة يتشحن بالسواد .. وعرفت سيدة معظم الوجوه الجالسة .

سميحة .. والعمة .. وابنتها خديجة .. وكوثر .. وست عواطف الجارة .. وأم محمود .

وسلمت سيدة والبكاء يخنقها .. ثم جلست فى ركن مطرقة محاولة أن تبتلع دموعها .

لم يزل السواد منذ أن مات سى محمد يكسو الأرائك والمقاعد ..

لم يحتج الأمر إلى سواد جديد ..

فقد قضت فاطمة كل سنيها بعد وفاة سى محمد فى سواد ..

قضتها بمآق لم تجف .. ودموع لا تغيض .

رحمك الله .. يا ست فاطمة ..

كانت حياتك .. فداء للآخرين .

كنت عاقلة .. وحازمة .. وطيبة .

كنت أعلم وأحكم — على أميتك — من الكثير من القارئين والكاتبين ..

ولمحت سيدة حمدى يودع بعض المعزين على باب حجرة الاستقبال وودت لو نهضت لتضمه إلى صدرها .. وتشاركه حزنه على خير الأمهات .

وأبصرت سيدة العمة .. تهز رأسها فى أسى .. ثم تندفع فى ثرثرتها كالعادة :

— الحمد لله .. حققت أمنيتها قبل أن ترحل .. كانت أمنيتها أن تزوج كوثر لحمدى .. كانت تقول لى فى كل مرة أزورها .. نفسى أفرح بحمدى وكوثر قبل أن أموت .. وفى كل مرة كنت أجيبها .. يا فاطمة .. ربنا يديكى العمر الطويل .. البت موجودة تحت أمركم .. دى بنتك ..

وتنهدت العمة وهى تواصل حديثها قائلة :

— وفى آخر مرة أصرت على إنهاء الموضوع وهى تقول يا سنية يا اختى .. حمدى كبر .. ونفسى أطمئن عليه وأحس إن حد حاياخد باله منه بعدى .. خلينا ننهى الموضوع بقى .. وأصرت يومها على كتب الكتاب .. ولم تسترح حتى زوجتهما ..

وبعد بضعة أسابيع ماتت .. الله يرحمها ويحسن إليها .

إذن لقد تزوج حمدى بكوثر ..

الحمد لله .. أن أكرمه الله بها ..

فليس هناك خير له منها ..

كانت سيدة تحس كأن كوثر ابنتها .

هذه الدنيا عجيبة .

أصبحت الصغيرة التى طالما حملتها على كتفها .. ربة هذا البيت ..

وإنها لأهل له ..

وأمضت سيدة يومها فى البيت .. قامت بكل ما تستطيعه من مساعدة وخدمة .

وعادت فى المساء إلى بيتها .. وبقلبها خليط من الحزن والرضا ..

ويوم الخميس .. فى ساعة مبكرة .. ذهبت إلى المدفن تحمل سلة الشريك والفاكهة .

لم يحتج الأمر إلى سوارس .. ولا إلى مشوار يهد الحيل .

ذهبت فى تاكسى حتى مدخل الشارع الضيق المؤدى إلى المدفن وهناك

وجدت عم إبراهيم قد فتح باب المدفن ورش الأرض ورص المقاعد وفرش الحصير حول الشواهد .

وكانت الأسرة قد أقبلت منذ دقائق ..

والتفت سميحة والعمة وبناتها حول الشاهد الداخلى ينشجون بالبكاء وكانت أشدهن تأثرا كوثر ..

ونهضت العمة لتقوم بمهمتها فى توزيع الرحمة على الصبية والبنات . وحملت سيدة السلة ووقفت تساعدها فى عملية التوزيع .

واستقرت سيدة بعد ذلك بجوار كوثر تربت على ظهرها فى حنان متمتمة :

— كفى يا ستى كوثر كفى يا حبيبتى ..

وحاولت كوثر أن تنطق ولكن أفحمها البكاء فعادت تستغرق فيه وقد وضعت رأسها بين كفيها ..

ونظرت سيدة إلى حمدى . فى جلسته الصامتة على المقعد وسط رجال الأسرة .. كان يتكىء بمرفقيه على ركبتيه ويسند رأسه بين كفيه وقد أخفى عينيه ..

وربت عماد ابن عمته ظهره قائلا :

— شد حيلك يا حمدى ..

وكره حمدى أن يتم إطراقه عن ضعفه فرفع رأسه وأسند ظهره على المقعد . وبدت عيناه حمراوين يترقرق فيهما بقايا دمع .. وبدت شعيرات بيضاء قد دبت فى فوديه .. وتجاعيد خفيفة تتسلل إلى أسفل عينيه .

عدا بنا الزمن دون أن ندرى يا حمدى .

نحن لا نرى عمرنا إلا فى وجوه الآخرين .

الصبى الرقيق النظيف الذى رد عنك غائلة الجماهير .. وأنقذك من براثنهم فى شارع السد .. قد شاب رأسه .. وتسللت التجاعيد إلى وجهه .. الصبى الذى انطلقت وراءه ذات يوم لتلتقى به عند سيدى الأربعين .. بعد أن ذهب ليستدعى

الطبيب لأبيه .. ولتخبريه فى ذهول .. أن أباه « خلاص » ..

الصبى قد أضحى رجلا .. وعاد إلى أرض القبور ليشيع عزيزا آخر ..

ويدور بنا الزمن دوراته المختلسة .. لا ندركها إلا عندما نبصر صغيرا نما .. أو عندما نحملق فى وجوه الغير لنبصر دورة الزمن قد حفرت عليها آثارها .. شيبا أو تجاعيد أو وهنا ..

أو عندما نحمل أعزاءنا على الأكتاف .. لنواريهم فى باطن الأرض ..

ومن يدرى يا سيدة .. حول من سيكون اللقاء غدا ؟..

هنا سيلتقى الجميع .. دائما .. فى يوم قرب أو بعد .

واحد يثوى فى الداخل . والآخرون يذرفون الدمع حوله .

وينفض اللقاء .. ليعود إلى لقاء آخر .. بجديد فى الداخل .. والباقون .. من حوله .

ومهما كانت الوجيعة يا سيدة ..

فثمة شعور مريع بداخلك .. عندما تحسين أن لقاء ما على أى وجه سيضمك ذات يوم مع أحبائك .. هنا ..

ونفضت سيدة الخاطر عن ذهنها ..

أطال الله عمرهم ومتعهم بالصحة والعافية .

وانتهت زيارة الخميس .. وودعت سيدة الأسرة .. وعادت إلى دارها .. لتجد العزيز الصغير ينتظرها بعد أن عاد من المدرسة .. وقد جلست معه أم سيد .

ونهض جابر ليعانقها ويضمها إليه وجلست برهة تستمع إلى ثرثرته ..

ثم أوت سيدة إلى فراشها لتستريح ..

ولم تعرف كم طالت إغفاءتها .. ولكنها استيقظت على يد تهزها .. وجدت أم سيد واقفة أمامها تهتف فى جزع :

— ست سيدة .. اصحى ..

ثم سمعت فى الصالة صوتا تعرفه جيدا .. جعلها تثب من فراشها صائحة فى جزع :

— عباس .. ماذا أحضره ؟

واندفعت إلى الصالة لتجد عباس وقد أمسك بجابر يحاول أن يضمه إليه والصبى يجاهد لكى يفلت منه .

وعباس يقول له مازحا :

— وبعدين يا جابر .. حد ينسى أباه ؟

وأقبلت سيدة متنمرة تصيح بعباس :

— ماذا أحضرك يا عباس ؟

— هكذا بدون تحية .. ولا سلام ؟..

— قل ماذا أحضرك ؟

ورد عباس ساخرا :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

— قل قبل أن أنادى البوليس ..

— بوليس .. هى حصلت ؟..

— أجل .. حصلت ..

— عيب يا سيدة .. أنا لم آت لأسرق .. أنا لست لصا .

— أنت أكثر من لص ..

— لمى لسانك يا سيدة ..

وصرخت فيه سيدة فى صبر نافد :

— لا تطل الحديث .. بأى حق تدخل هذا البيت ؟

— بأى حق ؟.. لعلك نسيت .

— لم يعد لى بك أى صلة .

— ولكن لى ابن عندك .. ومن حقى أن أرى ابنى ..

— ولكن ليس من حقك أن تقتحم هذا البيت .
ورفع عباس كفيه وهو يقول فى استسلام يحمل فى طياته معنى السخرية :
— أمرك يا ست سيدة .. إذا لم يكن من حقى أن أراه هنا .. فسأعرف كيف أراه .
— لو حاولت أن تقترب منه فى الطريق أو فى المدرسة .. فسأعرف كيف أردعك ..
— تردعيننى عن رؤية ابنى يا سيدة !..
— منذ متى كنت تعبأ به .. أو تهتم برؤيته ؟.. لا داعى لهذه الألاعيب يا عباس .. أنا أعرفك جيدا وأعرف وحايدك ..
— ما هى وحايدى التى تعرفينها ؟
— أعرف ماذا يهمك حقيقة ..
— ما هو يا سيدة ؟
— المهم عندك هو أن تلطش قرشين ..
— وماذا فى ذلك ؟.. إذا كان حضورى يزعجك بهذا الشكل .. فاشترى بعدى .
— لست أنا يا عباس .. لن تحصل منى على مليم واحد .. واخرج فورا بالتى هى أحسن .
— تمنعيننى من رؤية ابنى يا سيدة !
— أجل .. وأمنعك من العودة إلى هذا البيت ثانية .. وإلا ..
— وإلا ماذا ؟..
— سأعرف كيف أريك قدرك ..
— بل أنا الذى سأريك قدرك .. الظاهر .. أنك لا تأتين بالذوق ..
ونهض من مكانه واتجه إلى الباب وهو يردف قائلا :
— جنس واطى .. لا ينفع فيه المعروف .. ولكنى سأعرف كيف أرى

ابنى .. الصبر طيب يا سيدة يا بنت جابر .. يا رد الوسعة .
ولحقت به سيدة وهى تدفعه فى عنف خارج الباب :
— اخرس .. قطع لسانك .. يا نصاب .. يا بلطجى ..
— أنا ؟.. الصبر طيب .. معلهش .
وخرج عباس .. ونامت سيدة ليلتها نوما متقطعا تزدحم فيه الكوابيس ..
عباس يخطف جابر ويعدو به فى الطريق .. والناس يطاردونه قائلين :
حرامى .. حرامى .. وعندما يهمون بالإمساك به يقذف به إلى هوة سحيقة ليس لها قرار ..
ومرة أخرى الناس تتسلل من حولها .. وهى تبحث عن جابر صائحة :
جابر .. جابر .. ومن ورائه يبدو عباس وهو يقهقه ..
وأشياء أخرى كثيرة مزعجة .
واستيقظت ذلك اليوم .. وقد عقدت النية على ألا تذهب بابنها إلى المدرسة خوفا من أن يخطفه عباس ..
ومرت بضعة أيام وجابر يلازمها فى البيت وفى العيادة .. حتى أخذت مخاوفها تهدأ .. وفى الصباح ذهبت به إلى المدرسة وأعطت البواب خمسة قروش قائلة له :
— النبى يا عم عثمان .. خذ بالك من جابر .. لأحد يأخذه من هنا غيرى .
— اطمئنى يا ست أم جابر .. ابنك فى عينى .
— أخشى أن يحضر أبوه لأخذه ..
— مخلوق لن يجسر على أن يمسه وأنا على هذا الباب .
— كتر خيرك يا عم عثمان .
وعندما انتهى موعد العيادة .. انطلقت إلى المدرسة والقلق يملأ نفسها .. ولم تهدأ حتى طلع عليها وجهه بين حشد التلاميذ المتدافعين من باب المدرسة .
ومرت الأيام .. وكل شىء هادئ .. ولا أثر لعباس .
حتى فوجئت سيدة ذات يوم بشرطى يطرق بابها ثم يسلمها ورقة بأن تذهب

إلى قسم قصر النيل .

وخرجت سيدة وسألت العسكرى :

— لماذا يا شاويش ؟

— لا أذكر .. ولكن يبدو أن هناك حكم محكمة .. مطلوب تنفيذه .

وهتفت سيدة فى ارتياع :

— حكم بماذا ؟

— لست أدرى يا ست .. احضرى إلى هناك .. وسيخبرونك بكل شيء .. المهم .. امضى هنا .

وأمضت سيدة الورقة .

وبعد برهة كانت تعبر باب القسم وتقف أمام الضابط النوبتجى متسائلة :

— أنا سيدة جابر يا شاويش ..

— ماذا تريدين ؟

— طلبتمونى اليوم لأحضر إلى القسم ..

— ادخلى إلى الأمباشى عبد الموجود واسأليه .

ودخلت سيدة إلى عسكرى يجلس أمام مكتب .. وسألته قائلة :

— حضرتك عايزنى يا شاويش ؟

— من أنت ؟

— أنا سيدة جابر ..

وقلب الأمباشى أوراقا أمامه ثم قال :

— مطلوب منك أن يحضر ابنك جابر إلى القسم ..

وضربت سيدة على صدرها متسائلة :

— جابر يحضر إلى القسم .. لماذا ؟.. ماذا فعل ؟..

— يحضر .. وخلاص .

— دا جابر .. ولد عمره ماحصلشى ست سنين ..

— مفهوم ..

— لماذا إذن يحضر إلى القسم ؟

— يحضر لكى يراه أبوه .. عنده حكم بالرؤية .

— حكم بالرؤية !

— ألست مطلقة ؟!

— أجل ..

— أخذ أبوه حكما عليك لأنك تمنعينه عن رؤية ابنه .. بأن يراه مرة كل أسبوع فى القسم . وعليه أن يحضر كل يوم اثنين الساعة ١٢ هنا .. لكى يراه أبوه .

وشهقت سيدة وعادت تضرب على صدرها :

— جابر يحضر إلى القسم لكى يراه أبوه ؟

— أجل ..

— يا ناس .. يا هوه .. هو ده كلام ؟.. يدخل الولد قسم البوليس لكى يراه أبوه !.

وانهمك الأمباشى فى كتابة شيء على ورقة أمامه .. ثم قال فى عجلة :

— امضى بالعلم .. أجل هنا .. والساعة ١٢ غدا .. يكون الولد هنا .. فاهمة ؟..

وانصرفت سيدة وهى تضرب كفا بكف !

أهذا ما قدرت عليه يا عباس ؟..

ترى ابنك بالبوليس .. وبحكم المحكمة أهذا معقول ؟..

(٤٤)

حكمت المحكمة ..

تعودت سيدة أن تذهب بجابر ظهر كل اثنين إلى قسم قصر النيل ليراه أبوه .

وكانت عملية عجيبة تلك التى تتم فى القسم .

تذهب سيدة بجابر إلى حجرة الضابط النوبتجى ويتلفت الصبى حوله كل مرة فى خوف وهو يرى مرة شرطيا يدفع أمامه رجلا تسيل الدماء من رأسه .. ومرة أخرى رجلين ممزق الثياب يتبادلان أقذع الشتائم .. وثالثة امرأة تولول صارخة وهى تمسك بخناق رجل .

ويتشبث الصبى بذراع أمه وهو يتخيل كل لحظة أن شخصا سيضربه أو يخطفه .. ويجلس بجوار أمه على دكة خشبية فى انتظار وصول الأب .

ويأتى عباس . وقد بدت علامات القرف على وجهه وازداد مظهره رثاثة وزادت ثيابه بلى وقدما و لم يبق عليه من آثار العز سوى الطربوش المزيت يميل على حاجبه والمنشة يهزها فى يده .

ويلقى تحية عامة على من فى الحجرة ، من جنود وأصحاب شكاوى ومذنبين .. ولا يجيبه أحد .. أو يتمتم أحدهم بتحية مدغمة .

ويقبل عباس على جابر واضعا يده على رأسه عابثا بأصابعه فى شعره وهو يقول :

ـــ ازيك يا جابر .. مبسوط ؟

ويرفع الصبى عينيه إليه فى جزع ثم يزداد التصاقا بأمه .

وينظر عباس إلى الأم ويهز رأسه فى سخرية قائلا :

ـــ وانت ازيك يا ست الحسن .. إن شاء الله تكونى مبسوطة ..

ثم يخفض صوته قليلا وهو يقول :

ـــ ألم تملى لقاء القسم ؟..

ولاترد عليه سيدة بل تشيح بوجهها فى الاتجاه الآخر . ويعود هو إلى الحديث مع جابر قائلا :

ـــ أخبارك إيه يا وله .. أما زلت تذهب إلى المدرسة ؟. إن شاء الله تفلح .. كأبيك ..

ثم يوجه القول بصوت خفيض إلى سيدة :

ـــ يا ولية اعقلى وحطى عقلك فى راسك .. ألم يكن أفضل تلمى فى البيت .. وآتى لأشرب عندك فنجان قهوة وأرى الولد .. وآخذ ما فيه القسمة .. أليس لى عليك حق الضيافة ؟..

ولا تجيب سيدة .. ويستمر عباس ينقل حواره بينها وبين جابر حتى يبدو عليه اليأس ويقول متبرما :

ـــ ياللا .. يكفى هذا اليوم .. إن شاء الله نشوفك يوم الاثنين القادم . إياك أن تتأخرى .

واستمرت الزيارة الأسبوعية العجيبة للقسم .

وفى بعض الأحيان كان عباس لا يحضر .. تروح عليه نومة .. أو يكسل .. وبعد أن يطول الانتظار بسيدة تنهض إلى الشاويش الجالس على المكتب قائلة :

ـــ أقوم بقى يا شاويش ؟..

ـــ لم ؟..

ـــ انتظرت طويلا .. والرجل لم يأت .

ـــ وراه شغل .

ـــ ولكنى منتظرة منذ ساعة .

ـــ وفيها إيه .. وراكى إيه ؟

وتجلس سيدة . وبعد أن يمارس فيها الشاويش حقه فى الأمر والنهى .. يأذن لها

بالانصراف .

وطال اللقاء الأسبوعى فى القسم حتى بدأ عباس نفسه يمل ..

وذات مرة .. بعد أن تغيَّب بضعة أسابيع .. حضر وقد بدا على ملامحه التجهم .. ونظر إلى سيدة والصبى فى غيظ قائلا :

ـــ برضك يا سيدة مش حاتعقلى ؟.

وردت عليه سيدة فى حقد :

ـــ اعقل انت يا عباس .. وحل عنا بقى .. سيبنا فى حالنا .. يمكن ربنا يرضى عنك !

ـــ أنا أحل عنك يا سيدة ؟.. معلهش .. بكره أوريكى نجوم الظهر .. بكره أستحق الولد .. إن شاء الله عينك مش حاتقع عليه ولا بالبوليس .. اصبرى عليه حتى لا تستخسرى فى الفلوس يا سيدة يا بنت جابر ..

وانصرف الرجل .. دون أن يلقى على الصبى نظرة واحدة ..

وعندما عادت سيدة لم تنم ليلتها ..

هل يمكن أن يأخذ جابر الصبى ؟..

كيف ؟

بالقوة !!؟.. لا يستطيع ..

لا يمكن أن يقتحم بيتها .. لأنه ليس له عليها حق .. ولا يمكن أن يخطفه من المدرسة .. لأنها قد أوصت عم عثمان البواب .. وهى حريصة على ألا تتركه وحده أبدا فى الشارع .

ولكنه سيقول غدا إنه سيستحق الولد ..

إنها تعرف أنه بعد سنوات سبع يصبح الولد من حق أبيه .

ولكن هل يمكن أن تحكم له المحكمة بالصبى ؟

هل هو أهل لتربيته .. وهو يقضى وقته بين بار مانولى وبيت وجدان .. وغيره من بيوت القمار والدعارة ؟

ولكنه هو أيضا سيقول إنها غير أهل لتربيته .

وأنه إذا كان هو يتنقل بين بيوت الدعارة .. فقد كانت هى تقضى وقتها كله فيها .

هل يمكن أن ينبش ماضيها أمام المحكمة ليدفع بأنها غير أهل لتربية الطفل إذا أثارت هى عدم أهليته .

مصيبة يا سيدة ..

هذا الرجل لا يستبعد عليه شىء ..

ولقد وقعت المصيبة فعلا ..

حلت السن التى يستحق فيها عباس ابنه جابر ..

فالأيام لا تتوقف يا سيدة ..

لا نستطيع أن نخضع سيرها لحاجاتنا .. نوقفها عندما نريد ونتعجلها عندما تناسبنا العجلة .

كف عباس عن الذهاب إلى زيارات القسم .

واختفى مدة لا ترى له وجها .

حتى وصلها ذات يوم إعلان على يد محضر للذهاب إلى المحكمة .

وذهبت إلى محاميها .. فأخبرها أنه سيذهب لطلب التأجيل للاطلاع ..

واستمرت القضية .

طلب عباس ضم جابر إليه .

ودفع محامى سيدة بأنه غير أهل لتربيته لأنه بلا عمل .. ولأنه سكير ومقامر ومتشرد .. الخ . وأن هناك شهودا على كل هذا .

ورد عباس الدفع .. بسرد تاريخ أمه .. وقال ببساطة إنها كانت تعمل فى وجه البركة برخصة .. وأن المحكمة تستطيع أن تطلع على سجل الرخص وعلى كشف الصحة ..

وخلال القضية حاولت سيدة أن تتراضى مع عباس .. وأن تعطيه ما يريد من

المال لكى يترك لها الولد .

وأبلغه محاميها .. وقال إنه مستعد للتوسط .

وفى ذلك اليوم زارها عباس فى البيت .

طرق الباب ففتحت له .. ودخل عباس مصعرا خديه وهو يطوح المنشة فى يده .. ثم نظر إلى سيدة وقال فى سخرية متسائلا :

ــ أجلس يا سيدة ؟

وحاولت سيدة أن تلم كل مشاعر الحنق والضيق والاحتقار فى باطنها وقالت له فى هدوء :

ــ تفضل يا عباس .

وجلس عباس واضعا ساقا على ساق وهو يهز ساقه :

ــ سمعت أنك تريدين التفاهم .

ــ أجل .

ــ كنت ترفضين أن أزور الولد فى بيتك .. ولكنى سأكون أكرم منك وأسمح لك بزيارته فى بيتى .. أتعرفين زقاق البرعى ؟..

وزفرت سيدة زفرة حارة ثم قالت فى سكينة :

ــ ماذا يفعل الولد فى بيتك يا عباس ؟.. انك لا تستقر فيه لحظة . من يطعمه .. ومن يرعى أمره ؟

ــ نحضر له مربية .. يا سيدة .

ــ من أين ؟..

ــ ادفعى .. ما دمت تخشين عليه إلى هذا الحد .

ــ أدفع أجر مربية يا عباس .. أنا حمل هذا ؟

ــ إذن اتركيه .. يربى نفسه فى زقاق البرعى كما فعل أبوه ..

ــ حرام عليك يا عباس .. أنت تعرف أننى لا أستطيع العيش من غيره .

وهز عباس رأسه وأطلق ضحكة ساخرة من أنفه وقال :

ــ يبقى .. حلى كيسك .. وادفعى .

وتنهدت سيدة ثم قالت فى صوتها الذليل :

ــ ماذا تريد يا عباس ؟

ــ قدرى .. ماذا يساوى جابر ؟..

ــ قل يا عباس ماذا تريد ؟.. ولاتعذبنى .

وصمت عباس برهة ثم أطلق طلبه .. كما يطلق الرصاصة قائلا فى حزم واقتضاب :

ــ خمسمائة جنيه .

وذهلت سيدة ..

إن كل ما تبقى لديها من مصاغ لا يساوى نصف هذا المبلغ .

وتنهدت فى يأس وردت على عباس قائلة :

ــ قل شيئا معقولا يا عباس .

وفى عناد رد عباس :

ــ ولا مليم ناقص .. هذه المرة لن تخدعينى كما فعلت فى الطلاق .. خمسمائة جنيه سآخذها على داير مليم .. إذا كنت حريصة على استبقاء الولد معك .

ــ أقسم لك أنى لا أملكها .

ــ كذابة . أنا أعرف أنك تملكين أضعافها .. وسأعرف كيف آخذها منك يا سيدة .

وفشلت محاولة التفاهم .

وبعد أيام حكمت المحكمة بضم جابر إلى عباس .

وحضر شرطى ليتسلم الصبى ليذهب به إلى بيت أبيه ..

وكان صبيحة أحد أيام الشتاء .. وريح قبلية تهب لتلسع الأطراف ..

وضمت سيدة ابنها إليها بشدة وهى تقول فى إصرار :

ــ لن تأخذوا الولد ..

ـــ هذا حكم المحكمة .

ـــ هذا إجرام .. أبوه لا يعنيه أمر الولد ..

و لم تستطع سيدة أن تحتفظ بجابر .

توسلت وبكت .. صرخت وتشنجت .. شتمت عباس والمحكمة والبوليس .. كفرت بالله .. وبكل شيء .

و لم يجدها كل ما فعلت .. فقد أصر الشرطي على أخذ الصبي .

و لم تتصور سيدة أبدا .. أن جابر يمكن أن يأخذه الشرطي ليضعه فى العربة البوكس كما فعل معها .. ويذهب به إلى أبيه .

نظرت إلى الشرطي متوسلة :

ـــ اذن أذهب معه .. أنا فى عرضك .

وأردفت تتوسل والدموع تنهمر من عينيها :

ـــ أنا لم أفترق عنه أبدا .. منذ أن هبط إلى هذه الدنيا .. الله لا يحرمك من ضناك .

ورق قلب الشرطي وقال لها :

ـــ تستطيعين أن تأتى معنا فى البوكس .

واندفعت سيدة إلى الداخل وهى تقول :

ـــ دقيقة واحدة .. حتى آخذ له ما يلزمه من غيارات .

وبسرعة جمعت سيدة بعض ملابس الصبي .. ثم هبطت مع الشرطي إلى العربة البوكس والجيران يشيعونها بنظرات الأسى وتعليقات السخط :

ـــ غير معقول .. أن يأخذ الولد منها .. بعد تربية سبع سنوات .

ـــ صرفت عليه دم قلبها حتى جعلت منه صبيا مفرحا .

ـــ عدمت عافيتها فى العيادة .. لكى توفر له كل حاجاته .

ـــ حرمت نفسها لتهيىء له حياة كريمة .

ـــ ظلم .. والله ظلم .

وانتهت تعليقات الجيران وهبط جودة يوصلها حتى العربة قائلا :

ـــ متى سترجعين يا سيدة ؟

وردت سيدة والدموع تنهمر من عينيها :

ـــ لا أعرف يا جودة .. لا أعرف ماذا ينوى أبوه أن يفعل .. احكى للدكتور عن الظروف التى أنا فيها .

وتحرك البوكس .. متخذا طريقه .. إلى السد البرانى يحمل إلى عباس .. ابنه جابر .. الذى قضت المحكمة بضمه إليه .. وفى أعقابه أمه .. تعض عليه بنواجذها .. كما يعض الحيوان على صغاره .. عندما يتهددها خطر .

واستمرت سيدة تضم جابر إليها وهو يتساءل فى فزع :

ـــ هل سنذهب إلى أبى ثانية ؟

وتهز أمه رأسها باكية .

ويعود إلى التساؤل :

ـــ هل سيضربك .. ويحطم النوافذ ؟

وهزت سيدة رأسها وصوتها يختنق بالبكاء وقالت :

ـــ لا يا حبيبى .. لا تخف .

ومرة أخرى تساءل الصبى :

ـــ لماذا كان العسكرى يريد أن يأخذنى وحدى ؟

و لم تعرف سيدة بماذا تجيب وردت وهى مغرقة فى بكائها :

ـــ لا أعرف يا جابر .

ـــ أنا خائف ..

ـــ لا تخف يا حبيبى .

وتوقفت العربة أمام الزقاق . وهبط العسكرى ووراءه جابر وسيدة ..

ومد العسكرى يده محاولا أن يمسك بجابر ولكن جابر توقف ملتصقا بأمه

وصاح العسكرى :

— يالله يا ابنى الله يهديك .. احنا مش فاضيين لك .

وقالت سيدة وهى تسعل محاولة التخلص من حشرجة البكاء :

— سآتى معكم يا شاويش .

— انت وكيفك .. يالله يا ابنى .

وسارت سيدة وبيدها جابر ووراءهما العسكرى حتى وصلت إلى باب البيت . وكان عبده يقف أمام باب المطبعة فأقبل يتساءل فى دهشة :

— أهلا ست سيدة .. ما الحكاية ؟

وتساءل العسكرى :

— أين عباس افندى البرعى ؟

وأشار عبده بيده إلى أعلى قائلا :

— فوق ..

وردت سيدة مجيبة على استفسار عبده وهى تزدرد ريقها :

— عباس أخذ حكم بضم جابر .

وهتف عبده فى دهشة :

— وهو دا معقول .. الراجل اتجنن .. أين سيضعه .. إنه لا يستقر فى البيت سوى سواد الليل .

وصفق العسكرى بكفيه صائحا :

— عباس افندى البرعى ؟

وأطل عباس من النافذة وقد غطى رأسه بطاقية صوف حتى أذنيه و لم يكد يرى سيدة حتى صاح :

— الحرمة دى جاية ليه يا شاويش ؟.

— أرادت أن تجىء مع الصبى .

— الحكم بضم الصبى وحده يا شاويش .. الحرمة لا تلزمنا .

ونظر العسكرى إلى سيدة فى غيظ ثم قال :

— قلنا كده قالوا اطلعوا م البلد .. الحكم صادر بضم الصبى يا حرمة .. اتفضلى انت .

وصاح عباس بالعسكرى :

— سأنزل حالا لآخذ الصبى .

وكانت سيدة ما زالت تمسك بيد جابر فجذبه الشاويش من يده بعنف قائلا :

— خلصينا بقى .. دى مصيبة إيه دى .. احنا فاضيين لك ..

وحاولت سيدة أن تتشبث بالطفل ، وهمت بالانقضاض على العسكرى ولكن عبده جذبها من يدها قائلا :

— لا يا ست سيدة .. اهدى .. تعالى ..

وردت سيدة صارخة وهى تمسك بجابر :

— لن أترك ابنى .

وجذبه العسكرى مرة أخرى جذبة أعنف ودفعها من كتفها حتى يخلص منها الصبى .

وكان الجيران قد بدأوا يطلون من النوافذ يستطلعون الخبر .

وقال عبده فى لهجة حازمة :

— اتركى الولد يا سيدة .. ولا تخشى شيئا .. لن يستطيع أحد أن يمسه ونحن هنا .. تعالى .. ولا تدعى الخلق يتفرجون علينا .

وجذبها عبده نحو المطبعة ليبعدها عن باب البيت .

وكان عباس قد هبط وهو يرتدى جلبابه الكستور المخطط وطاقيته التى تغطى أذنيه . وجذب جابر من يده وهو يحاول التخلص من يد الشرطى محاولا الاندفاع إلى أمه وقال له ناهرا :

— ادخل يا واد .. بلاش مياصة ..

واستمر الولد فى المقاومة صارخا وصاح به الشرطى :

— لماذا لا تريد أن تذهب إلى أبيك ؟

ورد عباس فى غضب :

— أصله تربية مره ..

وحمل الصبى وهو يرفس بساقيه ويضرب بيديه .. وعباس يصيح به :

— اعقل يا واد احسن لك .. لاحسن انا مافياش خلق لك ..

ووقفت سيدة مع عبده فى مدخل المطبعة ..

وصياح جابر يتعالى من داخل البيت ..

وقدم عبده مقعدا لسيدة .. وأقبل بعض العمال من الداخل يتساءلون عن الحكاية فصاح بهم :

— ادخل يا جدع منك له .. بلاش لمه .

وقال لسيدة : اتفضلى يا ست سيدة اهدى ..

وردت عليه سيدة والدموع تتساقط من عينيها :

— كيف أهدا يا عم عبده .. وضناى يأخذه منى هذا الوحش .. لا بد أن أصعد إليه .

وقال عبده فى ترو :

— اعقلى يا ست سيدة .. إنه رجل أحمق .. وليس لك صعود عنده .. ولا داعى للبهدلة ..

— إذن أترك له ابنى يا عم عبده .. هل تتصور هذا ؟

— وماذا تظنين سيفعل به .. كل ما يريد هو إغاظتك .. ولكنى أؤكد لك أنه إذا احتمله يوم فلن يحتمله الآخر .

— لا أستطيع أن أتركه معه وحده يا عم عبده .. حرام عليكم .

— إذن سأحضر آمنة زوجتى .. للبقاء معه .. وسأبيت أنا فى المطبعة .. ولن يجسر عباس على أن يفتح عينه فيها .. أو يمس جابر بسوء وهى موجودة .. ثم إنه أبوه يا ست سيدة .. وغير معقول أن يمسه بسوء .. أنت تعرفين عباس .. مجرد

هبهبة على الفاضى .. وأؤكد لك لو تركته يومين لعاد يرجوك أن تأخذيه .. إنه يتجبر لأنه يلمس ضعفك ويعرف تعلقك بالصبى .. لو أنك أتيت إليه وقلت له خذ جابر لأنه لم يعد له بقاء معى .. ولأنى لا أملك ما أربيه به .. لهرب منك .. ولكنك عبيطة يا ست سيدة .. طول عمرك حسنة النية .. الله يرحم والدك ويحسن إليه .. اجلسى يا ست سيدة وروقى .. وسأذهب حالا لأحضر آمنة حتى تطمئن على جابر قبل أن تذهبى ..

وذهب عبده لإحضار آمنة وكان صوت جابر قد بدأ يخف .. ربما كان قد نام .. أو تلهى فى أى شىء ..

.. وبعد فترة أتى عبده ومعه آمنة .

وكانت سيدة تعرفها منذ أن كانت صبية فى الحارة .. وأقبلت العجوز الطيبة تسلم على سيدة قائلة :

— خير يا بنتى .. خير ؟.

ومن جديد اندفعت سيدة فى البكاء وهى تقول بصوت متقطع :

— أخذوا ابنى يا خالتى آمنة .. أخذوا ضناى ..

— اطمئنى يا حبيبتى .. اطمئنى .. لن أتركه لحظة .. سأضعه فى عينى .. أنا أعرف سى عباس جيدا .. كم حملته .. وهو صغير .. وسأعرف كيف أجعله يضع عقله فى رأسه ..

وصمتت سيدة برهة ثم أطلقت زفرة حارة وقالت فى مسكنة :

— إذن أراه قبل أن أذهب .

— طبعا ترينه .. وسترينه فى كل وقت ..

ولن يمضى يومان حتى يزهق سى عباس .. ويعدل عن عناده ..

ومدت آمنة يدها فجذبت سيدة من ذراعها قائلة :

— تعالى يا أختى .. تعالى .

واتجهت آمنة إلى باب البيت وصعدت السلم ووراءها سيدة وعبده حتى

بلغت باب الشقة ..

وكان عباس يجلس على الأريكة .. وأمامه جابر وهو يشهق شهقات متتالية من البكاء وعباس يقول له منذرا :

— عياط .. مش عايز .. إياك أن يعلو صوتك .

ولم يكد الصبي يرى أمه حتى اندفع إليها .

وقفز عباس من مجلسه وهتف بسيدة صارخا :

— ماذا أحضرك ؟

وصاحت به آمنة :

— إيه ده يا سي عباس .. لا إله إلا الله . الولية جاية تشوف ابنها وتطمئن عليه .

وصرخ عباس :

— ليس لها دخول فى هذا البيت .

وردت عليه آمنة فى لهجة ناهرة :

— عيب يا سي عباس .. عيب .. دا ضناها برضه .. هو انت حاتعرف تشوف حاجات الولد ؟

— ليس لأحد دخل به .. ابنى وأنا مسئول عنه .

— إذن سأبقى أنا لآخذ بالى منه ..

— اقعدى كما تريدين .. ولكن هى لأ ..

ونظرت آمنة إلى سيدة قائلة :

— اطمئنى يا حبيبتى .. أنا مسئولة عن الولد .. لا تحملى همه أبدا وتعالى لتطمئنى عليه فى أى وقت .

وصاح عباس :

— لن ترى له وجها .. سأعرف كيف أخلص منها القديم والجديد .

وجذب عباس جابر فى عنف صائحا بسيدة :

— يالله .. اتفضلى .. ورينى عرض كتافك ..

وجذبتها آمنة من ذراعها قائلة :

— تعالى يا حبيبتى .. تعالى .. غدا سيهدأ وكل شيء سيكون على ما يرام .

ونظرت سيدة إلى جابر وقد أمسك به أبوه وهو يبكى وقالت له مهدئة :

— لا تخف يا جابر .. لا تخف يا حبيبى .. سأعود إليك .. وأحضر لك كل ما تريد .. ستبقى معك خالتك آمنة .. مع السلامة يا حبيبى .. مع السلامة .

عجيبة هذه الدنيا يا سيدة .

كم من مرة دخلت هذا البيت وخرجت منه .

كم من آلام أصابتك فيه ..

ضربتك أم عباس .. وأذلتك ..

وقاسيت فيه آلام الحاجة والحرمان . ومرارة الذل والاستعباد .

ولكنك ما ذقت أبدا أمر من هذا الألم وأنت تغادرينه وقد اقتطعوا منك أعز ما عندك ..

ليس مجرد جزء منك ..

ولكنه شيء أعز .. من كل ما عندك .

تعبرين بابه .. وبودك .. لو ارتميت على بلاطه الذى برى غسله ركبتيك .

وهبطت سيدة الدرج .. وبكاء جابر يعلو فى مسامعها على كل ما عداه ..

وسارت فى الطريق وطبقة من الدمع قد تجمدت فى مآقيها لا تكاد تبصر من خلالها سوى صورة الصغير التى خلفته وراءها .

(٤٥)
هروب

مضى اليوم بسيدة وهى فى عيادة الدكتور .. تغيم الدموع على عينيها . فلا تكاد ترى من خلالها سوى صورة الصغير الباكى .

وأخذت تروح وتغدو بين الأمهات وأطفالهن المرضى .. غائبة الذهن لتتخيل جابر فى كل صبى يلتصق بأمه .

وطلبت من عم إبراهيم البواب أن يبتاع لها كل ما يحبه جابر من الأطعمة والفاكهة .. وأن يعده فى سلة لتحملها إليه فى الظهيرة وتسلمها إلى آمنة .. وكأنها تزور سجينا فى سجنه أو تعود مريضا فى مصحته .

غير معقول أن يبيت جابر بعيدا عنها ..

غير معقول أن تقضى ليلتها وحيدة دون أن تضمه فى أحضانها .

من يغطيه ليلا إذا قذف الغطاء من على جسده كما تعود أن يفعل ..؟

من يعد له الفطار ومن يذهب به إلى المدرسة ؟

ولكن عباس قال إنه لن يذهب به إلى المدرسة .. وأنه يكفيه أن يشب كأبيه ..

كيف تركت الولد يا سيدة ؟

ولكن ماذا كنت تفعلين أمام أمر المحكمة وقسوة البوليس ؟

كنت تستطيعين التفاهم مع عباس .

كيف ؟!! لقد طلب خمسمائة جنيه ؟

ولماذا لا تدفعينها . أهى أغلى من أن تفتدى بها جابر ؟

ولكنك لا تملكينها يا سيدة .. إن كل ما تملكينه من مصاغ لا يتعدى ثمنه المائتى جنيه .

لماذا لا تقترضين ؟

من أين ؟.. وكيف تسددينها ؟

ثم هذه النقود لم تعد ملكا لك .. إنها ملك لجابر .. تدبرين بها أمره وتؤمنين بها مستقبله .

ولكن قبل أن تؤمنى مستقبله.. يجب أن تؤمنى حاضره .. يجب أن تؤمنى حياته ..

كيف تتركينه لهذا الأنانى الأحمق ؟.. الذى لا يذكر غير نفسه .

اذهبى اليوم وسلمى له بما يريد .

بيعى مصاغك .. وأعطيه ثمنه .. ثم دبرى له البقية .. اقترضى من كل من حولك .. اقترضى من الدكتور ومن جودة .. ومن عم إبراهيم ومن أم سيد .. اذهبى إلى حمدى واسأليه أن يقرضك ما يستطيع .

وأحست سيدة ببعض الراحة .. وهى تصل إلى هذه النتيجة .

ستذهب الآن لتستعيد الصبى .. وسيبيت الليلة بين أحضانها وستعطى عباس كل ما يريد .. حتى لو أراد روحها

إنها على استعداد لأن تعمل أى شىء فى سبيل استعادة الصبى حتى ولو أدى الأمر بها إلى عودتها إلى ماضيها ..

ستعمل عند دلال . أو توحيدة .. أو حتى على قارعة الطريق .. إذا استدعى الأمر ..

فخير لها أن تنقذ الصبى .. من أن تضيعه وتحتفظ بشرفها .

غدا ستستغفره .. وإن لم يغفر .. فستقبل لعنته ..

يكفيها أن يبقى هو شيئا .. ولا يهم أن تكون هى أى شىء .

وأطلقت تنهدة ارتياح .. وأحست لأول مرة منذ بداية يومها الأغبر بأن أعصابها تسترخى . وأن الحمل الذى أثقل ظهرها .. قد خف .

وأطلقت بصرها من خلال الشرفة إلى الطريق ترقب العربات تمرق والمارة يتسكعون وفجأة ندت عنها صرخة .. وهتفت :

— جابر .

لقد أبصرت الصبى على الرصيف المقابل ..

هو بعينه .. ليس وهما .. ولا طيفا .

هو وحده .. يقف متطلعا إلى البيت ..

لا بد أنه قد هرب من بيت عباس .. وسار يسأل عن البيت حتى اهتدى إليه .. إنه يعرف العنوان جيدا .. يعرف اسم الشارع ونمرة البيت وعيادة الدكتور .. طالما لقنته إياها حتى لا يضل طريقه منذ أن عرف كيف ينطق .

عاد جابر إليك يا سيدة ..

عاد وحده فى هذه السكك المزدحمة ..

سلمه الله من الترام والعربات التى تندفع فى الطرقات ..

واندفعت سيدة إلى سور الشرفة .. وصاحت بالصبى حتى يظل فى مكانه حتى تهبط لتأخذه .

هتفت به بكل ما تملك من قدرة على الصياح :

— جابر .

وتطلع إليها الصبى .

وقبل أن تحذره أمه من عبور الطريق . صاح ينادى أمه فى فرحة ثم اندفع يعبره ..

وعدى منتصف الطريق . واندفع يعدو إلى الرصيف الآخر عندما أقبلت إحدى عربات الأجرة تعدو مسرعة .. وفوجئ سائقها بالصبى يمرق أمامه فجأة ..

وسمع الناس صوت فرملة تعوى ..

وامتزجت صرخة الصبى ..بصرخة أمه الواقفة فى الشرفة توشك أن تهوى بجسدها من فوق السور .. وازدحم الناس .. واختلطت الأصوات .. فلم يعد أحد يعرف .. من .. وأين .. وماذا حدث ؟

ووضعت سيدة كفها على وجهها وأخذت تعوى عواء الكلب عندما تهوى عليه بضربة قاسية ..

وأقبل جودة صائحا ومن ورائه من تبقى من زبائن العيادة .

— فيه إيه يا سيدة .. ماذا حدث ؟..

وردت سيدة من خلال عوائها الأليم :

— جابر .

— ماله ؟

— ضربته عربة .

— وماذا حدث له ؟

وهزت سيدة رأسها فى وجيعة دون أن تنطق ثم قالت وصوتها يقطعه خليط من العواء والأنين والبكاء :

— لا أعرف .. لا أعرف ..

وجذبها جودة من يدها وهو يرتجف قائلا :

— تعالى .. ابقى هنا .. حتى أرى ما حدث .

و لم تطق سيدة البقاء .

هبطت وراءه مندفعة .. وبعض السيدات يلاحقنها ويحاولن الإمساك بها .

وتزايد الزحام .. و لم يعرف جودة كيف يشق طريقه بين الكتل المتراصة ليرى ماذا حدث للصبى . وظل برهة يحاول أن ينفذ بين الزحام .. حتى سمع رجلا يصيح وهو يضرب كفا بكف .

— يا جماعة الواد بيفرفر .. حد يلحقه بالإسعاف ..

وقبل أن يصل إليه كان صوت جرس عربة الإسعاف يرن فى الطريق .

وتفرق الناس مفسحين الطريق لرجال الإسعاف .

ووصل جودة إلى الصبى ووجده ملقى بين يدى أحد المارة والدماء تنزف من فمه .

واستمرت سيدة تحاول أن تتخلص من الأيدى التى تتجاذبها محاولة استبقاءها بعيدة عن الصبى .

وأقبل رجل الإسعاف وأمسك بالصبى بين ذراعيه ثم قال بصوت أجوف خلا من الشعور :

ـــ لا فائدة .. ليس لنا معه تصرف ..

وصاح به أحد المتزاحمين فى غيظ :

ـــ لماذا ؟

ورد عليه رجل الإسعاف فى صوت خشن :

ـــ الولد مات يا سيدنا .

وتصاعدت التعليقات من الجمع المحتشد حول الحادث :

ـــ مسكين الله يكون فى عون أمه .

ـــ مفيش فايدة .. لازم يشوفولهم طريقة فى سواقين التاكسى ..

وكانت سيدة قد تخلصت من أذرع الذين يحاولون إبعادها عن جسد ابنها ..

ووصلت إليه وقد جحظت عيناها وهى تصرخ فى صوت متحشرج :

ـــ جابر .. جابر ..

وصاح رجل عجوز وقد بدا الألم على وجهه :

ـــ ابعدوها يا ناس .. حرام عليكم .

ولكن سيدة دفعت من حولها كالمجنونة وهبطت على جسد الصبى فضمته إليها فى شغف ولهفة صائحة :

ـــ جابر .. أنا أمك يا جابر .. جابر .. خلاص يا حبيبى .. مش حاسيبك ابدا .. إن شا الله ما اوعى ان سبتك .

وكان البوليس قد أقبل يعاين موضع الحادث .

وانحنى جودة على سيدة يحاول جذبها من ذراعها :

ـــ قومى يا سيدة .. قومى ..

ولم تنهض سيدة إلا بجسد الصبى محمولا على كتفها وصارت تحمله وسط الناس وهى تضمه إليها فى تحد وإصرار :

وصاح جندى البوليس :

ـــ وسع منك له عايزين نشوف مكان الحادثة .

ثم تساءل :

ـــ فين المصاب ؟

ورد عليه أحد المتزاحمين :

ـــ المصاب مات .

وأخذت مجموعة الزحام تنقسم . البعض حول عسكرى البوليس . والبعض حول سائق التاكسى .

وصعد البعض وراء سيدة وهى تحمل جسد الصغير .

واستقرت سيدة بابنها على فراشه ..

أقبل عليها الجيران ومن بينهم الدكتور عبد الرحيم . وقد شاع الحزن فى معالم وجهه .. وأمسك بيدها وجرها بعيدا عن جسد الصبى وقال لها فى تؤدة وحزم :

ـــ تجلدى يا سيدة .. أنا أعرف كم هو أليم فقد الضنى .. ولكن الإيمان بالله .. هو ملاذنا .. فى هذه الأرزاء .. يجب أن تؤمنى بالله يا سيدة .. قولى إنا لله وإنا إليه راجعون ..

ولم تفهم سيدة شيئا من قول الطبيب .

كان كل ما يطن فى أذنها طنين النحلة .. هو .. هل حقيقة .. فقدت جابر .. فقدته إلى الأبد ..

لن تستيقظ بعد .. على يده تربت خدها .. وفمه يقبلها قائلا :

ـــ أنا صحيت .. يا سيدة .

وتجيبه ضاحكة وهى تطرب لاسمها يخرج من شفتيه :

ـــ صح النوم يا جابر .

هل حقيقة لن تطعمه .. ولن تذهب به إلى المدرسة .. ليتحادثا طوال الطريق .. تحكى له .. ويحكى لها .. ؟..

هل حقيقة لن تحمّى جسده الصغير وتحمله عاريا على كتفيها ؟..

ألن تدفئه فى أحضانها .. وتقص له حتى ينام .. غير معقول .

ماذا تصنع بحياتها .. إن لم تفعل كل ذلك من أجله ؟

لماذا تشقى وتكد .. إن لم يكن من أجل الجنيهات التى تعد له بها المأوى والملبس وتهيىء له بها الذهاب إلى المدرسة ..

أى شىء بعد هذا يمكن أن يكون سببا للوجود ؟.

وازداد إقبال الناس عليها .

الجيران والمعارف والأصدقاء ..

وازدادت كلمات العزاء من حولها ..

وتناثرت أحاديث عن الدفن والمقابر .. وتشريح الجثة .. وشهادة الوفاة ..

إذن لقد مات جابر ..

لم يكن أول لقاء لك بالموت يا سيدة .

مات كثير من حولك من قبل .

ولكن هذا هو أصغر من ماتوا .

صغير على أن يموت .. وأن يوضع وحيدا فى جوف مقبرة .. قسوة على الصبى ما بعدها قسوة .

وهو يخشى الظلام .. ويخاف الوحدة .

ليس الموت هو ما يروعك يا سيدة .. فما كان قط غريبا عليك .

شهدت موت أبيك .. يتحرك أمامك على أكتاف الناس .. وأنت مشدوهة حيرى ..

وشهدت موت سى محمد .. مريرا أليما .. وموت الست فاطمة محزنا موجعا .. ولكن هذا الموت الذى تلقينه اليوم .. شىء آخر ..شىء يمزق

الحشا .. ويحرق القلب .

ومع ذلك يطلب الناس منك التجلد والصبر .

يطلبون منك أن تتحركى .. وتستمعى إلى أقوالهم وتردى عليها ..

وعليك يا سيدة أن تفعلى ذلك .. فليس أمامك سواه .

وجرت إجراءات الدفن بسرعة ..

توسط الدكتور عبد الرحيم لمنع التشريح .. واستخراج شهادة الوفاة .. وتم كل شىء على أسرع وجه حتى لا تبيت الجثة فى البيت ..

وكأن الجسد العزيز .. بات مصيبة يتحتم الخلاص منها على أسرع وجه .

ويسأل البعض عن المدفن .. ولم يستطع أحد منهم أن يعثر على إجابة مفيدة .. هل يذهبون به إلى مدافن أهل الأم ؟..وهل لها مدفن ؟.. وأين هو ؟.. أم يذهبون به إلى مدفن الأب وهم لا يعثرون له على أثر ؟.

وسألوا سيدة فلم تحر جوابا ..

لم تصدق أنها يمكن أن تبعث بالصغير وحيدا إلى مدفن ما .. أيا كان ..

وانهارت تعوى كحيوان جريح ..

ولم يجد الرجال فائدة فى التفاهم معها ..

وقال عم إبراهيم البواب :

ـــ أنا عارف المدفن اللى اندفن فيه عم عتريس .. واللى دفنا فيه الراجل اللى خبطه الترماى .. وما عرفنالوش أهل .. واللى حاندفن فيه كلنا ..

وسأله علوان الطباخ :

ـــ قصدك مدافن الصدقة ؟

ـــ أهى كلها مدافن يا عم علوان .. وكلها أرض حاتاوينا ..

وصاح الحانوتى يستحثهم :

ـــ خلصونا يا جماعة قبل المغرب ما تيجى والدنيا تضلم .

واستقر رأيهم على أن يذهبوا بجسد الصبى إلى مدافن الصدقة .. فلم يكن

أمامهم غيرها .

وفى لحظات كان جسد الصبى قد أعد للدفن .. وساروا به إلى مقابر الصدقة ..

ووراءهم .. سيدة تهرول جاحظة العينين فاغرة الفم .. متلاحقة الأنفاس .. وقد بدت مشدوهة .. وكأنها قد فقدت القدرة على الفهم أو الإحساس .

وانتهت المهمة فى سرعة البرق ..

بضعة أنفار فتح لهم الحارس مقبرة مهجورة على حافة الطريق وسط مئات المقابر .. وهبطوا بالجسد الصغير وبعد دقائق صعدوا من غيره ..

وحاولت سيدة عبثا أن تهبط معهم .. أن تبيت ليلتها مع الصغير تؤنس وحشته .. تقص عليه حدوتة .. أو تغنى له أغنية ..

ولكنهم منعوها فى حزم وقسوة ..

وقالت سيدة فى توسل ذليل .. والدموع تنهمر من عينيها :

— ليه يا جودة حرام عليكم .. تخطفوه منى ليه .. أنا ماعملتش فيكم حاجة ..

ولم يستطع جوده أن يكبت دمعه الذى سال فى صمت على خديه وقال وهو يزدرد ريقه :

— ياالله يا سيدة .. كفاية ..

وهز عم إبراهيم رأسه فى أسى وتمتم :

— الله يكون فى عونها .. دا الضنى غالى يا ناس .

ورفع يده إلى السماء داعيا :

— ربنا يجعل يومنا قبل يومهم .

وجروا سيدة من يدها جرا ..

وعادت سيدة أخيرا إلى شقتها ..

.. مقرىء يقرأ القرآن .. والمعزون من حوله .. يتنهدون .

والنار فى صدرك يا سيدة ..

النار فى باطنك .. لا خلاص لك منها ..

أينما سرت يا سيدة .. فشىء يحترق فى داخلك .. ليوجعك .. ويثقل قلبك .. ويملأ حلقك بالمرارة .

أين المفر من العذاب يا سيدة ؟..

بت عبدة أحزانك ..

تلك هى خاتمة مطافك مع الحرية .

كنت عبدة حاجتك .

عبدة رغباتك .. فى الحياة ..

عبدة مشاعرك للغير ..

وراح كل هذا ..

وخلف لك صراعك فى الحياة من أجل الحرية .. استعبادا لم يخطر لك ببال .

استعباد الحزن .. استعباد الوجيعة .

وانهارت سيدة على أحد المقاعد .. لا تميز من حولها شيئا .. وتعالى صوت المقرىء من حولها .

الذين إذا أصابتهم مصيبة ..

هذه ليست مصيبة يا رب .. إنها شىء أكبر .

عقابك يا رب أقسى من كل ما فعلت من ذنوب

.. ذنبى كبير يا رب .. إن كنت قد سرقت أو سلكت طريق الخطيئة ..

وتوبتى لم ترق إلى أمل عفوك وغفرانك ..

ولكن عقابك .. أكبر من طاقتى .. وعذابك أقسى من قدرتى .

أنا لم أقتل ضنى .. أو أحرق قلبا . فلماذا فعلت بى هـذا ؟..

ولماذا يا رب ؟..

وقارب الليل على الانتصاف .. وأخذ المعزون فى الانصراف ، واقترب

المقرىء من نهاية قراءته عندما سمع وقع أقدام تقترب من الباب ..

وبدا شبح يقف فى ظلمة المدخل يتطلع ببصره إلى الداخل فى دهشة ..

كان عباس .. يسأل عن ابنه الهارب ..

بعد أن عاد إلى البيت فلم يجده ..

وخطا إلى الداخل .. ليصل إلى أذنه صوت المقرىء .. ويجد بقايا المعزيات من الجارات يتشحن بالسواد ..

و لم يفهم عباس ما حدث ..

ونهضت أم سيد للقائه .

وسألها وهو يلوح بيده مهددا فى غضب :

— أين جابر ؟

ونظرت إليه العجوز فى أسى وقالت تتمتم بصوت خافت :

— جابر تعيش انت .

و لم يفهم عباس قولها وعاد يردد :

— هرب الولد من البيت.. استمر يبكى بعد أن تركته أمه وعبثا حاولنا إسكاته .. ثم سهى آمنة وخرج .. أين هو ؟ سآخذه غصب عن عين أكبر جعيص .

واقترب منه جودة وهو يجد صوته قد ارتفع وقال له فى حزم :

— اسمع يا سى عباس .. الولد لن تأخذه .. لأنه مات .. حاول أن يعبر الطريق بعد أن عاد من عندك فدهمتة عربة ومات ..

وفغر عباس فاه وأخذ يردد فى ذهول :

— ما .. مات .. جابر .. غير معقول !

واستند إلى كتف جودة وهو يحس أن ساقيه لم تعودا تقويان على حمله .

— تقول إن جابر .. مات .. جابر ابنى ؟

وأحست سيدة بوجوده فهتفت بأم سيد فى صوت ضعيف :

— أخرجوه .. لا أريد أن أرى له وجها .. ربنا يجازيه بكل ما عمل ..

وسحبته أم سيد من ذراعه إلى الخارج ..

— اتفضل يا سى عباس .. دعها فى حالها .. إن فيها ما يكفيها ..

وجذبه جودة من يده بعنف قائلا :

— تعال يا سى عباس اتفضل .

وسار عباس معهم كالطفل وهو يردد مشدوها :

— جابر .. مات ..

وهبط عباس الدرج يستند إلى الدرابزين يتلمس طريق قدميه على درجات السلم .

مات الولد يا عباس ..

قتلته بأنانيتك .. يا شر من أنجبت حواء ..

الشىء الطيب الوحيد الذى أفلحت فى إنتاجه على هذه الأرض .. على غير قصد منك .. وبلا إرادة .. قد قضيت عليه ..

فى أحد مشاوير أنانيتك وخديعتك .. أنجبت ولدا .. وأصبحت أبا .. وفى مشوار آخر .. من الأنانية .. قتلته ..

كل خطواتك فى الحياة يا عباس .. توجهها أنانيتك .. وتطفلك على الغير ..

وسرقتك لمجهوده .. من أجل منفعتك وإرضاء شهوتك ..

وفى طريقك المعوج .. أنبت نبتا .. رمية بغير رام يا عباس .. واخضر النبت وأينع .

كان يمكن أن يكون لك أثرا طيبا فى الأرض .. التى لم تخلف فيها غير آثار الشر والكذب والغش والخديعة .. وكان يمكن أن يجعلك فى يوم من الأيام تفخر به وتعتز بانتسابه إليك .

ولكنك .. لم تجد فيه غير وسيلة للكسب .. لابتزاز الأموال التى عشت على ابتزازها .

ودهسته فى طريقك ..

وعدت كما كنت .. وحيدا .. متشردا .. بلا رابطة تربطك بمخلوق .. لا أب .. ولا أم .. ولا أخ .. ولا زوجة ، ولا ابن ولا ابنة .

لا عليك يا عباس .

فأنت لا تستحق من الدنيا غير هذا ..

لقد عشت فيها طفيليا .. وحق عليك .. أن تخرج منها وحيدا .. أعزل ملعونا من كل من عرفك أو تعامل معك ..

لعنك أبوك .. حتى مل من لعنتك ..

حاول أن يعلمك شيئا .. وأن يجعلك تعمل عملا نافعا .. من أجل أن تعيش كالرجال الشرفاء ..

ولكنك أبيت إلا أن تظل عالة على من حولك .

مرة على أمك ..

ثم على تركة أبيك ..

وبعد ذلك على امرأتك ..

وأخيرا حاولت أن تعيش عالة على ابنك .

فأخذه الله ..

وعندما وصل عباس إلى آخر الدرج أحس بقدميه لا تقويان على حمله . فهبط على الدرج يفترشه .. وانكفأ يبكى فى حرقة .

وأحس عم إبراهيم البواب بصوت النشيج فأقبل يستطلع السبب ..

وعندما اقترب منه ليجده عباس هتف به :

ــ سى عباس .. مالك تجلس هكذا ؟..

ــ جابر مات يا عم إبراهيم .

ــ البقية فى حياتك يا سى عباس ..

ــ حياتى أنا يا عم إبراهيم .. أية بقية هذه التى ترجوها ..

هل كان لحياتى قيمة .. حتى تأمل فى بقيتها ؟..

ــ البركة فيك يا سى عباس ..

وهز عباس رأسه وقال فى سخرية :

ــ فى أنا ؟

ثم عاود البكاء وهو يقول :

ــ ضيعت الولد .. وحرقت قلب أمه عليه .. مسكينة يا سيدة .. ما رأيت منى خيرا .

ثم التفت إلى عم إبراهيم قائلا :

ــ أريد أن أحدثها يا عم إبراهيم .

ــ ولماذا لم تحدثها فوق ؟

ــ طردونى يا عم إبراهيم .. لم أجد لى مكانا فى معزى ابنى .. كان المفروض أن أجلس لآخذ العزاء .. ولكنهم طردونى .

وهز عباس رأسه والدموع تتساقط من عينيه :

ــ ولم أشتك يا عم إبراهيم .. لأنى أستحق ما لقيت .. أجل يا عم إبراهيم .. هل رأيت أبا لا يستحق شرف العزاء فى موت ابنه .. أنا هو هذا الأب يا عم إبراهيم .. ملعون أنا فى الدنيا والآخرة ..

وهز عباس رأسه وأردف يقول فى مرارة :

ــ لو أنى فقط أستطيع أن أحدثها .. أقول لها كلمة .. ولكنها قالت لهم .. أخرجوه .. لا أريد أن أرى له وجها .. ودعت الله أن يجازينى بما فعلت ..

وربت عم إبراهيم ظهره قائلا :

ــ خفف عنك يا سى عباس .. غدا يخف ما بها وتسمع إليك .. وتقول لها ما تشاء ..

ونهض عباس متثاقلا وهو يقول :

ــ يحيينا الله إلى غد .

ثم رفع كفه وبسطها قائلا فى مرارة :

ــ صفعته بهذه الكف عندما بكى .. ليت يدى شلت قبل أن أصفعه .. كنت له بئس الأب ..

وشيعه عم إبراهيم حتى الباب قائلا :

ــ ليغفر الله لنا جميعا يا سى عباس .. إنه غفور كريم .

والتقى عباس بعد ذلك بسيدة فى مقابر الصدقة . أقبل عليها حزينا محطما وقد نما شعر ذقنه أشيب مشعثا .

وهتف بها والدموع تنحدر من عينيه :

ــ سامحينى يا سيدة .. أنا على استعداد لأن أعود مجرد خادم لك .. وأبقى تحت قدميك .

وهزت سيدة رأسها فى أسى ويأس :

ــ لا فائدة يا عباس .. دعنى فى حالى واذهب إلى حالك .. ليسامحك الله .

وصمت عباس برهة ثم سألها فى مسكنة :

ــ هل أستطيع أن أنقل رفات الولد .. إلى مقبرتنا . بدل أن يبقى هكذا فى مقابر الصدقة ؟

وهزت سيدة رأسها وقالت فى نبراتها الحزينة :

ــ دعه يسترح فى مثواه .. مقابركم .. أو مقابر الصدقة .. كله مرقد .. ليرحمنا الله جميعا .

وتوالى لقاؤهما بعد ذلك بضع مرات على مقبرة الصدقة .. يجلسان فى صمت وينصرفان فى صمت حتى جاء يوم .. فإذا بالمقبرة قد أزالها التنظيم فى مشروع لتوسيع الشارع .

وذهب جابر .

وذهب معه مثواه ..

وانطوى عباس حزينا فى بيته .. ولأول مرة .. بدأ ينزل إلى المطبعة ..

أحس براحة .. وهو يجلس على مقعد أبيه ..

وملأته رغبة فى أن يعمل شيئا ..

ولم يكن هناك فى المطبعة سوى حطام آلات .. لم يكن هناك سوى أدوات التجليد .. وماكينة قص خردة .. وماكينة صغيرة لطباعة الكروت وإعلانات اليد ..

ومع ذلك فقد بدأ العمل .

أصلح ماكينة القص ..

وأخرج ما تبقى من مخزون الورق .

وبدأ يشغل ورشة التجليد فى عمل الظروف والدفاتر ..

ودبت الحياة فى المطبعة .. وعاد صوت الطرقات يدق فيها ..

وبين آونة وأخرى كان يذهب إلى سيدة يحمل إليها شيئا .. أى شيء .. فطير أو فاكهة ..

ورفضت أن تلقاه بضع مرات ..

وفى ذات مرة أقبل عليها فى العيادة واقترب منها أمام جوده قائلا :

ــ أنا لا أريد منك شيئا يا سيدة .. لا أريد منك سوى ذكرى طيبة .. لقد كان بيننا شيء عزيز ، لم أدرك معزته إلا بعد أن فقدته .. فدعينى آنس إليك بين آونة وأخرى .. مجرد كلمة طيبة تمنحنى عزاء كثيرا ..

وتنهدت سيدة قائلة :

ــ حاضر يا سى عباس .. ربنا يهديك .. ويسامحك ..

واستمرت سيدة فى عملها فى العيادة .. انحصرت كل حياتها بها .

أضحت ترى فى كل طفل مريض .. ابنا لها .

وسألها جوده ذات يوم : ما هى أخبار جماعة روض الفرج ألا تزورينهم ؟.

ــ كنت عندهم منذ مدة .. وقد وضعت كوثر ولدا .. ولم أذهب إليهم بعد هذا .

— ألم تخبريهم بما حدث ؟

وهزت سيدة رأسها قائلة :

— وما الفائدة .. لدى الناس من همومهم ما يكفيهم ولست أريد أن أثقل عليهم بهمى .

وفى ذات صباح أقبل الدكتور عبد الرحيم على سيدة ليسألها وقد بدا عليه التعب :

— سهرت الليلة عند أحد الزبائن .. ابنهم الصغير مريض بالتيفويد.. وهم يحتاجون إلى أحد يسهر الليل معهم .. أتستطيعين السهر يا سيدة ؟.

ورد جوده قائلا :

— إنها لا تكاد تحتمل عمل اليوم يا دكتور .

.. صحتها من يوم الحادثة لم تعد على ما يرام .

وتساءلت سيدة وهى لا تريد أن ترفض طلب الدكتور :

— أين يقطنون يا دكتور ؟

— فى روض الفرج ..

— روض الفرج .. فى أى شارع ؟

— شارع بكتمر .. بيت الأستاذ حمدى السمادونى .

وندت عن سيدة صرخة دهشة :

— حمدى السمادونى ؟

— أجل .. عنده طفل أصيب بالتيفويد .

وتنهدت سيدة وأجابت قائلة :

— سأذهب يا دكتور .. انهم أهلى وأولياء نعمتى ..

مرة أخرى يا سيدة يأبى القدر أن يريحك ..

مرة أخرى يدفع بك إلى مسرح الأحداث .. إلى بيت حمدى .. تمرضى ابنه ..

بعد أن فقدت ابنك ..

(٤٦)

سيدة البيت ..

أقبلت سيدة على بيت روض الفرج حيث الصغير المريض .

كان الوقت قبل الظهر وشمس الصيف تلهب أرض الطريق .. وشجرة بنسيانس نمت أمام البيت تمتد أوراقها الرقيقة لتفرش رقعة ظل فوق زير المياه الموضوع بجوار الباب .. والأزهار الحمر تكسو قمة الشجرة لتوحى بمزيد من اللهب ..

ووجدت عطا الله بائع الجاز أمام عربة الفنطاس وقد ابيض شعر رأسه وتقوس ظهره ..

وحيته سيدة وهى تعبر الباب الخارجى قائلة :

— ازيك يا عطا الله .

ورد عليها الرجل دون أن يميز بها سوى معطفها الأبيض ..

— الله يحفظك ..

ورفع كفيه إلى السماء :

— ربنا يشفى البيه الصغير ..

وعندما اقترب منها يحمل الفنطاس الصغير الملىء بالجاز ميز وجهها فهتف قائلا :

— سيدة ؟

— ألم تعرفنى يا عطا الله ؟

وهز عطا الله رأسه فى دهشة :

— لا والله .. ظننتك تومرجية .

ثم تمتم قائلا :

— أصل الجماعة ينتظرون واحدة .. وعد الدكتور أن يرسلها إليهم ..

وردت سيدة ببساطة :

— أنا هى يا عطا الله ..

— أنت التومرجية ؟

— أجل ..

— سبحان الله .

ثم عاد يهز رأسه فى دهشة .. ويقول فى أسف :

— الله يلعن أولاد الحرام .. لا يتركون أحدا فى حاله .. قالوا عنك كلاما كثيرا ..

ولم تعرف سيدة كيف تجيب .

وعاد الرجل يقول فى فرحة :

— الحمد لله أن أراك بخير .. تفضلى يا سيدة تفضلى .. من يصدق هذا ؟

ووقفت سيدة أمام الباب الداخلى .. دقت الجرس دقة ثم تذكرت أنه لا يعمل .. فطرقت الباب .

وفتحت لها كوثر .

بدا عليها الهزال .. شحب وجهها واحمرت عيناها .

وهتفت بها وهى تفتح الباب وتفسح لها الطريق :

— سيدة .. أهلا وسهلا .. ما هذه الغيبة الطويلة ؟

وأفسحت سيدة الطريق لعطا الله .. وقالت له كوثر :

— املأ الصفيحة فى المطبخ .. والنقود بعدين .

نفس الكلام الذى كانت تقوله ست فاطمة عندما كان يقبل عليها عطا الله ..

وعادت كوثر تتساءل فى نبراتها الحزينة :

— كيف حالك يا سيدة .. وكيف حال جابر ؟

ولم تعرف سيدة بماذا تجيب ..

كرهت أن تنطق بما قد يثير الحزن أو يبعث على التشاؤم فى هذا الجو المشبع بالقلق والأسى .

وبسطت كفيها فى رضاء واستسلام وتنهدت قائلة :

— الحمد لله .. الحمد لله على كل حال .

وكانت الصالة قد رفعت عنها السجاجيد وانتشرت فى الجو رائحة الليزول ..

وقالت كوثر وهى تشير إلى أحد المقاعد وقد غلبتها الدموع :

— هل تصدقين يا سيدة أن حمادة قد أصيب بالتيفوئيد .. مضى أسبوعان وجسده كالفرن .. ونحن لا نعرف ما به .. ظننا ما به مبدأ الأمر إنفلونزا ثم التهابا فى اللوز .. وعندما استمرت الحرارة .. أمر الدكتور بإجراء تحليل .. لأنه يشك فى حمى فى المصارين وأخيرا اتضح أن عنده تيفوئيد ..

واندفعت كوثر فى البكاء وهى تقول :

— ومن يومها وهو لا يكاد يعى .. رايح راس فى راس .. وحاولنا كل ما نستطيع لكى تنزل الحرارة ولا فائدة .. بقى معى الدكتور ليلة أمس حتى منتصف الليل إنه رجل طيب كريم .. وقد وعدنا بأن يرسل إلينا تومرجية تسهر معى الليل ..

وهزت سيدة رأسها فى أسى وهى تغالب دموعها وقالت :

— الليل والنهار يا كوثر يا حبيبتى .. أنا التومرجية التى أرسلها الدكتور ..

ورفعت كوثر رأسها فى ذهول :

— أنت ؟

— أجل .. أنا أعمل عند الدكتور عبد الرحيم منذ أن تركت زوجى ..

وبدا على كوثر مظهر عدم الثقة وتساءلت :

— وهل تعرفين كيف تعطى الإبر ؟..

— أعرف كل شىء يا كوثر .. لا تقلقى ..

وردت كوثر فى أسف :

— على النقيض يا سيدة .. أنا أطمئن إليك كنفسى .. ربنا كريم أن أرسلك إلينا . إن عينى لم تر النوم منذ بضعة أيام .. أنا لا أتصور أنى أستطيع أن أنام وأترك حمادة لأحد .. ولكن معك أنت .. أشعر أنى الأمر شىء آخر ..

وأقبل حمدى من عمله .. وقد بدا مرهقا مكدودا .. وانبأته كوثر أن التومرجية التى أرسلها الدكتور هى سيدة .. وبدت الدهشة على وجه حمدى .. وأعقب الدهشة شعور بالارتياح والرضا .

وبدأت سيدة عملها فى بيت حمدى ..

لم تترك البيت سوى مرات معدودات منذ أن دخلت .. و لم تغفل عيناها عن الطفل المريض لحظة واحدة .

كان محمد .. كما سموه باسم جده .. فى غيبوبة دائمة ..

ملقى فى فراشه الصغير .. مغمض العينين .. يتقلب فى ملل وضيق .. وكأنه يحاول أن يفلت برأسه من طاقية الثلج المسندة إليه .

وبين آونة وأخرى تمتد يدها لتضع الطاقية فى موضعها .

والإبريق الصينى الصغير فى يدها .. تحاول أن تلقمه شفتيه لتدفع بعض السوائل فى جوفه .. ويسيل معظمه على الفوطة الموضوعة تحت ذقنه .. ويرجع ما قد يكون تسلل إلى باطنه .

ويأمر الطبيب بحقنة جلوكوز .. بعد أن يفشلوا فى وضع أى شىء فى معدته ..

وتعلق الأنبوبة فى الحامل ويمتد الخرطوم إلى ذراع الطفل لتدفع بالإبرة فى عرقه الذى لا يكاد يبين .

وبجواره يطل عليه أبوه فى لهفة .. وتمسك أمه كفه الصغيرة فى جـزع وخوف ..

رأيت هذا المنظر من قبل يا سيدة .

منذ سنين طويلة .. كاد الزمن يطويها من ذاكرتك ..

وقد رقد سى محمد فى فراشه بطاقية الثلج على رأسه .. وإبرة الجلوكوز فى عرقه تمتد بالخرطوم من الأنبوبة المعلقة .

والجد يجلس على مقعده عاجزا .. وهو يهز رأسه فى أسى ويأس .

والأم تنهمر دموعها فى صمت .. والكل حائر مشدوه .

لماذا يحاول القدر أن يقدم لنا طعنات منتقاة من سخرياته ؟

ولماذا يدفع بها بعد طول مطاف ؟.. إلى بقايا الأسرة لترى مشهدا جديدا من مشاهد الأسى والوجيعة ؟..

ألم يكفك ما بك يا سيدة ؟.. حتى يقذف بك القدر لتشاركى الغير فى حصد الشوك ؟.. وجنى المرارة ..

وليس هناك من المأساة مفر ..

بل إنك تخوضينها برغبتك .. فى لهفة ..

لو أنك قادرة على أن تفعلى شيئا .. أو تنقذى أحدا .. لاستحق الأمر كل هذا العذاب ..

ولكن أن تخوضيه .. وتعودى بمزيد من الآلام ومزيد من الأسى .. فهذا هو الأمر العجيب .

حتى كأنك خلقت .. حمالة للأسى .. مشغوفة بالمواجع .

اهربى يا سيدة ..

انجى بجلدك قبل أن تشاهدى مأساة أخرى .

لم يعد لديك جلد على مزيد من الصدمات والكوارث .

لم تعد لديك القدرة على وداع مزيد من الأحباب .. تنتزعه منك يد الموت وأنت ذليلة عاجزة .

مللت لقاء الموت يا سيدة ..

كرهته .. وأبغضت وجهه البغيض . ومظاهر الموجعة .

انجى بنفسك يا سيدة .. فأنت أعجز من أن تصدى الموت وأعجز من أن تواجهيه .. وتستسلمى له ..

ومع ذلك .. استمرت سيدة تقاوم .

أصرت على أن تواجه الموت فى معركة أخيرة ..

كان بداخلها رغبة فى العناد .. والمقاومة ..

لم تنم ..

لم تغفل عيناها عن وجه الطفل .. تثبت على رأسه الطاقية .. وتدفع بين شفتيه بإبريق السوائل .. وتدفع فى عروقه وجلده الحقنة تلو الحقنة .

والأيام تمر بطيئة .

والليالى تنسلخ بليدة متثاقلة .

ونداءات الباعة وأصوات الطريق .. بات لها فى مسامعها وقع آخر .. بغيض مخيف ..

كل دقة .. توجعها .. وكل طرقة باب تخيفها ..

وأخيرا ..

أخيرا جدا ..

بعد طول عناد ومقاومة .

هبطت الحرارة .

وفتح الطفل عينيه ..

وقال الطبيب وهو يهز رأسه فى غبطة :

ــ معجزة ..

ثم تنهد قائلا :

ــ حمدا لله على كل حال .

وأحست بحمدى ينهار على المقعد ويدفن رأسه بين كفيه .. وأدركت أن دموعه تنحدر من مقلتيه .

كانت دموعا حبيسة أطلق سراحها .. انفراج الأزمة .

كانت ترقبه الليالى الطويلة .. وهو ساهر .. يرقب الطفل فى شرود .. وقد جمدت معالم وجهه .. وكأنه يخجل من الألم ..

ويغفو قبل الفجر ثم ينهض ليصلى ..

وفى الصباح يذهب إلى عمله .. ليرجع قبيل الظهر فى لهفة .

وأقبلت كوثر تضم الصغير إليها .. وكأن روحها قد ردت ..

انتصرت يا سيدة ..

مرة من نفسك ..

تنتزعين عزيزا عليك من براثن الموت بعد معركة مريرة معه .

عزيز .. وأى عزيز .

عزيز عليك كابنك ..

إى والله يا سيدة ..

ما كانت معزة جابر أكثر من معزة هذا الصغير الذى عشت معه هذه الأيام ، سهرت معه هذه الليالى .. تضمينه إلى صدرك .. وتتحسسين جبينه بكفك لعل الحرارة تكون قد هبطت .. والعلة فى طريقها إلى الزوال ..

وكم سألتك كوثر خلال أيام المرض أن تستريحى .. فكنت تحسين راحتك إلى جوار الصغير .. وسألتك عن جابر فى المرات القليلة التى عدت فيها إلى شقتك لتقومى ببعض ما يمكن من التزامات ..

ــ كيف حال جابر ؟

فأجبتها فى شرود :

ــ لا تحملى همه .. إنه فى يد أشد برا به ورعاية .

وقطع الحوار بينكما دخول بعض الزوار فنهضت كوثر لتستقبلهم .. وانتهى الحديث ..

وعندما زالت الغمة .. أقبلت عليها كوثر بذراعيها باكية وهى تتمتم :

ــ لست أدرى كيف أشكرك يا سيدة ..

وأقبل حمدى ينظر إليها نظرات ملؤها الحمد والاعتراف بالجميل ثم قال فى هدوء وثقة :

ــ كنت أعرف دائما أنك مخلوقة خيرة .. وأن معدنك طيب كريم .. ولست أعرف كيف أرد لك الجميل ..

وأحست من كلماته براحة كبرى .. وتملكها إحساس المجهد الصادى .. يخلد إلى نبع ظليل ..

وتمتم بكلمات مدغمة كأنها تحدث نفسها :

ــ أى جميل . أنا ما أحسست بمتعة فى حياتى .. كما أحسست بمتعة تجاه الصغير .. مرة واحدة .. أحس بالانتصار على الزمن .. مرة واحدة .. أحس بقدرتى على نزع الشوك الذى لم أزرعه ..

وربتت كوثر ظهرها فى حنان قائلة :

ــ أظن الوقت قد حان لكى تذهبى إلى جابر ؟

وتمتمت كوثر :

ــ كم وددت لو استطعت إحضاره إلى البيت .. ولكنى كنت أخشى عليه من العدوى ..

ورفعت سيدة بصرها إليها وشرد بها الذهن ثم تمتمت قائلة :

ــ لم يعد يخشى على جابر من شىء .

و لم تفهم كوثر ما تقصد إليه سيدة .. وعادت سيدة تتمتم قائلة :

ــ بات بمنجاة من كل عدوى .

وأحس حمدى بما يمكن أن يكون وراء قولها من وجيعة فأقبل عليها ووضع يده على كتفيها متسائلا :

ــ ماذا تقصدين يا سيدة ؟

ــ رحمه الله يا سى حمدى .. أخذه إلى جواره .

وضربت كوثر على صدرها فى جزع والدموع تطفر من عينيها :

ــ ما هذا الذى تقولينه يا سيدة ؟

وحاولت سيدة جهدها أن تتمالك وردت فى هدوء :

ــ جابر تعيشى انت .

وأقبلت كوثر تضمها إليها باكية وهى تقول :

ــ لماذا لم تخبرينا يا سيدة ؟..

ــ كفى ما أثقلت عليكم به من مشاكل .. ألم يكف خروجى من عندكم بالبوليس ؟.. وما سببته لكم من فضائح حتى أعود لأحملكم مصائبى .

واقترب حمدى منها .

وببساطة مد ذراعيه فجذبها نحوه . وضمها إليه . وتحسس رأسها فى حنو :

ــ وما ذنبك أنت يا سيدة فى هذا ؟ لقد كنت دائما واحدة من هذا البيت .. كنا دائما كأهلك . والأهل يتشاركون فى الأرزاء والأحزان .. ألم تشاركينا أنت ؟.. فى كل متاعب المرض التى مرت بنا .

وبدأت سيدة الاستعداد للخروج .

وقال لها حمدى متسائلا :

ــ إلى أين ؟

ــ أعود إلى عملى .. لقد طالت غيبتى عن عيادة الدكتور .

وفكر حمدى برهة ثم عاد يتساءل :

ــ أهناك ضرورة للعودة إلى عيادة الدكتور ؟

وأجابت سيدة :

ــ رزق يا سى حمدى .. ليس لى سواه .

ــ ولماذا لا تبقين معنا ؟

ــ وماذا أفعل؟..

ــ تبقين بيننا .. واحدة منا ..

وأردفت كوثر فى حماس :

— إن حمادة قد تعلق بك .. ولم يعد يستغنى عنك .

وردت سيدة فى رقة :

— تمنيت لو أقضى معكم عمرى .

وتساءل حمدى :

— ولماذا لا تفعلين ؟

— لست أريد أن أثقل عليكم .

— لن تثقلى علينا أبدا .

وعلا صوت الصغير من الداخل ينادى :

— سيدة .. سيدة .

وردت عليه سيدة قائلة :

— نعم يا حبيبى .

— تعالى .

وأقبل الثلاثة على الطفل فى فراشه :

وقال الصغير :

— اجلسى يا سيدة .

وقال له حمدى ناهرا :

— لا تقل سيدة حاف ..

— وماذا أقول ؟

— قل خالتى سيدة .

وردد الصغير :

— اجلسى يا خالتى سيدة .

وضمته سيدة فى حنان قائلة :

— بل قل سيدة .

ثم أردفت وهى تغالب دموعها :

— كان جابر يناديني هكذا دائما .

ونظر الصغير إلى سيدة وقد رآها ترتدى ثياب الخروج وتساءل قائلا :

— لماذا ترتدين هذه الثياب ؟

وردت كوثر :

— لأنها تريد أن تخرج .

— إلى أين ؟

— إلى بيتها .

— ولماذا لا تبقى معنا ؟

— قل لها هذا .

والتفت الصغير إلى سيدة قائلا :

— ابقى معنا يا سيدة .. ألا تحبيننى ؟

وضمته سيدة قائلة :

— كعينى .

— أنا أيضا أحبك .. أد الدنيا دى كلها .

واستقرت سيدة فى بيت حمدى .. بعد أن خلصت من شقتها بما فيها وبعد أن اعتذرت للدكتور عبد الرحيم .

استقرت أخيرا .. كواحدة من البيت .

ليست كشغالة .. ولا تومرجية ..

بل فرد منهم ..

خاتمة المطاف يا سيدة ..

استقر بك المقام .. مع حمدى .. كلا شيء .. وككل شيء .. إذا قسنا وجودك .. بمقاييس الصلات المصطلح عليها .. لست أما .. ولا أختا .. ولا زوجة .. ولا قريبة .. ولا حتى عشيقة .. لا شيء أبدا ..

ولكنك مع ذلك .. بت فى بيته كل شىء ..

بت أقرب من فى البيت إلى كل من فيه ..

بت محوره .. والمسئولة عن كل ما فيه ..

التصق بك الصغير .. فلم يعد يترك ذيل ثوبك أينما ذهبت .. ولا ينام الليل إلا بين ذراعيك .

و لم تعد كوثر تستغنى عنك لحظة .

لم تكن خدمة البيت جديدة عليك .. ولا كان التعامل مع الباعة غريبا عنك .. كانت حرفتك .. فأضحت هوايتك ..

تستيقظين مبكرة .. دون أن يجذبك أحد من شعرك ، وتنتهى من نظافة نصف حجر البيت ، وتجهيز مائدة الإفطار قبل أن يستيقظوا وبعد أن يخرج حمدى. تعاودين نظافة البيت .. ثم تخرجين لشراء احتياجات البيت ، بلا غزل فى الطريق .. ولا تسكع عند الباعة .

وتعودين إلى البيت فتشاركين كوثر فى المطبخ بعد أن يتناولوا طعامهم .

ولكنهم أصروا على أن تشاركيهم فى الجلوس على المائدة ..

وهكذا حللت فى البيت محل الست فاطمة ، أو الست الكبيرة ..

أصبحت سيدة البيت يا سيدة .. ببساطة وهدوء ..

كانت تشكو إليك كوثر عندما يضايقها حمدى فى شىء .. و لم يكن حمدى يستنكف منك التدخل أو يهمل النصح .. ومرت الأيام يا سيدة ..

استمرت عجلة الزمن تدور فى غير كلل ..

كبر محمد أو حمادة كما كان يدلل .. أو حمدى .. كما كان أصحابه ينادونه فى المدرسة .

وسمعت سيدة عن قيام الثورة وخلع الملك . وعن حرب السويس .. والسد العالى ..

ولكنها لم تكن تحس أن دنياها المحدودة تتغير .

قدم البيت .. وازداد زحام الشارع ..

ولكن بائع حمص الشام مازال يقف على الناصية يهتف « كبشة بمليم يا حمص الشام » .. ليذكرها بحقول الخبيزة تفترش الأرض .. والريح تهز أطراف القصب فيبدو الحقل كموج البحر .. واللوف تمتد أوراقه لتكسو السور العريض وتنتشر الزهور الصفراء .

وفى الليل يتصاعد نداء بائع الجوزية :« اللذيذة عال الجوزية يا عال الملبن » ..

وبمصروف يدها .. كانت تبتاع للصغير الحبيب .. الجوزية وحمص الشام .. والحمص والملانة وابتاعت له عصفورين ملونين تكاثرا وملآ الحجرة زقزقة وتغريدا ..

وكان يخلد إلى صدرها طوال الليل .. تضمه فى حب وحنان ..

وازداد الشيب فى رأس حمدى .. وازدادت التجاعيد .. وامتلأت كوثر بعد أن أنجبت سميرة ..

وتولت سيدة مسئولية سميرة منذ أن ولدت .. عرفت أبويها سهر الليل .. وتغيير اللفافات .. وعمل الكراوية .. وسقيها الجريب ووتر عند المغص ..

واستمرت عجلة الزمن تدور . وكبرت سميرة ..

وضاقت شقة روض الفرج بأهلها ..

وفكر حمدى فى الانتقال ..

ولكن أمره استقر ألا ينتقل إلا إلى البيت الذى عزم على بنائه .

واشترى حمدى قطعة أرض فى المقطم بالتقسيط على خمسة عشر عاما .. أكد لكوثر أنها لقطة .. وأن الجو هناك ممتاز ..

وبدأت عملية البناء .. وزراعة أشجار الحديقة .

وحملهم حمدى بضع مرات فى عربته الصغيرة .. ليروا البيت الجديد تتعالى جدرانه .. والأشجار تورق من حوله .

ومرت الشهور .. والأسرة ترقب البيت الجديد .

ومضى عام وأوشك البناء على الانتهاء .

وراح حمدى الصغير يقول لسيدة :

ــ أعددنا لك يا سيدة حجرة ممتازة .. تشرف على الحديقة .. والسطح .. سترين الأهرام والنيل يمتد أمامك ..

وضحكت سيدة قائلة :

ــ أنا آوى فى أى حجرة ياسى حمدى .. ماذا سآخذ من الأهرام والنيل ؟

ــ عبيطة إن منظره رائع .. وهواء المقطم جميل ..

وبدأ الاستعداد للانتقال إلى البيت الجديد .

وفى ذات صباح أحست سيدة بآلام فى باطنها .. شيئا كآلام المغص ..

واشتكت لكوثر ..

وامتنعت عن الطعام بضعة أيام ..

ولكن الألم استمر يعاودها بين آونة وأخرى .

وفقدت شهيتها للطعام .. باتت تعاف كل ما يقدم إليها .. لم تعد لها القدرة على ابتلاعه ولا هضمه ..

وأخذت تهزل يوما بعد يوم ..

ضمر جسدها .. الممتلىء .. ولم يعد بها سوى جلد على عظم .

وزارها الطبيب بضع مرات ..

وفى كل مرة يعطيها حبوبا أو أقراصا ..

وفى آخر مرة توقف على الباب الخارجى مع حمدى ليقول له :

ــ اسمع ياأستاذ حمدى .. أعتقد أن بباطنها أوراما خبيثة .. ولست أرى فائدة من أى علاج .. وقلبها ليس سليما ..

وبدا على حمدى الجزع وقال للطبيب فى صوت خفيض :

ــ وما العمل ؟

ــ ليس هناك شيء يعمل .. رحمة من الله .. لو قضى عليها القلب لتجنبتها آلام المرض .. قبل أن تستفحل ..

ــ هل نقوم لها بأية تحاليل .. أو هل هناك فائدة من إجراء عملية ؟..

ــ أبدا .. كل ما نستطيع عمله هو أن نذهب بها إلى المستشفى لتكون تحت ملاحظتى .. إذا هاجمها الألم ..

وعرف كل من فى البيت الحقيقة .

وأدركت سيدة أن معركتها هى مع الموت قد حانت وأن كل أملها فى أن تخرج من المعركة بلا آلام ..

(٤٧)

الحرية أخيراً

الأيام تمر ..
وسيدة تزداد ضمورا وهزالا ..
وآلام المرض لم تستبد بها بعد .
والطبيب ينصح بأن ينقلوها إلى المستشفى .
والرحيل قد أوشك أن يتم إلى البيت الجديد فى المقطم .
والحيرة تستبد بحمدى .. هل يذهب بسيدة لتقضى نهايتها فى البيت الجديد .. أو يسمع إلى نصح الطبيب ويضعها تحت ملاحظته فى المستشفى .. وشفاؤها مستعص وبرؤها ميئوس منه .. وأقصى أمنية يتمناها أحباؤها لها أن ترحل بغير وجيعة ولا آلام .. أن يقضى عليها داء القلب ، قبل أن يفتك بها السرطان .
وتساءلت كوثر .. وقد غلب عليها الحزن :
ـــ ماذا يمكن أن يفعلوا لها فى المستشفى ؟..
ورد حمدى وهو مطرق :
ـــ المستشفى أفضل من البيت .. حيث يخففون آلامها لو حدثت .
وقال حمادة فى إلحاح :
ـــ أبقها معنا يا أبى .. دعها تذهب معنا إلى المقطم .
وعلى فراشها فى حجرتها الصغيرة المطلة على المنور كانت تجلس وقد شرد بها الذهن ..
حلت النهاية يا سيدة .. أو كادت .

حلت بغير ضجيج .. ولا فزع .
حلت متسللة .. كأن الموت يكره أن يواجهك .. فهو يلف من حولك حتى يأخذك على غرة .
الموت !! ليته يعلم كم هو مريح ..
لن يكون بينك وبينه صراع يا سيدة . فقد رفعت له الراية البيضاء ..
ستلقينه يا مسكينة بغير مقاومة ..
قاومته من قبل .. عندما أقبل على أعزائك .. و لم تجد معه المقاومة ..
مللت معاركك معه .. فليقبل ..
لم يبق لديك حاجة فى الحياة لم تقضها ..
نلت كل ما اشتهيت من دنياك ..
وما عاد بك من حاجة إلى المزيد بل قد يكون خلاصك منها .. مزيد من قضاء حاجاتك ..
بت قريرة البال يا سيدة .
بعد طول ضرب فى طريق الشوك .. لانت لك الحياة ..
أصبحت سيدة بيت الأسرة الطيبة .
بت لهم .. أعز ما عندهم .
قدمت من أجلهم كل ما تملكين من جهد .. وبذلت ما بقى من أيام من أجل إسعادهم .
ضمك سقف واحد .. مع أمنيه العمر .. ورعيت ابنه .. وبت له أكثر من أم .. وبات نبتك الأخضر اليانع وزهرتك الناضرة المشرقة .. ملء أحضانك ..
ورعاك هو وزوجته .. صديقتك الصغيرة كوثر .. خير من ألفتها وألفتك ..
واسترحت إليها واستراحت إليك ..
كل ما تتمنينه هو أن تبقى معهم حتى النهايه ..
لا ضرورة لغربة المستشفى .. ووحشتها ..

فقط .. ليجنبك الله شر آلام المرض .. ليأخذك فى صمت وبغير ضجيج .. ليكرمك الله فى نهايتك .. وليجعلها أقل مشقة من حياتك .. ليخرجك منها بلا عذاب .. فلقد أخذت من العذاب نصيبك .

وقالت لحمدى الصغير وهو يقبل عليها متسائلا :

— كيف صحتك .. يا سيدة ؟. تبدين اليوم أفضل .. لقد أحضرت لك البن الذى طلبته .

— لا حرمنى الله منك .. اجلس يا حبيبى .

— هل تناولت إفطارك ؟

— لم يكن لى نفس .

— لا بد أن تأكلى يا سيدة ..

— لا أستطيع يا حبيبى .. متى سترحلون إلى البيت الجديد ؟

— غدا أو بعد غد ..

— قل لأبيك يا حمدى إنى لا أريد أن أذهب إلى المستشفى .

— ومن قال إنك ستذهبين ؟

— سمعت الطبيب يقول له إن المستشفى أفضل .

— لا يهمك من الطبيب .. ستذهبين معنا .

وفى اليوم التالى أحست سيدة بأنها أفضل .. واستطاعت أن تنتقل إلى الصالة فجلست على أحد المقاعد .

وجلست سميرة الصغيرة تحكى لها عن بيت المقطم .

وسمع صوت عربة تقف بالباب .

واندفعت سميرة إلى الخارج لترى القادم .

ثم أقبلت مسرعة وهى تصيح :

— واحدة تقول إنها حرم الأستاذ عبد الحميد .. تريد أبى .

ثم اندفعت إلى حجرة حمدى صائحة :

— بابا .. حرم الأستاذ عبد الحميد تريدك .

وتساءل الأب فى دهشة :

— الأستاذ عبد الحميد .. من ؟

— سيدة سمينة .. ومعها رجل ..

وخرج حمدى من حجرته يرتدى القميص والبنطلون .. ونهضت سيدة متحاملة على نفسها وهى تتجه إلى الباب لتدخل الضيوف .

وسبقها حمدى إلى الباب قائلا :

— استريحى أنت يا سيدة .

وأقبلت الطارقة ووقف حمدى أمامها ولبضع ثوان لم يدرك من هى حتى هتفت به :

— حمدى بك .. ألم تعرف من أنا ؟

وهتف حمدى مرحبا بعد أن ميزها :

— أهلا صفاء هانم .. تفضلى .

ثم تلفت وراءه ليقول لكوثر :

— صفاء هانم .. جارتنا فى جنينة ناميش .

وأقبلت كوثر ترحب بصفاء ومن ورائها شاب طويل قدمته إلى حمدى قائلة :

— ابنى ممدوح .. خريج معهد الصحافة .

— أهلا وسهلا تفضل ..

وانسحبت سيدة من الصالة إلى المطبخ ووقفت ترقب القادمة .. السيدة السمينة التى وخط الشيب رأسها .

هذه هى صفاء ..

ترى أيمكن أن يكون فى نفس حمدى .. بقايا لهذا الشعاع الذى طالما شع من قلبه نحوها .. عندما كانت تقف فى النافذة وقت الغروب وقد بدت رقيقة حالمة يتهدل شعرها على كتفيها .

ترى أما زالت للوردة التى ضمتها صفحات الكتاب بقايا ؟.

ترى ألم تزل صفاء .. هى وحدها القادرة على أن تمنحه هذه الوردة ؟.

ما أشد أن يسخر بنا الزمن ..

بمشاعرنا .. ومواجعنا ..

يجعلنا نهيم .. ونحلق .. ويرهف بنا الحس ويرق المشاعر ونغلق قلوبنا على إنسان .. لا نتوهم فى الخليقة غيره .

كل ما فى الوجود يشرق له ويسبح به .. لا طعم للحياة بدونه .. لا قيمة لزهرة تتفتح .. أو نسمة تهب .. أو طير يغرد .. إلا إذا ارتبط بوجوده ..

ويمسى مساء .. ويصبح صباح ..

ويقذف به الزمن إلينا من جديد .. فإذا بالأحلام تتبدد .. وإذا به مخلوق كغيره من المخلوقات .. بكل ما فى المخلوقات من تفاهات وسخافات ..

وتصمت أجراس القلب .. وتبهت إشراقة الفؤاد .

وتقبل عليه فإذا به جسد أجوف .. جرده الزمن من كل ما خلعناه عليه من سحر أوهامنا .

وللزمن عطايا .. لا سبيل إلى رفضها أو الخلاص منها .. ترهل .. وشيب وتجاعيد .. وبطن منتفخ .. ومطالب من الحياة .. تبدو أمامها المشاعر الرقيقة والأحاسيس المرهفة سخريات وعبث .

وجلست صفاء .. فملأت الكرسى ..

وأخذ حمدى يرمقها .. يبحث فيها عن طيف طالما أرقه .. وأهاج فيه الحنين وأيقظ الشوق .

وسرعان ما جرفه الحديث .

قالت صفاء بعد مقدمات عن السلام والوحشة .. وأيام زمان .. وترحمها على الست الكبيرة .

— ممدوح تخرج هذا العام من معهد الصحافة وأبواب الحكومة مغلقة إلا من

وظائف التدريس وهو لا يريد أن يذهب إلى المنيا .. أو سمالوط .. ومجال العمل فى الصحافة أوسع ومستقبلها أفضل .

وهز حمدى رأسه وهو يعرف فيض المحررين الذين تزخر بهم المجلة ويعرف أن المجلة لم يعد أشق ما فيها الكفاح من أجل الوطن ..

بل الكفاح من أجل موازنة الميزانية ودفع مرتبات المحررين والعمال .

وعادت صفاء تردد :

— وقلت لأبيه إن العشرة قديمة بيننا .. وأننا كنا جيرانا .. وأنك لن تتأخر عن تلبية أى طلب لنا ..و ..

وقال حمدى مقاطعا :

— طبعا .. طبعا ..

ثم نظر إلى الشاب وقال له برقة :

— تمر على غدا فى المجلة .. سأكون موجودا من العاشرة حتى الثانية وسأفعل لك كل ما يلزم .

وأجاب الشاب وقد غلبه الحياء :

— متشكر .. يافندم .

وانصرفت صفاء وابنها .

طوى الزمن بعجلته التى لا تكف عن الدوران .. كل مشاعر الحنين والوله .

والتقى الاثنان لقاء الغرباء .. وافترقا فرقة الغرباء .. ولولا حاجة سنحت .. لما ذكر أحدهما الآخر .. عمره .

وفى اليوم التالى بدأ الانتقال للمقطم .

انتقل كل شىء ..

ولم يبق سوى سيدة راقدة على فراشها فى حجرتها الصغيرة .. والعصافير الملونة تتواثب فى القفص بجوار الفراش .

وقبيل المغرب .

أقبل محمد .. أو حمادة .. أو حمدى الصغير ..

وكان الضعف قد استبد بسيدة ..

وكانت كوثر قد أمضت يومها فى نقل الأثاث ومحاولة ترتيبه ..

وقال محمد وهو يمسك بيد سيدة ويساعدها على النهوض .

— أعددت لك الحجرة .. لا يمكن أن تتصورى كم هى جميلة .. لن تشعرى فيها بالحر الذى تحسينه هنا .. لها نافذة تشرف على الحديقة والأخرى تشرف على سفح الجبل .

وأحست سيدة أن قدميها تكادان لا تقويان على حملها وضم الصبى جسدها الهزيل إليه حتى كاد أن يحمله ووصل بها إلى العربة ثم أجلسها قائلا :

— استريحى يا سيدة .. حتى أحضر لك الغطاء تغطين به ساقيك .. والمخدة تستندين بها رأسك .

— لا تتعب نفسك يا حبيبى أنا مستريحة هكذا .

وجلس محمد بجوارها وهو يضمها إليه ويسند رأسها على كتفه :

— استندى إلى يا سيدة .. استريحى على صدرى .

ورددت سيدة :

— ربنا يحميك يا حبيبى .. ربنا يحبب فيك خلقه .

ووصلت سيدة إلى المقطم واستقرت فى حجرتها الصغيرة المطلة على السفح .

هنا آخر أيامك يا سيدة ..

جميل هذا المكان .. من بعيد يبدو النيل شريطا يلمع فى أشعة الشمس المنحدرة فى الأفق . من بعيد تبدو البيوت كالدمى والأشجار كالأطياف . كل شىء يبدو من بعيد يا سيدة وكأنه صورة أحداث أيامك الغابرة .. لا شىء يبدو قريبا سوى أسقف المقابر الممتدة فى سفح الجبل .. هى وحدها التى تبدو فى وضوح الحقيقة وهى لاتملؤك بحزن ولا جزع .. بل إن لها فى نفسك سكينة المستقر .. وراحة المأوى .. بعد كل هذا العدو فى الطريق أدمى شوكة قدميك .. تستقرين

أخيرا .. فى مضجع آمن .. هادىء ..

لن يكون المضجع موحشا .. ما دمت ستأوين فيه مع أحبائك الذين صارعت الموت من أجلهم .. إنهم جميعا يجمعهم فى باطن الأرض مرقد واحد عدا الصغير جابر ..

استكثر الموت عليه المستقر .

وضعوه فى مقابر الصدقة .. ودهم الأحياء مرقده .. وطوته عرباتهم وأقدامهم .

أترى الموت سيبخل عليك أنت أيضا براحة المرقد .. وأنس المستقر ؟

وتذكرت جلسة الأسرة فى كل مرة حول الشاهد .. والعمة توزع فطير الرحمة .. والفقهاء يتبادلون القراءة .

مقر مؤنس يا سيدة ..

لو أنعم عليك الموت به !!

وأرقدك فيه .. مع من قضيت عمرك آمنة فى جوارهم .

وأقبل البيه حمدى .. أو حمدى الكبير .

وجلس بجوارها على طرف الفراش وسألها فى حنان :

— كيف حالك يا سيدة ؟. لقد أحضرت لك الشاش الذى طلبته لكى تعملى منه مناديل رأس .. هل تريدين شيئا آخر ؟

وصمتت سيدة برهة ثم قالت فى صوت خفيض :

— لى رجاء عندك أخشى أن أثقل عليك به .

— خير ؟

— أن أدفن فى مدفنكم .. مع المرحومة الغالية .. وسيدى الكبير .

— لا داعى لهذا الكلام يا سيدة .. ربنا كريم .. يشفيك ويطيل عمرك .

— لم يعد فى العمر بقية ترتجى . عدنى حتى أستريح فقد أصبح كل ما أتمناه ألا أثوى بعيدا عنكم .

وربت حمدى ظاهر يدها فى رفق .. وأجابها بصوت غلبه التأثر وهو يغادر الغرفة :

— ستبقين معنا يا سيدة .. أنت واحدة منا ومكانك بيننا دائما .

وأقبل محمد يحمل فى يده كيسا صغيرا وجلس بجوارها قائلا فى حنان :

— أحضرت لك أكل العصافير يا سيدة .. هل تضعينه لها فى القفص ؟

ونظرت سيدة إلى العصافير الملونة التى كانت تربيها لتسلى بها محمد منذ كان طفلا وقالت له فى ضعف :

— لم يعد بى من جهد لخدمتها يا حبيبى .. افتح القفص وأطلقها ..

ونظر محمد إليها فى شيء من الدهشة ولكنه فتح القفص .. فانطلقت العصافير إلى الفضاء الفسيح ..

وملأت السكينة صدر سيدة ..

لو أن لك القدرة على الانطلاق كهذه العصافير يا سيدة .. لكنت أنعم الناس بالا وأقرهم نفسا .

قربت ساعة الخلاص .. لم يعد أمامك سوى أن تسيرى خطواتك الباقية .. وتتخلصى من كل ما لديك من هموم ..

فقط .. لو وقاك الله شر الألم وخلصك من قيده المرتقب .

لم يبق بينك وبين حريتك .. سوى قيد الألم .

تحررت من كل ما استعبدك ..

حتى أحزانك .. لم تعودى عبدة لها ..

راحة الأيمان تملأ جوانحك يا سيدة .. كل شيء جميل حولك ..

النفوس ترعاك بالمحبة ..

والوجوه تهش لك ..

والأمانى الحلوة تحيط بك ..

إن لم يعد لها فيما تبقى من حياتك موضع فمجرد الإحساس بها جميل يملأ

النفس بالارتياح .

وفى ذات صباح .. أحست سيدة بألم يوجع باطنها ..

بدأ صراعك مع الموت يا سيدة ..

لماذا لا يتركك تخرجين فى هدوء ؟..

إنك لن تقاوميه ..

إنك لا ترين فيه أبدا خصما لك ..

إنك ترحبين به ..

لماذا يصر على أن يواجهك بأسلحته الموجعة ؟

لماذا يأبى إلا أن ينتزع آهاتك ؟.

ألم يكفه ما أنزله بك من آلام وأنت تواجهين صراعه مع أعزائك الراحلين ؟

لماذا التجبر .. أمام استسلامك واستكانتك .. لماذا لا يجنبك مذلة العذاب ؟

وفجأة .. راح الألم ..

لم تعد سيدة تحس بشيء ..

ملكت حريتك ، أخيرا يا سيدة ..

لم تعودى بعد عبدة حاجاتك .

ولا مشاعرك .

ولا أحزانك .

ولا آلامك .

انطلقت متحررة من كل متاعب الحياة .. ومواجعها .

وفى سكون حملتك الأكف .. فى طريق نزع الموت أشواكه .. ليسجيك فى مرقد آنس فى صمته من كل ضجيج الحياة .

وعلى مرقدك ذرف الأحياء دمعة كانت أندى على روحك من كل نعم العيش .. ووضعوا زهرة محت لمستها كل ما أدمى قلبك من أشواك الحياة .

« تمت »